

نزْهَةُ الْعُقُولِ فِي صَحِيحِ أَسْبَابِ النُّزُولِ

تَمَّ فِيهِ الْجَمْعُ بَيْنَ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ وَكُتِبَ أَسْبَابُ نَزُولِ آيَاتِ الْقُرْآنِ
مِنَ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ الثَّابِتَةِ وَالْمَرَاجِعِ الْأَصِيلَةِ بِأَسْلُوبٍ سَهْلٍ مُيَسَّرٍ
مَعَ شَرْحٍ مُوجِزٍ لِبَعْضِ أَحْكَامِهَا وَحِكْمِهَا وَفَوَائِدِهَا وَفِقْهَهَا وَمَوَاعِظِهَا

د. عبد العزيز بن سعيد بن غائب

نزهُةُ العُقُولِ

في صحیح أسباب النزول

تمّ فيه الجَمع بين أقوال المُفسِّرين وكُتِب أسباب نزول آيات القرآن من الروايات الثابتة الصحيحة والمراجع الأصيلّة وبأسلوبٍ سهلٍ مُيسِّرٍ مع شرح موجز لبعض أحكامها وحكّمها وفوائدها وفقّهها ومواعظها

د. عبد العزيز بن سعيد بن غائب

ح) عبدالعزيز بن سعيد بن غائب، ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن غائب، عبدالعزيز بن سعيد

نزهة العقول في صحيح أسباب النزول / عبدالعزيز

بن سعيد بن غائب. - خميس مشيط، ١٤٤٣ هـ

٣٠٩ ص، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٣٦٦-٥

١ - أسباب نزول القرآن

أ- العنوان

ديوي ٢٢٣,٦

١٤٤٣/١٠٤

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٠٤

ردمك : ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٣٦٦-٥

الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾

الإسراء: ١٠٦

* * *

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

(والله الذي لا إله غيره ما من كتاب الله من سورةٍ إلا وأنا أعلم أين نزلت
وفيمَ نزلت ، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله مني تَبْلُغُهُ الإبل لركبتُ إليه)

رواه البخاري ومسلم

مُقدِّمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن هُدًى ورحمة وبُشْرَى للمؤمنين،
والصلاة والسلام على محمد رسول الله وخاتم النبيين، أما بعد:
فإن "أسباب النزول" علمٌ عظيمٌ جليل، به نعرف حكم التشريع
والتنزيل، وأسرار التفسير والتأويل، واستتباط الأحكام والتعليل، وبه
تُدْحَضُ الشُّبُهَاتُ والأباطيل.

وقد أُلِّفَ فيه كُتُبٌ فيها خيرٌ كثير، واهتمَّ به المفسِّرون في
كُتُبِ التفسير؛ كتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير الطبري،
وتفسير القرطبي، وأسباب النزول للواحدي، ولباب النقول في أسباب
النزول للسيوطي، والعُجَابُ في بيان الأسباب لابن حجر، والصحيح
المسند في أسباب النزول للوادعي، وصحيح أسباب النزول للحميدان،
وتسهيل الوصول لأسباب النزول لخالد العك، وكُتُبٌ أخرى كثيرة ..
غير أن هناك عوائق وعقبات قد تصرف عن الاستفادة من مراجع
هذا العلم والوقوف على عجائبه وفوائده ..

منها: خَلَطَ الضعيف بالصحيح، ونقل الروايات من غير نقدٍ ولا
تمحيص، والتوسُّع في سرد الأقوال والأسماء والأسانيد والمواقف التي
ليست من الأسباب، واختصار أو بتر الأخبار؛ فلا تتضح تفاصيلها
للقارئ إلا بالرجوع إلى كُتُبِ التفسير وكُتُبِ الحديث وشُروح السُنَّة؛
وفي ذلك مَشَاقُّ وصُعوبات؛ خاصة في هذا العصر الذي ضعفت فيه الهمم
وكثر فيهِ المُشغلات ..

- وفي هذا الكتاب حاولتُ تجاوزُ تلك العَقَبات، فكان عملي فيه:
- ١ - الجَمع بين تلك الكُتب، واحتواء الزيادة والنقص فيما بينها؛ من غير تطويلٍ مُملٍ ولا اختصارٍ مُخلٍ.
 - ٢ - مع كُتب الأسباب رجعتُ إلى (كُتب التفسير) و(كُتب الحديث الشريف وشروحاها) لاستيفاء النصوص، واستكمال الروايات؛ وشرح المفردات والمعاني والمُبهمات.
 - ٣ - اجتهدتُ في تَجَنُّب الضعيف وتحريي الصحيح الثابت، وعند تعدد الروايات أجمَع بينها وإلا أختار أصحّها وأقربها لسياق الآيات.
 - ٤ - علّقتُ على تلك الأسباب بما يُظهر فوائدها ومواعظها وأحكامها الفقهية والتربوية والاجتماعية؛ وبأسلوبٍ سهل مختصر.
 - ٥ - حَفَفتُ الإحالات والأقوال والتعليقات التي تُشغِل القارئ وتأخذ من وقته، واكتفيتُ بتخريج الروايات؛ وبفهرس المراجع في آخر البحث..
- والحمدُ لله الذي بحمده تتمّ الصالحات، وأسْتَغْفِرُ الله عن كل نقصٍ وتقصيرٍ وخطأٍ وخَلَلٍ لا يَخْلُو منه أيُّ جهدٍ بشريٍّ، وأسأله - تعالى - القبول والإخلاص والعلم النافع والعمل الصالح.
- ولا يفوتني أن أقدِّم الشكر والتقدير لفضيلة القارئ الشيخ: شريف بن علي فرَج؛ على ما بذل من وقته لإخراج ومراجعة هذا الكتاب؛ فجزاه الله خيرا.

المؤلف

ثالث أيام التشريق/ ١٤٤٢هـ

a22b2a22@gmail.com

الفصل الأول

مقدمات مهمّة
في علم أسباب النزول

تعريف علم "أسباب النزول"

أسباب النزول: مُرَكَّبٌ إضافي من كلمتين.

"الأسباب": جَمْعُ سَبَبٍ، وهو الحبل الذي يُتوصَلُ به إلى الماء، ثم استُعيرَ إلى كُلِّ ما يُتوصَلُ به إلى غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة: ١٦٦؛ أي: أسباب الوصل والمودَّة، وأسباب السماء: مراقبها ونواحيها^(١).

وقد استُعيرَ لفظ "السبب" إلى الحادثة التي فيها نزلت آياتُ من القرآن؛ لأنه يُتوصَلُ به إلى تفسيرها والوقوف على قصتها وإزالة الإشكال عنها. و"النزول": مَصْدَرٌ نَزَلَ يَنْزِلُ نَزْولاً، وهو الهبوط من أعلى.

والنازل من القرآن على قسمين:

الأول: ما نزل ابتداءً من غير سبب، وهو أكثر القرآن.

الثاني: ما نزل مرتبطاً بسبب، وهو أقل القرآن.

أما في المعنى الاصطلاحي؛ فإن سبب النزول: هو الحادثة التي تقع في زمن النبي ﷺ أو السؤال يوجَّه إليه فتنزل الآية أو الآيات أيام وقوع ذلك؛ مُبَيَّنَّةٌ لحُكْمِ تلك الحادثة أو مُجِيبَةٌ على ذلك السؤال.

ومثال التقييد بأيام وقوع السبب: حادثة "خولة بنت ثعلبة" التي ظاهرَ منها زوجها "أوس بن الصامت" فنزلت بسببها آيات الظَّهَارِ في أول سورة المجادلة، كما في الصحيحين.

(١) القاموس المحيط ص ١٢٣ باب الباء فصل السين، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

كيف كان نزول القرآن وأنواع النزول

نزل القرآن الكريم بالوحي على رسول الله ﷺ، والوحي كان بواسطة جبريل عليه السلام، ولم ينزل من القرآن شيء في النوم ولا بدون واسطة، كما قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٤ .
ومنه (القراءات القرآنية) فهي من وحي السماء ؛ ومما تلقاه النبي ﷺ ؛
عن جبريل ؛ تمشياً مع لهجات العرب ؛ لكي يفهم القرآن .

وللقرآن الكريم نزولان :

الأول : نزوله كله دفعةً واحدة من عند الله تعالى إلى السماء الدنيا، في ليلة القدر من رمضان ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر ١ .

الثاني : النزول المُفَرَّقُ المُنَجَّم ؛ إلى محمد ﷺ ؛ ينزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام شيئاً فشيئاً خلال فترة النبوة حسب الأحداث حتى اكتمل نزوله إلى الأرض في ٢٣ سنة ، وفي هذا النزول المُفَرَّقُ ؛ قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلاً ﴾ الإسراء ١٠٦ (١) .

وفي نزول القرآن مُفَرَّقاً مُنَجِّماً حِكْمٌ عَظِيمَةٌ ؛ منها :

تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، تحدي وإعجاز الكفار، التدرج في التشريع،
مُسايرة الأحداث، تيسير فهمه وحفظه وتطبيقه، التدرج في التربية والعليم،
والتحويل في الموعظة .

(١) انظر: الإتقان للسيوطي ١/١٠٧، وتأملات في علوم القرآن ص ٢٢ د.موسى الإبراهيم.

عِنايةُ العلماءِ بتدوينِ الأسبابِ وتمحيصِ أسانيدِها

ولقد اعتنى العلماء والمفسرون بالأسباب واهتموا بها وجمعوها مسندة، وألّفوا فيها الكتب واحتاطوا في نقلها؛ لأنهم لمسوا شدة الحاجة إليها في تفسير كثير من الآيات، وتوضيح معانيها ومقاصدها، والتي قد لا تتضح إلا ببيان أسبابها.

وممن أفردوا من الأئمة:

الواحدي^(١)، والسيوطي^(٢)، وابن حجر^(٣)، وغيرهم، إضافة إلى اهتمام المفسرين بها في تفاسيرهم كالقرطبي والطبري والرازي وابن كثير.

ومن المعاصرين: مقبل بن هادي^(٤)، وخالد العك^(٥)، وكُتِبَ وبحوث ورسائل جامعية علمية كثيرة؛ في مجال الأسباب؛ أشرت لبعضها في فهرس المراجع.

(١) هو الإمام علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، من علماء النحو والتفسير، توفي (٤٢٧هـ). رحمه الله، وهو أول من ألّف في الأسباب معتمداً على تفسير الطبري وغيره.

(٢) هو الإمام الحافظ المفسر الفقيه: عبد الرحمن السيوطي، من كبار المحدثين والحفاظ، وأثرى المكتبة الإسلامية بمئات المؤلفات، ولد بمصر، وتوفي بها عام (٩١١هـ). رحمه الله.

(٣) هو الإمام الحافظ المحدث: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، له مئات المؤلفات في علوم الشريعة؛ أعظمها فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ توفي بمصر (٨٥٢هـ) رحمه الله، مات عن كتابه "العُجاب" ولم يكمله، وعُثِرَ على مخطوطه، وممن اعتنى بتحقيقه الباحث فواز زمرلي.

(٤) من علماء اليمن، باحث مُحدِّث، وله كتب نافعة، توفي (١٤١٨هـ). رحمه الله.

(٥) خالد بن عبد الرحمن العك، من علماء سوريا في الفقه والتفسير والبحث والتحقيق، وهو شيخ فاضل زاهد، له بحوث وكتب كثيرة نافعة، ت (١٤٢٠هـ). رحمه الله.

أما تصحيح وإسناد الأسباب: فإن المحققين من العلماء والمفسرين يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن صحابته الكرام رضوان الله عليهم، والأسباب عندهم كالأحاديث، فما رواه الصحابي عن الرسول فهو مرفوع، وما روي عن الصحابي فهو موقوف.

ولقد كان السلف يتورعون ويتثبتون في النقل ..

حتى قال الإمام الواحدي - رحمه الله -: «لا يجِلُّ القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل»^(١).

وروي عن التابعي الجليل محمد بن سيرين - رحمه الله - أنه قال: سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن؛ فقال: «اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يَعْلَمُونَ فيمَ أنزل الله القرآن»^(٢)، يعني الصحابة؛ رضي الله عنهم.

هذا زمن التابعين، فكيف بمن بعدهم؟ وبزماننا؟

وكان الإمام السيوطي - رحمه الله - ينتقد المختصرات ويعارض حذف الأسانيد؛ لأنه: بدون الأسانيد يدخل في الرواية الدخيل، ويلتبس الصحيح بالعليل^(٣).

ورغم ذلك فإن من كتب الأسباب - قديماً وحديثاً - مالا يُميز الصحيح من الضعيف، ومنها ما أقحم في علم الأسباب ما ليس منه.

(١) المصدر السابق ص ٨، وانظر: الإِتقان للسيوطي ١ / ٣١، وعلوم القرآن للقطان ص ٧٦.

(٢) فضائل القرآن؛ للقاسم بن سلام ص ٢٥٩، وأسباب نزول القرآن؛ للواحدي ص ١١، وعبيدة

السلماني من فقهاء التابعين ومحدثيهم؛ روى عنه الشيخان في صحيحهما.

(٣) الإِتقان للسيوطي ١٩ / ٢.

الْفَرْقُ بَيْنَ تَعَدُّدِ الْأَسْبَابِ وَتَعَدُّدِ النُّزُولِ

تعدُّدُ (الأسباب) أن تنزل آيةٌ لأسباب كثيرة؛ وهذا جائزٌ وحاصل. وتعدُّدُ (النزول) أن تنزل آيةٌ ثم تنزل مرةً ثانية ثم ثالثة ..؛ كبعض الآيات التي نزلت في مكة ثم نزلت مرةً أخرى في المدينة.

وإذا تعددت الأسباب لآيةٍ واحدة؟ ماذا نعمل؟

١- (الترجيح) بين الأسباب؛ بأن يُقدِّم "الصريح" على "المحتمل"، و"الصحيح" على "الضعيف".

٢- وإذا لم يُمكن الترجيح يجب (الجمع) بينها بقدر المستطاع.

٣- إذا تعذر الترجيح والجمع نقول بـ(تعدُّد الأسباب أو بتكرار النزول) عند تكرر السبب والحدث ^(١).

مثال ذلك :

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ نَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتٍ أَرْوَجُكَ﴾ التحريم: ١.

ذُكر لنزولها سببان؛ هما: العسل، والجارية؛ (كما في الصحيحين). واستحال الترجيح بينهما لصحة كل منهما؛ فما بقي إلا "الجمع بينهما" بجواز تعدُّد الأسباب للآية الواحدة، فكانا سببين مقبولين لجواز ورود تعدُّد الأسباب، وسيأتي توضيح ذلك كاملاً عند سبب هذه الآية.

وكذلك آية اللعان - سورة النور آية ٦- نزلت لعدّة حالات، كلعان هلال

بن أمية، ولعان عويمر العجلاني ..؛ كانت كلها أسباباً لنازلٍ واحد.

(١) البرهان في علوم القرآن؛ للزركشي ٢٩/١، ومباحث في علوم القرآن للقطان ص ٩٠.

السبب العامّ والأسباب الخاصة لنزول القرآن

إن النازل من القرآن لأسبابٍ هو القليل من القرآن، أما أغلب القرآن فقد نزل ابتداءً من غير سبب، كآيات العقائد والإيمان، وكثير من القصص والأحوال الماضية.. فهذه لا سبب معين لنزولها، ولذلك فإنه يخطئ من يلتمس لكل آية سبباً.

وقد نقل الإمام السيوطي في "الإتقان": «أن نزول القرآن قسمان: قسمٌ نزل ابتداءً، وقسمٌ نزل عقب واقعة أو سؤال، ومن الإفراط في علم الأسباب أن نتوسع أو نجعل فيه ما ليس منه، كالأحوال الماضية فإنها ليست بأسباب»^(١).

صحيح أن هناك سبباً عاماً للقرآن كله، وهو هداية الخلق وإرشادهم وإسعادهم ودلالتهم على الله وتوحيده وطاعته، وعدم الإشراك به، وهذا هو السبب الوارد في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة ٢، وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأنعام: ١٥٥، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ١٠٢

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ فصلت: ٤٤

فهذا سببٌ عامٌّ مع الأسباب الخاصة من حوادث أو استفسارات؛ والتي لها دور في بيان مقصود ومعنى بعض الآيات النازلة من أجلها.

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٧٨ للقطان، وانظر: الإتقان للسيوطي ١ / ٢٨؛ والصحيح المسند

من أسباب النزول؛ للوداعي ص ١٦.

تَأخُّرُ النَّزُولِ بَعْدَ وَقُوعِ السَّبَبِ وَبَيَانُ مَا لَيْسَ مِنْ أَسْبَابِ النَّزُولِ

قد يتأخر نزول الآيات عن سببها لحكمة، كما في (حادثة الإفك)، التي نزلت آياتها بعدها بشهرٍ كامل؛ كما رواها البخاري عن عائشة في حديثٍ طويل؛ وفيه قولها - رضي الله عنها -: (وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأنني)^(١).

أما ما ليس من أسباب النزول فمنه:

الحوادث القديمة، وقصص الأنبياء السابقين، فلا تعتبر أسباباً للنزول؛ لأنها لم تقع في زمن النبي ﷺ، لذا أخذ على (الإمام الواحدي) أنه جعل قدوم الأحباش إلى البيت الحرام بالفيلة سبباً لنزول "سورة الفيل"، فإن ذلك ليس من الأسباب في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية.

قال الإمام السيوطي - في مقدمة كتابه لباب النقول -: "أشهر كتب الأسباب كتاب الإمام الواحدي؛ وكتابي هذا يتميز عليه بأمر؛ هي: الاختصار والشمول، وزيادات كثيرة، وتخريج الأحاديث، وتمييز المقبول من المردود والصحيح من الضعيف، والجمع بين الروايات، وتنحية ما ليس من أسباب النزول" اهـ^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٣٢)، ومسلم (٦٩٦٩)، وانظر فتح الباري لابن حجر ٤٥٤/٨، وأسباب

النزول للواحدي ص ٣٣٣.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول؛ للإمام السيوطي ص ١٦؛ ط ٤، وانظر الإتيان؛ له ٣١/١.

قاعدةُ العمومِ والخصوصِ في أسبابِ النزولِ

وهي قاعدةٌ مهمّةٌ في بابِ الأسبابِ.

وذلك أن الآيات لها مع أسبابها ثلاث حالات:

١- أن تكون الآية عامة والسبب عاماً؛ كقوله تعالى: ﴿وَسِعُّوْكَ عَنِ

الْمَحِيضِ﴾ البقرة: ٢٢٢.

٢- أن تكون الآية خاصة والسبب خاصاً؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا

الْأَنْفَى﴾ الليل: ١٧.

ففي هاتين الحالتين يبقى العام على عمومته، والخاص على خصوصه،

ولا يجوز تخصيص عام، ولا تعميم خاص.

٣- أن تكون الآية عامة والسبب خاصاً؛ أي: لفظ الآية (عاماً) نازلاً في

سببٍ (خاصّ)، مثل آيات اللعان والظهار.

فآيات (اللعان) لفظها عامٌ لم تخصص أحداً، لكن سببها هو تخصيص

هلال بن أمية ومن معه؛ وآية (الظهار) في سورة المجادلة آية عامة لم يخصّ

لفظها أحداً، لكن نزولها كان لسبب خاص لم يُذكر فيها؛ وهو شكوى

"خولة بنت ثعلبة" من ظهار زوجها "أوس بن أسيد".

فالعمل في هذه الحالة يكون على القاعدة التفسيرية العظيمة التي تقول:

«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

ومعنى أن: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: أي لا ننظر لسببها

الخاص، بل نأخذ لفظها العام، ولا نعتبر إلا به، ونطبقه على كل شيء

يدخل فيه.

كآية الظهر - المذكورة آنفاً - وإن نزلت خاصة في خولة وزوجها؛ إلا أنها تُعَمَّمُ وتُنطَبَقُ على كل مَنْ ظاهراً من زوجته؛ أخذاً بلفظ الآية العام. وهذا هو الصحيح في هذه الحالة، والذي عليه الأئمة والعلماء سلفاً وخلفاً؛ بالاتفاق.

وهو المتوافق مع عموم أحكام ومقاصد الشريعة؛ لأن اللفظ العام في الشرع يشمل بعمومه جميع ما يشابه سبب نزوله، ويأخذ حكمه، كما هو معلوم عند علماء الأصول.

وباتت هذه القاعدة قاعدةً أصوليةً تفسيريةً نافعة.

ويؤيد ذلك ما جاء في الصحيحين: أن رجلاً من الأنصار قبّل امرأة لا تحلّ

له، ثم ندم وأتى النبي ﷺ تائباً؛ فأنزل الله فيه قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السيئاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ﴾ هود: ١١٤، أي: اعمل الصالحات؛ من التوبة

النصوح، والصلاة والاستغفار ونحوهما تحو خطيئتك وسيئاتك، فقال

الرجل: يا رسول الله، أهذه الآية لي؟ فقال ﷺ: (بل لجميع أمتي كلهم)

رواه البخاري ومسلم.

وكلمة "جميع" من صيغ العموم في لغة العرب.

فوائد معرفة أسباب النزول

في استنباط الأحكام الفقهية وفي التعليم والدعوة

من فوائد الأسباب في هذا الباب :

- ١- أن معرفتها تبين أسرار التشريع وحكمته، ويأخذ العارف بها خبرة وعبرة وحسن تصرف عند تأزم الموقف وحل المشاكل، وعند الضيق، وفي القرآن الكثير من ذلك كقصة الثلاثة، والإفك، وظهار أوس، ولعان هلال ..
- ٢- معرفة تاريخ التشريع والأحوال الاجتماعية السائدة حين نزول الأحكام التشريعية، والتدرج في تشريع بعض الأحكام؛ رحمةً بالعباد.
- ٣- مبادرة الشارع إلى حل المشاكل التي ضاق أصحابها بها ذرعاً، فيأتي الفرج الإلهي بعد الشدة، فيكون لهذا أثرٌ طيبٌ في النفوس.
- ٤- معرفة الأحداث التاريخية التي حدثت في زمن الرسول ﷺ من جهاده وأعماله ومواقف المؤمنين بدعوته والجاحدين لها، وفهم السيرة النبوية.
- ٥- السلامة من الخطأ والزيغ عند تفسير آيات الأحكام أو استنباط الأحكام الفقهية العملية منها أو تفريع السائل الفقهية من دلالاتها، فالعلم بسبب النزول يحفظ المجتهد والناظر من إنزال الآيات في غير معانيها الصحيحة أو الاستدلال بها فيما لا دلالة فيها عليه من المسائل المستجدة.
- ٦- تيسير حفظ الآية؛ لارتباط الأسباب بمسبباتها، والأحكام بالحوادث وبالأشخاص والزمان والمكان..، فذلك يُعين على استذكار الآية وحفظها، وفهم معناها، وهذا يُسمى في علم النفس بـ«تداعي المعاني»؛ حيث يذكر الإنسان الأشياء بذكر ما يقارنُها؛ والشيء بالشيء يُذكر^(١).

(١) وانظر الإتيان للسيوطي ٧٩/٢، والتفسير والمفسرون للذهبي ١١٢/٢

٧. وفي مجال التعليم: فالمعلم والمرّبي المطلّع على أسباب النزول وعلاقتها بالنازل ودورها كوسائل للتوضيح والتدليل يأخذ من ذلك أنه يجب عليه أن يربط دروسه بأشياء ووسائل تمهيدية تجذب المتعلمين، وتعطيهم تصوراً صحيحاً وكاملاً عن الموضوع، أو الدرس، حتى إذا أُلقي عليهم إذا هم قد فهموه وتصوروه، وظهرت لهم أهدافه بلا عناء، ولَمّا كانت الأسباب كالقصص، فالتمهيد بالقصص الواقع أشد تأثيراً وإنبأها.

٨. وفي مجال الدعوة: فالدعوة يدخل فيها التربية، وما يقال هناك يقال هنا، واتخاذ الوسائل لتصحيح التصورات والتمهيد للكلام بالقصص المجمل وإقامة الحجج، والاستفادة من التدرج ومراحل التشريع؛ كل ذلك من مطالب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة^(١).

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٧.

أهمية أسباب النزول في تدبر القرآن وتفسيره الصحيح

لقد أجمع أهل العلم والعقل أن لأسباب النزول أهمية كبيرة في صحة التفسير وإصابة الحق ؛ وجعلوا من شروط المفسر أن يكون عالماً بالأسباب ؛ لأن معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية ؛ وإزالة الإشكال عن معانيها.

قال الإمام الواحدي: « لا يمكن معرفة تفسير الآية - مما له سبب - دون الوقوف على قصتها وسبب نزولها »^(١).

وقال الإمام ابن تيمية: « العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب »^(٢).

وفيما يلي بيان أهمية أسباب النزول ، وأثرها في التفسير :

أولاً: توضيح معنى الآية وإزالة الإشكال الوارد عليها :

ومن أمثلة ذلك :

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ البقرة: ١٥٨.

في الصحيحين: أنه فهم "عروة بن الزبير" رضي الله عنه عدم فرضية السعي بين الصفا والمروة وأن لا جناح ولا حرج في ترك السعي بين يطوف بالصفا والمروة!

فصححت عائشة - رضي الله عنها - له فهمه ، **وقالت:** إنها أنزلت في قوم كانوا يهلون لصنم يعبدونه ؛ ثم يتحرجون ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وفيها مشروعية السعي بين الصفا والمروة للحاج والمعتمر ، وإبطال أعمال الجاهلية.

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٥.

(٢) راجع: مقدمته في أصول التفسير ص ١٣.

٢- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا

مَا اتَّقَوْا ءَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ المائدة: ٩٣

هذه الآية أشككت على بعض الصحابة ؛ فكانوا يرون أن الخمر مباحة ،
ويحتجون بنفي الجُنَاح عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ،
ثم اتقوا وأحسنوا..

فأنكر عليهم عمر بن الخطاب .

فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عُذْرًا لِلْمَاضِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى

المنافقين ؛ لأن الله - عز وجل - يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة: ٩٠ ؛ فإن كان من الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فالله قد نهاه أن يشرب الخمر.

وَمَنْ مَاتَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ.

فسبب نزول الآية قد أزال الإشكال عنها ؛ حيث خصّها بمن (مات) من

الصحابة وهم يشربون الخمر (قبل تحريمها) ، وبه رد ابن عباس على من أخطأ

في فهم الآية ، فلولا سبب النزول لبقِيَ هُوَلاء على خطئهم ؛ حيث فهموا من

الآية العموم.

ثانياً: أن معرفة الأسباب تُعين على معرفة الحكمة التي من أجلها شرع الحكم.

وذلك أن سبب النزول يحكي الملابس والظروف والأوضاع التي كان الناس عليها قبل تشريع الحكم، فبالرجوع إليه نتعرف على الحكمة التي قصدها الشارع.

ومن الأمثلة على ذلك: ما رواه مسلم: أنه حصل شجاراً وتنازع بين بعض الأنصار بسبب خمرٍ شربها بعضهم قبل تحريمها؛ فأنزل الله قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة: ٩٠.

فحرّم الخمر؛ لأنها تُسبب أضراراً كثيرة، ومفاسد عظيمة؛ على النفس والعقل والعرض والمال.

فلولا (أسباب النزول) ما اهتدينا إلى هذه الحكمة النافعة، ومعرفة هذه الحكمة تزيد المؤمن إيماناً، وثقة في دينه وما شرعه الله له من الأحكام النافعة المبنية على مقاصد عظيمة، وترغب الكافر في الإيمان إذا تبين له سمو التشريع الإسلامي ويسره وسهولته، وما اشتمل عليه من المنافع والمصالح والمقاصد الحسنة، وكثير من الناس قد أدهشهم ذلك، فكان سبباً في إيمانهم.

رابعاً: أن أسباب النزول تُعين على معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وفي هذا تعيين المُبهم، لأن القرآن لا يذكر الأسماء، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ المجادلة: ١.

في الصحيحين: أنها نزلت في "خولة بنت ثعلبة" وشكواها لرسول الله. وقد أفادنا إبهام الأسماء ب(عموم اللفظ لا خصوص السبب)، فالقرآن كتاب هداية عامّ لكافة الإنس والجان.

موقف الصحابة والسلف الصالح من القرآن وسرعة استجابتهم له عند نزوله

لقد ضَرَبَ الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - أروع الأمثلة في سرعة الاستجابة والامتثال لآيات القرآن وأوامره ونواهيه؛ ما نزل منها بسببٍ أو بدون سبب.

ففي صحيح مسلم وصحيح ابن حبان: أنها لما نزلت آية تحوّل القبلة من (الأقصى) إلى (البيت الحرام) في قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ البقرة: ١٥٠، وكان الرسول والصحابة يصلّون الفجر؛ فجاء النداء بتحوّل القبلة؛ فمالوا نحو الكعبة وهم ركوعٌ.

وفي الصحيحين والسُنن: أن أمّهات المؤمنين، ونساء الصحابة.. لما نزلت آية (الحجاب) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الأحزاب: ٥٣، وآية (الجلباب) قوله تعالى: ﴿قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ الأحزاب: ٥٩، سارعن - من وقتهن - بارتداء الحجاب (الخمار) على رؤوسهن ووجوههن، وارتداء الجلباب (العباءة) على أجسادهن من فوق ثيابهن، وأرخين السُّتر في بيوتهن..

وفي رواية: فما أصبحن إلا وعليهن أكيسة سودٍ؛ وكأن على رؤوسهن الغريبان. رواه أبو داود وابن جرير في التفسير وصححه الألباني والأرنؤوط.

ولنا فيهم - رضي الله عنهم - أسوة حسنة في سرعة الاستجابة والالتزام والانتهاء.. لكل ما جاء في القرآن؛ تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤، وقوله تعالى:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ الشورى: ٤٧.

الفصل الثاني

ما ورد في أسباب النزول
مُستخلصاً من صحيح الروايات

وهذا المبحث هو الأطول والأهم، بل هو الثمرة لما سبق؛ فبعد بيان قواعد وفقه الأسباب يحسن سرد تلك الأسباب؛ والآيات التي كان لها سبب نزول، فذلك مما يُعين على فهم كتاب الله وتدبر كلامه سبحانه.

وحان الآن الشروع في سرد (أسباب النزول) الواردة الثابتة..

- وعددها في الآيات تقريباً (٤٥٠) آية.

- أما السور التي نزلت بكاملها لسببٍ مُعَيَّن؛ فهي (١٤) سورة:

التوبة، والفتح، الحشر، المنافقون، التحريم، الجن، عبس، الضحى، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس^(١).

وإلى التوضيح:

(١) أما السور التي لم يثبت لها أو لبعض آياتها شيءٌ من أسباب النزول فهي ٣٤ سورة - حسب استقراء هذا البحث - وهي: سورة يوسف، النمل، سبأ، فاطر، غافر، الصافات، ص، غافر، فصلت، ق، الذاريات، الطور، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الشرح، التين، القدر، البينة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون.

آية البسمة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هي - على الراجح - آية من الفاتحة، وبعض آية من سورة النمل، وفاصلٌ بين السور.

وروى أبو داود في سننه بسندٍ صححه الألباني، والواحدي في أسباب النزول^(١) : عن ابن عباسٍ ؛ قال : كان النبي ﷺ لا يَعْرِفُ فَصَلَ السُّورَةِ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ : "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ".

أما الاستعاذة بالله من الشيطان فواجبة قبل البسمة وقبل القراءة.

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّحِيمِ﴾ النحل: ٩٨ ، غير أن الأمر بها لا يُعَدُّ مِنْ أَسْبَابِ النَّزُولِ.

والخلاصة أن الاستعاذة والبسمة نزلتا وشرع التحصن بهما وتحصيل الوقاية من الشيطان والوسوسة، ورجاء الخير والبركة والتوفيق في الصلاة والعبادة وتلاوة القرآن وفي كلِّ الأمور.

(١) تركتُ الإحالة والتحشية وأرقام الصفحات ؛ واكتفيتُ بذكر المراجع في أول الكلام طلباً للتيسير والاختصار، ولسهولة الرجوع إليها في مظانها باسم السورة ورقم الآية، كما أنه تم توثيق وتدقيق الآثار والروايات ليس من كتب الأسباب بل من الصحيحين والسنن والمسند وغيرها.

الحروف المقطّعة في أوائل السُّور

أما الحروف المقطّعة في أوائل السور؛ مثل: ﴿الْم﴾ ﴿الْمَص﴾ ﴿الر﴾
 ﴿كَهَيَعَصَّ﴾ ﴿طس﴾ ﴿حم . عسق﴾ ﴿حم﴾ ﴿يس﴾ ﴿ق﴾ ﴿ن﴾ ..

فلم يذكر المفسرون في سبب نزولها شيءٌ قويٌّ؛ غير أنها مما لا يعلم تأويله إلا الله، وأنها من المتشابه الذي لا يُفسر، وأنها لإظهار إعجاز القرآن وبلاغته وعجز البشر عن الإتيان بمثله.

وهناك روايةٌ أوردها ابن حجر في كتابه "العُجاب في بيان الأسباب" نقلاً عن أبي حيان وابن جرير الطبري بسنده: أنه عندما أعرّض المشركون عن سماع القرآن نزلت هذه الأحرف؛ ليستغربوا ألفاظها وتُجذب أسماعهم فيستمعون القرآن فتقوم عليهم الحجة. اهـ.

والمرجح أنها نزلت لتشمل ذلك كله، فهي للإعجاز، ولجذب أسماع المُعرضين، وغير ذلك، والله أعلم^(١).

(١) انظر: العُجاب في بيان الأسباب ص ٢٢٦ لابن حجر؛ تحقيق عبد الحكيم الأنيس، وتفسير ابن كثير ١٠٩/١ تحقيق د السيد محمد، والتسهيل في علوم التنزيل ص ٩٢ للإمام محمد بن جزّي؛ تحقيق رضا الهمامي.

مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

• قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِءَ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾
آية: ٧٩.

روى البخاري والنسائي وأحمد والسيوطي في أسباب النزول: عن ابن عباس؛ بسند صحيح، أنها نزلت في اليهود وأحبارهم، عندما غيروا صفات الرسول ﷺ وعتوه بغير ما وُصِفَ به عندهم في التوراة، كذباً وحقداً وطمعاً في مالٍ كانوا يأخذونه من سائر اليهود على أن لا يُبينوا صفات الرسول في التوراة؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْشْتَرُوا بِهِءَ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. وكذلك سبب نزول الآيات المشابهة التي في معنى هذه الآية.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِءَ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٤.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ آل عمران: ٧٧.

نزلت كلها في اليهود والمنافقين وضيعاف الإيمان؛ ومن يكتُمون الحق، ويكتُمون العلم الذي عندهم؛ لينالوا عرضاً من الدنيا قليلاً.

والعبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من كتم العلم والحق وابتغى الدنيا فقد خسِر الآخرة.

• قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ البقرة: ٩٨.

روى الترمذي والطبراني وأحمد والواحدي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: أن اليهود جاؤوا إلى الرسول ﷺ يسألونه عن أشياء، منها علامة النبي، وماء الرجل مع المرأة، وما حرّم إسرائيل على نفسه، وأول أشرط الساعة، وأول طعام أهل الجنة، وعن الرعد، حتى قالوا: أخبرنا عن صاحبك الذي ينزل عليك؟ فقال: (هو جبريل). فقالوا: ذاك عدونا، فلو قلت: ميكائيل؛ الذي ينزل بالرحمة والمطر لكان خيراً، فنزلت هاتان الآيتان رداً عليهم^(١).

والعبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإن الملائكة عبادة مخلوقون مأمورون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويجب على المؤمن محبتهم وموالاتهم والإيمان بهم وبما أوكل الله إليهم من أعمال، فذلك ركن من أركان الإيمان لا يتم ولا يتحقق إلا به.

(١) وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص ١٨، وتفسير الطبري ٤٣١/١ الذي نقل الإجماع أن ذلك سبب نزول هذه الآية، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٨٧٢).

• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا

وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٠٤.

روى ابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن بعض المسلمين كانوا يقولون عند الكلام: أرعنا أو راعنا سمعك، فسمعتها اليهود - وكانت كلمة سبّ عندهم - فأخذوا يقولونها للرسول ﷺ وللمسلمين ويضحكون استهزاءً، وفطن لهم سعد بن معاذ - وكان عارفاً بلغة اليهود - فوبّخهم، ونزلت هذه الآية بالنهي عن هذه الكلمة، واستبدالها بـ (انظُرْنَا). وأصل كلمة (راعنا) من المراعاة والرعاية، لكن اليهود والمنافقين اتخذوها بمعنى الرعونة.

أما كلمة (انظُرْنَا) فهي من الإنظار والانتظار والإمهال.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإنه يجب على المؤمن التأدب مع الله ورسوله ودينه وكتابه، وعند الكلام عن الله والرسول والدين يجب انتقاء الألفاظ المؤدبة الراقية، التي تدل على الاحترام والتعظيم، ولا يكون فيها احتمال ولا مدخل للأعداء والمنافقين والمعرضين.

• قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٩.

روى البخاري في صحيحه وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن اليهود والمنافقين كانوا يؤذون المسلمين أشد الأذى، ويهزؤون بهم، ويحاولون ردّهم عن الإسلام، ويقولون هم للمسلمين: لو كنتم على الحق ما هزمتهم في غزوة أحد.

وكان "كعب بن الأشرف" شاعراً يهودياً، يهجو الرسول ﷺ ويحرّض عليه الكفار والمشركين..

فنزلت هذه الآية تفضح نواياهم الخبيثة الحاقدة، وتحث النبي ﷺ والمسلمين بالصبر على أذى هؤلاء، والعضو عنهم حتى يأتي الله بأمره. والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فينبغي على المؤمن أن يعرف طبائع هؤلاء، ويحتاط لدينه، ويعاملهم بالصبر والحلم والعضو.

• قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ١١٥.

روى مسلم في صحيحه والنسائي والترمذي وأحمد وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن النبي ﷺ كان ذاهباً من مكة إلى المدينة، وكان يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به، فنزلت هذه الآية لبيان أنه لا حرج في ذلك للنافلة.

وعند ابن كثير والطبري والسيوطي في أسباب النزول: أن نفرًا من الصحابة كانوا في سرية فأصابتهم ظلمة الليل، ولم يعرفوا جهة القبلة، فكل طائفة صلّت حسب اجتهادها، ولما سألوا النبي ﷺ سكت، فنزلت هذه الآية مرة أخرى، ولا مانع - باتفاق أهل العلم - من جواز تكرار النزول وتعدّد الأسباب للآية الواحدة؛ فالعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة: ١٢٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والنسائي وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، ومعه عمر بن الخطاب؛ فقال يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت الآية: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. موافقة لكلام عمر؛ رضي الله عنه، وكان مُسَدِّدًا مُلْهَمًا ذَكِيًّا عَبْقَرِيًّا فَظِنًا.

وقال - رضي الله عنه - : وافقتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ :

- قلتُ: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت آية المقام.

وقلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجن؛ فإنه يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرَّ

والفاجر، فنزلت آية الحجاب في سورة الأحزاب.

- وقلتُ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ: عَسَى رَبِّي إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ

يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ، فنزلت هذه الآية في سورة التحريم^(١).

(١) رواه البخاري ومسلم، وفي روايةٍ أُخْرَى عند مسلم أن الثالثة: في أسرى بدر؛ لَمَّا أَشَارَ عُمَرُ بِعَدَمِ الْفَدْيَةِ فِيهِمْ.

• آيات تحويل القبلة ؛ قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ

قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٤٢﴾

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى

عَقْبِيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٤٣﴾ قَدْ رَزَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلتُوَلِّينَاكَ قِبْلَةَ

رَضِينَاهَا قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۝

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۝ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٤٤﴾

وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا

بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۝

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُكْتَرِمِينَ ۝١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَةَ أَيَّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ

جَمِيعًا ۝ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۝ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ

قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَتَّعْتِي عَلَيْهِمْ

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ البقرة: ١٤٢ - ١٥٠ .

روى البخاري ومسلم والترمذي والحاكم والسيوطي في أسباب النزول وأئمة التفسير : أن رسول الله ﷺ صلى هو وأصحابه - بعد قدومه المدينة - نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، وكان يجب ﷺ أن تكون قبلته إلى المسجد الحرام - قبلة إبراهيم عليه السلام - ولكي يخالف اليهود، وأخذ يدعو ربه ويُقلِّب نظره في السماء توجهاً إلى الله تعالى أن يُحوّل القبلة إلى البيت، فحقّق الله له ذلك، وأمره بالتحول إلى الكعبة، فتحول هو ومن معه، وكانت العصر أول صلاة نحو الكعبة المشرفة، ونزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾.

أما السفهاء من الناس - اليهود والمنافقون - فقالوا: (مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)، فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

وأما بعض المؤمنين فقالوا: كيف بصلاتنا السابقة، وصلاة من مات منا قبل التحول عن المسجد الأقصى؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

وبهذا التحول في القبلة علّم الله المؤمنين كيف يستقبلون بشخصياتهم ودينهم؛ بعيداً عن التقليد والتبعيات، ودرّبهم على إدارة الأزمات وحل المشكلات، وكشف لهم ما يُكِنّ عدوّهم من الحقد والحسد والمكر والنفسيات.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٥٨﴾

روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وأحمد: عن عائشة - رضي الله عنها - أن هذه الآية نزلت في نفرٍ من الصحابة، تخرجوا من الطواف والسعي؛ لأنهم يرون أن ذلك من أمر الجاهلية قبل الإسلام، ولأنه كان على الصفا صنم يتمسح به المشركون من العرب وغيرهم، فنزلت الآية ترفع الحرج، وتبطل قولهم إن الصفا والمروة من أمر الجاهلية، وتقرر أنهما من شعائر الله، وأن أوثان الجاهلية ستزول؛ وقد زالت، وبقي الطواف بالصفا والمروة ركنٌ من أركان الحج والعمرة؛ كما أن الطواف بالبيت ركنٌ فيهما. وسنّ النبي قراءة هذه الآية عند بداية صعود الصفا وصعود المروة حال السعي بينهما.

فقد روى مسلم في صحيحه وأحمد وأصحاب السنن: أن النبي ﷺ في حجة الوداع اتجه بعد الطواف بالبيت إلى (الصفا) مبتدئاً به؛ وقال: أبدأ بما بدأ الله به، ثم تلا: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، ثم دعا وقال: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ).

وصار ذلك دعاءً مشروعاً مسنوناً مستحباً عند السعي بين الصفا والمروة.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦.

روى ابن كثير وابن جرير في التفسير بسنده والسيوطي في أسباب النزول: أن أعرابياً قال يا رسول الله: أقریبُ ربُّنا فنناجیه، أم بعيدُ فننادیه؟ فنزلت هذه الآية.

والعبرة بعموم الآية لا بخصوص سببها، فإن الدعاء عبادة عظيمة وفضيلة جسيمة، والله تعالى قريب مجيب، بل وعد بالإجابة من دعا صادقاً متضرعاً مخلصاً له سبحانه في عبادة الدعاء؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠.

• قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٨٧﴾

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد وأصحاب السنن وابن كثير في التفسير والواحدي في أسباب النزول: أن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - في رمضان إذا نام أحدهم قبل أن يفطر فإنه لا يأتي أهله في الليل، ويتحرجون من ذلك، وكانوا لا يقربون النساء في رمضان كله ليلاً ونهاراً؛ جهلاً بالحكم قبل أن يُشرع، وكان أحدهم إذا أتى أهله ليلاً خوّن نفسه، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ نزلت الآية: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾... إلخ.

ثم إن نفرًا من الصحابة كانوا لا يأكلون بعد النوم شيئاً طيلة الليل حتى الليلة بعدها، وتعبوا من ذلك، فنزل باقي الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾.

ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وأكلوا في الليل، حتى إن بعضهم ربط في رجليه خيطين أبيض وأسود، ويأكل ويشرب حتى يتبين له، فأنزل الله تعالى

تكملة الآية وهو قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، فَعَلِمُوا أَنَّهُ يَعْنِي بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ (الليل والنهار) وطلوع الفجر.

وكان أحدهم بناءً على هذه الرخصة في الآية إذا اعتكف ثم خرج من معتكفه جامع زوجته، فنزل في الآية نهي المعتكف من الجماع؛ لن الجماع من مبطلات الاعتكاف؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

والعبرة في هذه الآيات وهذه الأحكام بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالْمُؤْمِنُونَ - في كل زمان ومكان - مُخَاطَبُونَ بهذه الأحكام الفقهية المهمة؛ حول الصيام والفطر والاعتكاف ..

● قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ

اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ١٨٩.

روى البخاري ومسلم والحاكم وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أنه كان (الأنصار وكثير من العرب) إذا رجعوا إلى بيوتهم من الحج لم يدخلوها من أبوابها، بل يدخلون من ظهورها؛ ويتخذون فتحات وسلالم يدخلون منها، وكانوا يعتقدون أن ذلك برٌّ وقربة، ويعتقدون أن دخول الأبواب يؤثر على الإحرام وكشف الرأس..، فنزلت هذه الآية ترفع الحرج، وتبطل هذه العادة، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

وقد أتى ذلك في آية (السؤال عن الأهلة) من باب استكمال الجواب وزيادة الفائدة والبيان للسائل ولكل من يسمع أو يعقل.

• قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥.

روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والسيوطي والوادعي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت عندما عزم بعض الصحابة - من الأنصار - أن يتركوا الصدقات، ويقطعوا الإنفاق في سبيل الله، وينشغلوا بتنمية مالههم من أموال؛ متعللين بأن الدين قد ظهر وانتصر وليس بحاجة لأموالهم..

وبعضهم كانوا يتصدقون ويُعطون فأصابتهم مصيبةٌ أو سنةٌ وقحط؛ فأمسكوا عن الإنفاق..

فعاتبهم الله على ذلك وبين أنه هو الهلاك؛ لأن قطع القربات والطاعات خسارة وهلكات..

ويؤكد ذلك رواية الصحيحين: أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا في غزوة في الشام بأرض الروم، فقابلوا صفًا عظيمًا من الروم، فخرج رجلٌ من المسلمين حتى دخل في صفِّ الروم، فصاح بعض المسلمون، وقالوا: ألقى بنفسه إلى التهلكة..؛ أخذاً من الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

فقام أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - وقال: يا أيها الناس، إنكم لتؤولون الآية على غير التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا نحن الأنصار، حيث قال بعضنا لبعض سراً: إن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أمسكنا أموالنا وأقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فنزلت هذه الآية تردُّ

علينا، وتُبيِّن أن (التهلكة) هي في الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو والتقاعس عن الإنفاق في سبيل الله.

قال الراوي: فما زال (أبو أيوب) غازياً في سبيل الله حتى طعن في السن وتقدم في العمر، ومنعه المرض والهزم من مواصلة الجهاد؛ فمات مريضاً؛ ودُفِن في القسطنطينية، رضي الله عنه وأرضاه.

وروايةٌ أخرى - صحيحة - في سبب نزول هذه الآية؛ صححها الطبراني

والسيوطي : عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال : كان الرَّجُلُ يذنب فيَقنط من رحمة الله ويقول : (لا يغفر الله لي) ، فأنزل الله قوله : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ؛ فكانت (التهلكة) هنا : في "القنوط من رحمة الله".

وصححها الحافظ في الفتح ، ثم رجع رواية النفقة^(١).

وترجيحه لها لكونها أقرب لصدر الآية، لكن لا مانع عند أهل العلم من تعدد الأسباب، ومن نزول الآية لهذه الأسباب: ترك الإنفاق، والقنوط من رحمة الله؛ فكلاهما من المهالك الساحقة الماحقة.

وعلى كلٍّ: فالعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالمؤمن مأمور بالحذر من المهالك الحسية والمعنوية، وأن يتنبه لأشد وأخطر المهالك.. وهي المعاصي والذنوب والاستنكاف عن الطاعات والصلوات والقربات..؛ فذلك هو العطب والويل والهلاك في الدنيا والآخرة، نسأل الله الثبات والعفو والعافية.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٥١/٩.

وللعاقل أن ينظر: كيف فهم السلف الصالح للقرآن، وكيف يربطون

الآية بسببها، ثم ما التهلكة في نظرهم؟ وما التهلكة في نظر البعض منا؟! إن التهلكة الحقيقية المذكورة في القرآن هي في معصية الله تعالى، والتقصير في طاعته.. وهكذا يقاس عليها كل معصية تُفعل أو طاعة تُترك.

● قوله تعالى: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ

أَوْ نُسْكِ ۗ﴾ البقرة: بعض آية ١٩٦.

روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن كثير في التفسير: عن كعب بن عُجرة - رضي الله عنه -: أنه رآه رسول الله ﷺ وهو مُحْرِمٌ في عُمرة الحديبية؛ ورأسه يتهافت قملاً، فقال: أيؤذيك هوأمك؟ - أي هوأم شعر رأسك؟ - قال: نعم يا رسول الله. فأنزل الله قوله: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾، فقال ﷺ: (احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام؛ أو أطعم ستة مساكين؛ أو انسك بشاة).

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنها من سماحة الشريعة وعدلها ويسرها وتيسيرها على الناس، وحكمها عامٌ للأمة كلها، فمن كان مُحْرِمًا بِحَجٍّ أو عُمرة فمَرِضٌ أو انكسر ظفره أو آذاه شعر رأسه جاز له التقليل أو الحلق وإزالة الأذى؛ ويكفر عن ذلك بـ(كفارة محظورات الإحرام)؛ وهي بالخيار - وليس بالترتيب -: صيام ٣ أيام، أو إطعام ٦ مساكين، أو ذبح شاة لفقراء الحرم.

• قوله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فِيهَا خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة: ١٩٧.

روى البخاري في صحيحه والنسائي وأبو داود وابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: كان أهل اليمن يَحْجُّونَ ولا يَتَزَوَّدُونَ، ويقولون: نحن متوكلون، فإذا قَدِمُوا مكة سألوا الناس؛ لشدة الحاجة والقلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية تأمر بالتزود بالمتاع والمال؛ للتقوى به على سَفَرِ الحِجِّ وأداء العباداة. وهُنَا فائدة:

أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها، وهي عامة لكل مؤمن، ان يتزود لدينياه وأخراه.

فزاد الدنيا في هذه الآية: المال والمتاع ليستغني صاحبه عن مسألة الناس. وزاد الآخرة الذي أمرت به: هو تقوى الله والقيام بأمره والبعد عن معصيته، ومن التقوى: الاستغناء عن الناس وعن التذلل لهم بسؤال المال؛ ووجوب التوكل على الله لا على الناس خاصة في أداء الحِجِّ والعبادات المالية البدنية ..

ولهذا ذكر (زاد الآخرة التقوى) لأنه الأهم والباقي والمنجي، وليتوسع في البيان والإرشاد؛ كقوله تعالى - لَمَّا وَجَّهَ لِلْبَاسِ الْبَدَنَ - ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف: ٢٦، فنبه أيضا إلى (لباس التقوى) وهو لباس القلب من الإيمان والعلم والتوحيد ومراقبة الله تعالى^(١).

(١) انظر تفسير ابن كثير وتفسير الجزائري والتفسير الموضوعي لابن طهماز؛ عند هذه الآية الكريمة.

• قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ البقرة: ١٩٨.

روى البخاري في صحيحه وأبو داود وأحمد والطبري في تفسيره: عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، وكان الناس يبيعون ويشترون في الحج، فلما جاء الإسلام تخرجوا وتأثموا من ذلك، وسألوا الرسول ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية الكريمة تجيب وترفع الحرج، وترخص في التجارة في الحج.

وحكم الآية باقٍ؛ فالعبرة بعمومها لا بخصوص سببها، فلا مانع من الكسب والبيع في الحج؛ بشرط أن لا تكون هي الهدف ولا تلهي عن ذكر الله.

• قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَعْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٩٩. أي أفيضوا من عرفات.

روى مسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير في التفسير والواحد في أسباب النزول: أن قريشاً كانوا يقفون في (مزدلفة) إذا حجوا، ثم يفيضون منها إلى منى؛ ويتحمسون لذلك حتى سُموا "الحُمس"، أما سائر العرب فكانوا يقفون في (عرفات) ثم يفيضون منها، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه محمداً ﷺ بأن يقف الجميع في عرفة ليفيضوا منها إلى جمع ثم إلى منى.

فأبطل الله بذلك عادة قريش ونزلت هذه الآية لذلك ولتوحيد نسك الحجاج، وأن "الحج عرفة" للأمة كلها.

• قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
 ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَإِنَّا فِي الدُّنْيَا
 وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَإِنَّا فِي الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا
 وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿البقرة: ٢٠٠-٢٠٢﴾

روى ابن جرير وابن كثير في التفسير والواحدى والسيوطي في أسباب
 النزول: عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن أهل الجاهلية كانوا في ختام الحج
 يَقِفُونَ عند الجمرات ؛ ثم يذكرون آباءهم ويُفَاخِرُونَ بِأَنْسَابِهِمْ وَمُنْجَزَاتِهِمْ .. ،
 وبعضهم يدعو بالغيث والمطر وأمور الدنيا ، ولا يهتمون بأُمُورِ الآخرة ..
 فنزل الله هذه الآيات تدعو المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله أشد من
 ذكر الجاهليين لآبائهم .. ، وتُبَيِّنُ أقسامَ الناس :

فَمِنْهُمْ مَن لَا يَطْلُبُ إِلَّا الدُّنْيَا ، فهذا لَا حَظَّ وَلَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ .
 وَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ الذَّاكِرُ الَّذِي يَرْجُو اللَّهَ وَيَدْعُوهُ وَيَسْأَلُ اللَّهَ حَسَنَةَ الدُّنْيَا
 وَحَسَنَةَ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَنْسَى آخِرَتَهُ ؛ فهو من الفائزين المفلحين .

لذلك روى البخاري ومسلم وابن حبان وأبو داود: أن النبي ﷺ كان

أكثر دعائه: ﴿ رَبَّنَا ءَإِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ
 النَّارِ ﴾ ، وأنه ﷺ كان يدعو بها بين الركن اليماني والحجر الأسود أثناء
 الطواف ؛ لأنها من جوامع الدعاء العظيم النافع .

وحسنة الدنيا: هي التوحيد والإيمان والعمل الصالح والولد البار والمال الحلال المبارك.

وحسنة الآخرة: هي رضا الله والجنة والنجاة من النار. نسأل الله من فضله.

• قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ البقرة: ٢٠٤-٢٠٧.

نزلت هذه الآيات تُبين أقسام الناس وأصنافاً منهم وأنهم لا يستونون.

فقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ... ﴾ أي صنف المنافقين المفسدين.

وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ... ﴾ أي صنف المؤمنين الصادقين.

أما الأولى: فروى السيوطي والواحدي في أسباب النزول: أنها نزلت

في منافقٍ جاء إلى النبي ﷺ وأظهر له الإسلام، فلما خرج من عنده خالف فعله قوله، واعتدى على أموالٍ فأتلفها وأفسد في الأرض، ولكنها روايات ضعيفة.

وأصح ما في ذلك ما رواه ابن جرير وابن كثير في التفسير وصححا

إسناده: بأن هذه الآية تصف قوماً يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم كالعسل، وقلوبهم كالمُرِّ، يلبسون للناس جلود الضأن، وقلوبهم قلوب

الذئاب، على الله يَجْتَرِئُونَ، وبه يَغْتَرُونَ، فَلْيَبْعَثَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ^(١).

وعلى كُلِّ: فالعبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها، فإن هذه الآية من عظام مواضع القرآن، وفيها التحذير من مظاهر النفاق، وأن أقبح الناس مَنْ كلامه الطيبين وأفعاله أفعال الجاهلين المفسدين المعتدين ..، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)^(٢).

وكما قيل:

لا خَيْرَ في ودِّ امرئٍ مُتَمَلِّقٍ حُلُوُّ اللسانِ، وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يعطيك من طَرْفِ اللسانِ حلاوةً وَيَرُوغُ مِنْكَ كما يَرُوغُ الثعلبُ



أما الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فروى الحاكم وصححه على شرط مسلم والوادعي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير بسند صحيح: أنها نزلت في (أبي يحيى صُهيب الرومي) رضي الله عنه، عندما خرج من مكة مهاجراً نحو الرسول ﷺ في المدينة، فلحقت به قريش تريد صده وقتله، فنزل من راحلته وأخرج

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٣٦/١، وتفسير الإمام الطبري ٢٣١/٤ عند هذه الآية، لكنه من قبيل

التفسير وليس من أسباب للنزول.

(٢) قوله: (الرجال..) للتغليب فقط؛ فهو لفظ عموم يشمل الرجال والنساء جميعاً؛ الكلُّ

مُخاطَبون بذلك، وقوله: (الألد الخصم): أي شديد الخصومة والجدال والفجور والزور.

سِهَامِهِ وَسَلَّ سَيْفَهُ وَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّنِي أَرْمَاكُمْ، فَلَا تَصَلُّونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَ سِهَامِي عَلَيْكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَالِي بِمَكَّةَ وَخَلَيْتُمْ سَبِيلِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ كُلَّهُ فِدَاءً لِدِينِهِ، فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: (رَبِّحِ الْبَيْعَ أبا يَحْيَى، رَبِّحِ الْبَيْعَ أبا يَحْيَى) ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ.

وَالْعِبْرَةُ بَعْمُومٍ لَفْظُهَا لَا بِخُصُوصٍ سَبَبِهَا.

فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ يَبِيعُ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، يَنَاضِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُصْلِحُ وَيُصْلِحُ وَيَصْبِرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ.

تَنْبِيهِ:

وَلنَنْظُرْ إِلَى الْآيَاتِ السَّابِقَةِ كَثْرَ فِيهَا ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ وَمِنْ مُبْهَمَاتِ الْقُرْآنِ، وَهِيَ عُمُومٌ أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ؛ لِتَدَلُّ عَلَى عُمُومِيَةِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ الصَّالِحُ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَنَّهُ الْكِتَابُ الْعَامُّ الْخَاتِمُ لِكُلِّ الثَّقَلَيْنِ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بَعْمُومٍ لَفْظُهُ لَا بِخُصُوصٍ نَزُولِهِ، وَأَنَّ عِظَاتِهِ وَأَيَاتِهِ لَا تَخْتَصُّ بِشَخْصٍ وَلَا بِطَائِفَةٍ وَلَا عَصْرٍ وَلَا بِمَصْرٍ، وَلِيَنْهَجَ السِّرَّ وَالْحِكْمَةَ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ وَيُرَبِّينَا عَلَى ذَلِكَ.

• قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقِنُّونَكُمْ حَتَّى يُرَدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: ٢١٧.

روى ابن جرير في التفسير والطبراني والبيهقي في سننه والسيوطي في أسباب النزول: أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وأمر عليهم (عبدالله بن جحش) رضي الله عنه؛ فذهبوا حتى نزلوا وإِ بِمَكَّةَ، ولقوا نفرًا من كفار قريش، فقاتلوهم حتى قتلوا زعيم عصابة الكفار (عمرو بن الحضرمي)^(١) وغنموا ما معه، وكان ذلك في أواخر رجب - من الأشهر الحرم - فقالت قريش: أيجلّ القتال يا محمد في الشهر الحرام؟! فنزلت هذه الآية، وفيها: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إن الكفار قد فعلوا ما هو أسوأ وأكبر عند الله من قتلكم إياهم في الشهر الحرام مع كفرهم بالله؛ حيث قاتلوا المسلمين في حرم الله، وصدّوهم عن العمرة وعن سبيل الله وفي الأشهر الحرم.

ورَفَعَ الْحَرَجَ مِنْ قِتَالٍ وَمُدَافَعَةِ الْكُفَّارِ حَتَّى فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ^(٢).

(١) وكان أول قتيل من الكفار - في الإسلام - بين المسلمين والمشركين.

(٢) وروى هذه القصة أهل السير، وهكذا كل آية فيها ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ففيها سؤال وجواب، والسؤال هو سبب نزولها غالبًا.

• قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٠.

روى أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أنها لما نزلت الآيات التي تُحرم أكل مال اليتيم، وتوجب حفظ أموالهم وحقوقهم.. سارع الصحابة للامتثال، وانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه، وماله عن ماله، ويحبس له طعامه حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك للنبي ﷺ يسألونه؛ فنزلت هذه الآية ترفع الحرج، وتبيح خلط مال اليتيم مع غيره بشرط الإصلاح والإحصاء والضمان والحذر من إتلافه ومن الظلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ هو تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لمن يُفسد أموال اليتامى أو لا يُصلحها أو يبخسهم شيئاً منها.

• قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.

روى مسلم والترمذي والنسائي وأحمد وابن كثير في التفسير: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة عندهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها ويتعدوا عنها، فسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليهم ثم قال ﷺ: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)، أي إنه يباح لكم المجالسة والاضطجاع والمؤاكلة وكل شيء إلا الوطء حال الحيض؛ حتى تطهر وينقطع دم الحيض وتغتسل منه غسل الجنابة؛ فحينها يباح الجماع في القبل بعد تطهرهن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾: أي بانقطاع دم الحيض.

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: أي اغتسلن بالماء بعد انقطاع الدم.

والحائض لا تصلي ولا تصوم ولا تطوف بالبيت ولا تمس المصحف، وتقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، ولها أن تقرأ القرآن من حفظها، ولها أن تحمل المصحف بجائل وتقرأ منه.

• قوله تعالى: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا

اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٣.

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: أن اليهود كانت تقول في الذي يأتي امرأته (من دبرها) في قبلها: إن الولد يكون أحول، فنزلت هذه الآية تكذبهم، وتُبيح إتيان الزوجة بأي كيفية ما دام (في القبل).

ورواية أخرى عند مسلم والترمذي وأحمد: أن المهاجرين كانوا يأتون نساءهم - في القبل - من جهة الورا، فلما هاجروا وتزوجوا من الأنصار استنكروا عليهم، فسألوه ﷺ فقال: (لا؛ إلا في صمّام واحد). أي القبل.

وفي رواية أخرى: (أقبل وأدبر، واتقِ الدبر والحِيضة) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وصححه الألباني.

وفي هذه الآية الكريمة: أن للزوج إتيان زوجته في القبل من حيث شاء وبأيّ وضعٍ شاء، ويجتنب الدبر، ويجتنب كذلك الوطء في القبل حال الحيض؛ فذلك كله من المحرمات والمنكرات المستقبحة، فجاء التيسير على الناس في جماع نساءهم على أي وجه كان ما دام في موضع الحرث، وإبطال ما ألقاه اليهود في أذهان الناس من الوهم الباطل^(١).

(١) ولا مانع من تكرار النزول لتعدد الأسباب، وأن تكون الآية نزلت ردّاً على اليهود وإجابةً

لسؤال الأنصار، أما رواية أن مقصود الآية هو النهي عن الإتيان في الدبر - كما في رواية ابن عمر - فإن أهل العلم عدّوا ذلك وهمّاً، وأن القصد القبل من جهة الدبر، وأنه يجب حمل رواية ابن عمر على "رواية جابر" السابقة الذكر.

• قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ

قَانِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨.

روى البخاري وأحمد وأصحاب السنن والوادعي في الصحيح المسند: عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - أنه اشتدَّ أمر بعض الصلوات على بعض الصحابة؛ يكونون وقت الظهيرة في قائلتهم أو تجارتهم؛ فلا يصلي مع رسول الله إلا الصفَّ والصفَّان؛ فنزلت هذه الآية تعظيماً لشأن الصلاة، و(الوسطى) هي صلاة العصر - على الراجح - كما في حديث الصحيحين. ثم إن الصحابة كانوا يتكلمون في الصلاة ويكلّم أحدهم أخاه في حاجته وهو يصلي، وخاصة من لم يبلغه التحريم الوارد في السنة قبل الهجرة، فنزلت هذه الآية؛ وفيها قوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، قال الراوي: فأمرنا بعدم الكلام في الصلاة مما ليس من الصلاة.

• قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦.

روى ابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول وأبو داود والنسائي وابن حبان بأسانيد صحيحة، عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاتاً^(١) لا تلد، فتجعل على نفسها نذراً إن عاش لها ولد أن تُهوّده، فلما أُجِّلِي يهود بني النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نترك أبناءنا على الديانة اليهودية؛ بل نُكْرِههم على الإسلام حتى لا يُجْلُوا مع اليهود، فنزلت هذه الآية تمنع الإكراه على الدين. والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، وحكمها باقٍ إلى يوم القيامة؛ وهو تحريم إكراه الناس وإجبارهم على الإسلام، ولا يجوز إكراه أحد على الإسلام من غير قناعة منه، وما علينا إلا البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

تنبيه:

أما تهويد الأطفال أو تنشئة على غير الإسلام أو إفساد عقائدهم فأمرٌ مُحَرَّمٌ ومُنْكَرٌ، لا يُقَرُّه الإسلام، ويَبْوءُ فاعلهُ بِإِثْمِهِ.

(١) المقلات: هي المرأة لا يعيش لها ولد.

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۗ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ البقرة: ٢٦٧.

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أنها نزلت في أناسٍ من الأنصار، كان لهم نخل وثمار، فكانوا يُخْرِجون (الصدقة والزكاة) من الحشف والرديء، ويعمدون إلى سيء الثمرة فيجعلونه زكاةً وصدقةً؛ وبعضهم يشتري طعاماً رخيصاً ويتصدق به أو يجعله زكاة الفطر، فنزلت هذه الآية تنهى عن تعمد الرديء والسيء في الزكاة والصدقات، وأن لا يُنفق المسلم إلا من أطيب ما عنده. والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فهي عامةٌ للأمة إلى يوم القيامة أن يختار المؤمن عند إخراج زكاته من الطيب ويجتنب السيء.

وقد بينت السنة النبوية ما هو الطيب في الزكاة؟ وهو الوسط؛ أي من وسط خيار المال؛ كما قال تعالى: ﴿مِن أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ المائدة: ٨٩.

وقال النبي ﷺ: (لو أن أحدكم أهدي إليه ما أعطى لم يأخذه إلا على

إغماضٍ أو حياءٍ) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني.

• قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٢.

روى النسائي والطبراني وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول والحاكم وصححه ووافقه الذهبي: عن ابن عباس قال: كان بعض المسلمين لا يرضخون من الزكاة والصدقة - أي لا يقسمون ولا يُعطون - لأنسابهم وقراباتهم المشركين، وكانوا لا يتصدقون إلا على أهل الإسلام - فنزلت هذه الآية، تُرَخِّصُ لَهُمْ بِالتَّصَدَّقِ عَلَى كُلِّ سَائِلٍ وَمُحْتَاجٍ مِنْ كُلِّ دِينٍ.

والعبرة من هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإنها عامّة لجميع المؤمنين؛ تُجِيزُ وَتُرَخِّصُ لَنَا أَنْ نَعْطِيَ زَكَاتَنَا وَصَدَقَاتِنَا لِكُلِّ مُحْتَاجٍ وَسَائِلٍ وَمَحْرُومٍ؛ وَلَوْ كَافِرًا، بَلْ قَدْ تَكُونُ لِلْكَافِرِ أَنْفَعُ؛ عِنْدَمَا يَكُونُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ فِيهِدِيهِ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ.

فالكافر والفاسق هدايته بيد الله لا بأيدينا، والإنفاق لا يكون إلا لوجه الله وابتغاء مرضاته، ليس لفلان وفلان..، وَمَنْ أَنْفَقَ شَيْئًا لِلَّهِ وَفَاهُ اللَّهُ لَهُ كَامِلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

• قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾

روى مسلم في صحيحه وأحمد والبيهقي والحاكم والوادعي في الصحيح المسند وابن كثير في التفسير: عن أبي هريرة وابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٣ اشتد ذلك على الصحابة وخافوا من الحساب، فأتوا النبي ﷺ وجثوا على رُكبتهم عنده، وقالوا: أنزلت هذه الآية يا رسول الله ولا تُطيقها. فقال ﷺ: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم:

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غفرانك ربنا وإليك المصير).

فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله على إثرها قوله:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر الآية.

ولما فعلوا ذلك نسخ الله - تعالى - تلك الآية التي خوفتهم، نسخها

بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال تعالى: نعم قد فعلت.

قال: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾

قال: نَعَمْ قَدْ فَعَلْتُ.

وهكذا إلى آخر الآية خاتمة البقرة.

وكان فيها على الأمة - بفضل الله - عفوٌ وتخفيفٌ، وقال النبي ﷺ: (إِنْ

اللَّهُ تَجَاوَزَ عَن أُمَّتِي مَا حَدَّثُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ مَا لَمْ يَعْمَلُوا أَوْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ) رواه

مسلم.

انتهت سورة البقرة، ويليهما سورة آل عمران

من سورة آل عمران

فواتح سورة آل عمران إلى نحو ثمانين آية منها:

روى ابن كثير في التفسير والبيهقي في دلائل النبوة وابن إسحق في السيرة والسيوطي في أسباب النزول: أنها نزلت في نصارى نجران، عندما وفدوا إلى رسول الله ﷺ في المدينة يجادلونه في النبوة وفي عيسى عليه السلام، فنزلت رداً عليهم، ودحواً لشبهاتهم، وأن عيسى ليس إله بل هو عبدٌ مخلوق، وأن

﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٥٩



• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٧٧.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن جرير في التفسير: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن فلاناً يخاصمني على بئرٍ لي، فقال رسول الله ﷺ: (شاهدك أو يمينه) فقال الرجل: ما لي شهود، وخصمي يحلف ولا يبالي، فقال النبي ﷺ: (من حلف يميناً ليقطع بها ما لا لقي الله وهو عليه غضبان). وأنزل الله حينها تصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

ثُمَّ قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

والعبرة في هذه القصة وهذه الآية هي بعموم لفظها، لا بخصوص سببها، فكلّ مَنْ حَلَفَ كاذباً أو أكل حراماً، أو ظلم الناس، لقي الله وهو عليه غضبان، نسأل الله العفو والعافية.

وفي صحيح البخاري: أن رجلاً حَلَفَ في السوق أنه أُعْطِيَ في سلعته مبلغ كذا وكذا؛ فنزلت هذه الآية مرةً أخرى، ولا مانع من تعدد أسباب النزول.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ

تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ آل عمران: ٩٠.

روى ابن حبان والحاكم وابن جرير وابن كثير في التفسير بسند صحيح:

أنها نزلت في رجلٍ أسلم ثم ارتدّ وكفر، ثم ندم، وأرسل إلى رسول الله ﷺ يسأله: هل له توبة؟ فنزلت هذه الآيات، فعاد وأسلم وحسن إسلامه.

وروى ابن جرير وغيره من المفسرين أيضاً: أنها نزلت كذلك في كفار

أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بعيسى

والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى والتوراة، ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد

والقرآن، ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا أصرّوا على المعصية وماتوا من غير توبة.

أقول: وفي ذلك عبرة لنا أن نتمسك بهذا الدين الإسلامي العظيم، وأن نسأل الله الثبات عليه حتى الممات، وأن نبادر بالتوبة قبل فوات أوانها، وأن الذين لا تقبل توبتهم هم الذين يصيرون على المعاصي حتى يموتون عليها من غير توبة، نسأل الله العافية والسلامة.

أما مَنْ وَفَّقَ لِلتُّوبَةِ فِي صِحَّتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ فَقَدْ اسْتِثْنَاهُ اللَّهُ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران: ٨٩.

● قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ

حَبَالًا وَدُومًا مَّا عَيْنُكُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ

الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آل عمران: ١١٨.

روى ابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في بعض المسلمين كانوا يواصلون يهوداً في المدينة كان بينهم جوار وحلف قبل الإسلام، فنزلت هذه الآية تنهى عن اتخاذهم بطانةً وجلساء؛ خشية الفتنة بهم والضلال بضلالهم وأفكارهم.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ..﴾ آل عمران: ١٢٢ .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في (غزوة أحد) لما ندب رسول الله ﷺ المسلمين لمقاتلة الكفار الذين غزوا المدينة، وكان من المسلمين طائفتان هما (بنو سلمة) و(بنو حارثة) من الأنصار، لما رأوا انسلاخ المنافقين تأثروا بهم، وضعفوا، وكادوا أن يتقهقروا، ولكن الله أعانهم، وبقوا مع رسول الله ﷺ في ملاقاته العدو، فأنزل الله فيهم: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ آل عمران: ١٢٢ .

• قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

ظَالِمُونَ﴾ آل عمران: ١٢٨ . المخاطب هنا هو النبي ﷺ، والخطاب عام له ولأمته.

ففي الصحيحين ومسند أحمد وابن جرير في التفسير: أن النبي ﷺ كان إذا رفع من الركوع في صلاة الفجر دعا على بعض الكافرين والمنافقين والمعاندين للإسلام، ويقول: (اللهم العن فلاناً وفلاناً، اللهم العن رعلاً وذكوان وعُصية)، فأنزل الله هذه الآية.

وفي صحيح مسلم أيضاً:

أن رسول الله ﷺ لما شجَّ رأسه، وكسرت رباعيته في "غزوة أحد" قال: (كيف يُفْلِح قوم شجَّوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟) فنزلت هذه الآية، ولا مانع من تكرار النزول.

• قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ مَنَّاتٍ يَأْتِيَهَا غَلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ

تُؤْتَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٦١.

روى الطبراني والخطيب البغدادي والإمام السيوطي في أسباب النزول وصححو إسناده: أن المنافقين تكلموا في رسول الله ﷺ واتهموه بأشياء، فأُنزل الله هذه الآية ردًّا الله عليهم، ودفاعًا عن رسوله ﷺ.

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقْبَلُوا الْحَقَّ حَقًّا وَلَدَّ الَّذِينَ

أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ

أَرْضِهِمْ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران: ١٧٤.

روى النسائي والطبراني والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير بسندٍ صحيح: أنها نزلت في المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة (حَمراء الأسد)، وهم مُتَخَنُونَ بالجراح، ومُتَّعِبُونَ بعد غزوة أُحُدٍ مباشرة، وذلك أن (مشركي قريش) تلاوموا أنهم لم يقتلوا رسول الله ولم يدخلوا المدينة ويُخربونها، فجمعهم أبو سفيان لإعادة الكربة والعدوان على المسلمين والمدينة، فانتدب رسول الله ﷺ صحابته لملاقاتهم وصددهم، فاستجابوا لرسول الله ﷺ مُسرِعِينَ؛ على ما بهم من القرح والجراح والإرهاق بعد غزوة أُحُدٍ، وفي مقدمتهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد، وابن عوف، وابن مسعود، وابن اليمان، وأبو عبيدة،

وطائفة من الصحابة يزيدون على السبعين؛ خرجوا مسرعين متحمسين في صدّ المشركين، والقبض على أبي سفيان؛ وهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فرُعب أبو سفيان ومن معه من الكفار وهربوا إلى حيث جاؤوا من مكة، ومدح الله هؤلاء الصحابة الذين استجابوا لله والرسول؛ وقال فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

• قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران: ١٨٦.

روى أبو داود والمنذري والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير: أن النبي ﷺ ومن معه من المسلمين في المدينة كانوا يتعرضون لأذى الكفار والمنافقين واليهود، ويسمعون منهم كلاماً سيئاً، وألفاظاً نابية، وأشعاراً خادشة.

من ذلك: أن يهودياً قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ آل عمران: ١٨١، فسمعه أبو بكر فغضب منه غضباً شديداً وتأذى منه.

ومن ذلك: أن اليهودي (كعب بن الأشرف) تمادى في أذية رسول الله وأذية المسلمين، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، وأمر الله المسلمين بالصبر والتقوى والعفو فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران: ١٨٦. والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها، فكلنا مخاطبون بالصبر والعفو.

• قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ

يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ١٨٨.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن كثير في التفسير: أنها نزلت في قوم يُحِبُّونَ أَنْ يُمَدِّحُوا وَيُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا.

ومِنهم يهودٌ؛ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ إِذَا سُئِلُوا عَنْهُ، وَيَتَبَجَّحُونَ بِذَلِكَ.

ومِنهم منافقون؛ كانوا يَتَخَلَّفُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَزَوَاتِ،

ويَفْرَحُونَ بِتَخَلُّفِهِمْ، إِذَا عَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَوْهُ يَعْتَذِرُونَ، وَيَفْرَحُونَ

فَرَحَ إِعْجَابٍ بِمَا يَصْنَعُونَ..، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِيهِمْ، وَفِي كُلِّ مَنْ يَرِيدُ الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، وَيُعْجَبُ بِنِفَاقِهِ وَمَعَاصِيهِ.

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعُومَ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا.

فَكُلُّنَا مُطَالِبُونَ - شَرْعًا - بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْإِتِّبَاعِ لِلرَّسُولِ، وَالْبُعْدِ عَنِ

الرِّيَاءِ وَالشُّهُرَةِ وَالْمَدْحِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ)

رواه مسلم.

وَالْغَنِيُّ: أَيُّ الْغَنِيِّ النَّفْسُ بِالْقِنَاعَةِ وَالرِّضَا وَالصَّبْرِ.

وَالْخَفِيُّ: الَّذِي يَتَخَفَى بِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ عَنِ النَّاسِ، وَيَزْهَدُ فِي مَدْحِهِمْ

وثنائهم، وَيَكْرَهُ الظُّهُورَ وَالْإِشْتِهَارَ وَالْمَفَاخِرَةَ..

• قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران: ١٩٩.

روى النسائي والطبراني والسيوطي في الأسباب وابن كثير في التفسير بطرقٍ تتعاضد، أن هذه الآية نزلت في (النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه) الذي أسلم وآوى المهاجرين ونصر المسلمين، لما مات أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه - صلاة الغائب - فقال البعض: كيف نصلي على عبدٍ حبشي، فنزلت هذه الآية تُثني على النجاشي، وترفع شأنه؛ لما كان عليه من إسلامٍ وإيمانٍ وخشوعٍ وعَمَلٍ صالحٍ.

قلتُ: والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلُّ مَنْ آمَنَ واتقى وصلح وأصلح وعَمَلٌ صالحاً خالصاً صواباً فهو يدخل في هذه الآية، وينال رفعة الدارين، إذا مات مؤمناً صابراً ثابتاً تقياً نقياً، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

انتهت سورة آل عمران، ويلها سورة النساء.



من سورة النساء

• قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾
النساء: ٣.

ويلحق بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعُونَ أَنْ تَكَرِّهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ النساء: ١٢٧.

في الصحيحين والسُّنن وأَسْبَابِ النُّزُولِ للواحدِي: أن هذه الآيات نزلت في أناسٍ كان عندهم بنات يَتِمَّات يَتَرَّبِينَ في حُجُورهم، ويقومون على أموالهن، فإذا كَبُرْنَ هُوَلَاءِ البنات اليتيمات عَضَلُوهُنَّ وَمَنَعُوهُنَّ مِنَ الزَّوْجِ حتى يستولوا على أموالهن ولا يَفْقِدُونَ المَالَ..، وإذا كُنَّ جَمِيلَات تَزَوَّجُوهُنَّ لجمالهن ومالهن، وإذا كُنَّ غير ذلك لَمْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ ولكن يُمَسْكُوهُنَّ وَيَعَضَلُوهُنَّ - يَمْنَعُونَهُنَّ مِنَ الزَّوْجِ - رَغْبَةً فِي السُّطُو عَلَى مَالهن، فنهاهم الشرع عن ذلك، ودَعَتَهُم هذه الآية الكريمة إلى التَرَفُّعِ عَنِ الظُّلْمِ، ووجوب الإحسان إلى اليتامى واليتيمات، وأن مَنْ خَافَ ظُلْمَهُنَّ فَلْيَتَرَكَهُنَّ يَتَزَوَّجْنَ وليتزوج هو ما شاء مثنى أو ثلاث أو رباع.

ومن ذلك أن رجلاً كان في حجره يتيمة يربّيها فعرضها زمناً من أجل عذق كان لها ويشاركها فيه، ثم تزوجها لكونها شريكة في ذلك العذق، فنهى الشرع عن ذلك. رواه البخاري ومسلم.

والعبرة في هذه الآيات هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلُّ ظلم أو عدوان من أجل أموال الآخرين فهو حرام ومن الكبائر؛ والمال ذلك سُحتٌ مُحَرَّمٌ.

وعَضِلَ النساءُ والبنات - يتيّمات أو غير يتيّمات - ومنعهن من الزواج من أجل السطو على مالهن أو حقوقهن أو رواتبهن .. فذلك ظلمٌ وعدوان وهو من أكبر الكبائر وأشنع المحرّمات في شريعة الإسلام.



• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا
وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾
إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا

قَدْ سَلَفَ﴾ النساء: ١٩ - ٢٢.

روى البخاري والنسائي وأبو داود وابن كثير في التفسير: أنه كان أهل
الجاهلية إذا مات الرجل كان قرابته وأولاده أحقّ بامرأته من غيرهم، فيتولون
أمرها أو يتزوجونها أو يزوجونها بعضهم من قرابته كأبيه أو ابنه، وكثير منهم
تزوج امرأة أبيه في الجاهلية، وكانوا يعضلون المرأة ويمنعونها من الزواج
ويضيّقوا عليها حتى تموت أو ترجع مهرها..! فحرّم الإسلام ذلك وأبطله
ومنع إكراههن وظلمهن، وأمر بالعرف والإحسان إليهن، وحرّم - حرمةً
أبدية - عادة الجاهلية في نكاح ما نكح الأب؛ فقال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ
ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وفي ذلك دليل واضح على عناية الإسلام بالمرأة، وسبقه إلى إكرامها
وضمنان حقوقها؛ بنتاً وزوجةً وطليقةً وأماً وفي كل الأحوال وكل زمان
ومكان.

• قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۗ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٢٤ .

روى مسلم في صحيحه وأصحاب السنن وأهل التفسير: أن هذه الآية نزلت في المسلمين يوم (غزوة حنين)، عندما غنموا سبياً وإماءً فتحرجوا من وطئهن لأنهن كن ذوات أزواج، فنزلت هذه الآية تبيح الإماء ومُلك اليمين وترفع الحرج؛ لكن بشرط بعد انقضاء عدتهن واستبراء أرحامهن.

• قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ النساء: ٥٩ .

روى البخاري في صحيحه والواحيدي في أسباب النزول وابن إسحق في السيرة: أنها نزلت في بعض الصحابة؛ وكانوا في سرية من السرايا، فتنازعوا في طاعة قائدهم الذي أوقد (ناراً) وأمرهم بدخولها، فتنازعوا ثم رفضوا طاعته في ذلك؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا يُحرق بالنار إلا رب النار، ولا يجوز الإحراق بالنار، فأنزل الله قوله: ﴿فَإِن تَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: ارجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله عند التنازع. وأخبروا النبي ﷺ بذلك فأقرهم وقال: (أما إنهم لو دخلوها ما خرجوا منها، لا طاعة في معصية؛ إنما الطاعة في المعروف) رواه البخاري ومسلم.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فطاعة ألي الأمر من لعلماء والقادة والأمرء واجبة في الإسلام، ومشروطة بكونها في الحق والمعروف، لذلك كرر لفظ "الطاعة" مع الله ومع رسوله، ولم يكررها مع طاعة الولاية؛ بل قال: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ليعين أنها تبعاً لطاعة الله ورسوله.

ولا يعني ذلك الخروج على الولاية ومعادنتهم ومقاتلتهم، بل يجب الصبر عليهم والدعاء لهم والنصيحة معهم؛ بالحكمة والموعظة الحسنة.

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْمِزُونَ أَنَّ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الْطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء: ٦٠.

روى الطبراني وابن كثير في التفسير والواحدى والسيوطي في أسباب النزول: أنه كان هناك كاهناً يُسمى (أبو برزة الأسلمي) يقضي بين اليهود فيما يتنازعون فيه، وكانوا إذا تنازعوا في شيء ذهبوا إليه، فيقدمون حكمه على حكم الإسلام وعلى حكم رسول الله ﷺ، ويوماً كان جماعة من المنافقين - يخفون نفاقهم - فتنازعوا في خصومة؛ فدعوا إلى رسول الله ليحكم بينهم، فأبوا وذهبوا إلى هذا الكاهن ليحكم بينهم، فأنزل الله هذه الآية تدممهم وتشجبهم، والعبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنه يجب على المؤمنين أن لا يتحاكموا إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله، ويرضوا بذلك ويُسلموا له؛ كما في الآية والقصة التالية:

• قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء: ٦٥.

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في مُخَاصِمَةِ (الزبير بن العوام القرشي) رضي الله عنه مع رَجُلٍ من الأنصار؛ على شريد ماء (أي على مسيلة ماء تسقي نخيل أهل المدينة) وكان السيل يَمْرٌ أولاً بالزبير بن العوام، ثم بعده ينزل إلى مزرعة هذا الرجل الأنصاري، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكاً الأنصاري إلى رسول الله الزبير بن العوام وتقاضيا عند رسول الله، وكان الرسول هو الذي يحكم بين الناس ويقضي بينهم ويفك نزاعهم، فحكّم النبي صلى الله عليه وسلم بالماء أن يسقي الزبير أولاً وبالمعروف، ثم يفك الماء إلى الأنصاري الذي بعده؛ لأن الماء يَمْرٌ بمزرعة الزبير أولاً، فغضب الأنصاري من حُكْم رسول الله، وقال: إنما حَكَمْتَ للزبير لأنه ابن عمك - يقصد صفية بنت عبدالمطلب عمّة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أم الزبير - فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لانتهاك منزلة النبوة ولعدم رضا هذا الأنصاري بحُكْم رسول الله، وقال: اسقِ يا زبير حتى يصل الماء الجدر - وفي رواية الجدار - ثم اترك الماء لصاحبك، فأنزل الله هذه الآية.

والعبرة فيها وفي هذه القصة بعموم لفظها، فهي عِتَابٌ لِمَنْ لَا يُحَكِّمُ اللَّهَ ورسوله، وتوجب تحكيم القرآن والسنة، والرضى والقناعة بحُكْمهما، فإنه لا يَتَمَّ إيمان المؤمن إلا بذلك، وفوق ذلك لا يجد في نفسه حَرَجًا ولا كُرْهًا لحُكْم الله ورسوله، بل يجب أن يَرْضَى وَيَقْنَع وَيُسَلِّمَ له تسليماً.

• قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۗ﴾ (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿النساء: ٦٩ - ٧٠﴾.

روى الطبراني والواحدي في الأسباب والوادعي في الصحيح المسند وابن جرير وابن كثير في التفسير بإسنادٍ صحيح: أن رجلاً من الصحابة قال يا رسول الله: إنك في (الجنة) تُرفَع مع النبيين والصديقين، وإنك لأحب إليّ من نفسي، وإنني أخشى أن لا أراك في الجنة، وأن لا يرى بعضنا بعضاً، فأنزل الله هذه الآيات تُبيّن أن مَنْ مات على الإسلام والإيمان والعمل الصالح فإن الله يُكرمه بخير رفيق وخير رفقة؛ وهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، يرافقهم في الجنة، ويجتمعون مع بعض، وحَسُنَ أَلْتِكَ رَفِيقًا، نسأل الله أن يجعلنا ووالدينا وذرياتنا منهم.

وهذا (الرفيق الأعلى) هو اختيار الأنبياء عند موتهم، كما خيّر الله النبي ﷺ عند موته بين البقاء حياةً أطول في الدنيا أو الموت والسكنى مع الرفيق الأعلى، فاختر ﷺ الرفيق الأعلى. رواه البخاري ومسلم.

• قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ٨٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والسيوطي في أسباب النزول: أن النبي ﷺ لما اعتزل نساءه شهراً كاملاً^(١) أشاع بعض المرجفين: إن الرسول قد طلق نساءه، وأذاعوا هذا الخبر في المدينة، فظنّ الناس أنه طلقهن، فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ليستوضح الأمر وليتبين قبل أن يتكلم، ولم يتأثر بهم ولم يسمع كلامهم أو إشاعتهم وإنما ذهب بنفسه لیسلم على النبي ﷺ وليأخذ الخبر منه، فأتاه وهو معتزل عنهن في حجرة صغيرة علوية وقد افترش الحصير الذي أثر على جنبه فتأثر عمر منه، وقال: يا رسول الله: أطلقت نساءك؟ فقال ﷺ: لا، فرجع عمر إلى الناس وقال: إنه لم يطلقهن، وأنزل الله هذه الآية يعاتب الذين أذاعوا أنه طلق نساءه، والواجب أن يردّوه إلى الله والرسول، وأن يتثبتوا قبل أن يُذيعوا الخبر؛ سواء الأخبار التي تؤمن أو التي تُخاف.

والعبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها، فيجب ردّ الأمر إلى أهله، وعدم الخوض فيما لا يعني وفي الإشاعات من دون بينات.

(١) اعتزلهن لما أثقلن عليه بطلب زيادة النفقة فغضب لذلك، وسيأتي توضيحه في سورة الأحزاب عند نزول آية "التخيير" التي فيها خيّرهنّ بالبقاء معه والصبر، أو الدنيا ويُفارقته، فاخترن رسول الله وصبرن؛ رضي الله عنهن.

• قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّبُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ٩٤.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن كثير في التفسير: أن سبب نزول هذه الآية هو أن بعض الصحابة كان في سرية من السرايا؛ فلقوا رجلاً عند غنمه فسلم عليهم ألقى عليهم تحية السلام، فقال بعضهم: إنما سلم تُقِيَّةٌ وخوفاً منا وليس بمسلم، ثم انطلق إليه أحدهم فقتله مستعجلاً غير مثبت، وأخذوا ما معه من الغنم والمال..، فنزلت هذه الآية تُعَاتِبُ مَنْ يُبَادِرُ إِلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ.

ونهى فيها عن بحث السرائر؛ فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني الغنائم.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فلنا الظاهر والله السرائر، والإسلام قد عصم الدماء وحذر من الاعتداء عليها، سواء المسلمة منها أو الكافرة غير المحاربة، ولا يجوز سفك أي دم في الإسلام إلا بالحق وعن طريق الإمام أو نائبه، والحق: هو الردة بعد الإيمان، والزنا بعد إحصان، والنفس بالنفس.

• قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وابن حبان والواحدي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أنها لما نزلت هذه الآية تُفَضَّلُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين؛ وليس فيها (غير أولي الضرر) .. فجاء الصحابي الجليل (عبدالله بن أم مكتوم) رضي الله عنه - وكان ضريراً أعمى لا يُبصر - وقال يا رسول الله: لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ، فهل لي رُخصة؟ فأنزل اللهُ قوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ يَسْتَشْنِي أهل الأعدار - كابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش وكانا أعميان - وأسقط عنهم القلم والعفو من الجهاد ومن الأمور التي يُكَلَّفُ بها المُبْصِرُونَ.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (زيد بن ثابت) رضي الله عنه - وكان من كُتَّابِ الوحي - وأمره بكتابتها، فأخذ زيدُ الكُتْفَ والدِوَاةَ؛ وكتب ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾؛ وهي جُمْلَةٌ اعتراضية اكتملت بها الآية ^(١).

والعبرة بعموم لفظها، وهي من سماحة الإسلام، ومن رحمته بأهل الأعدار بتخفيف التكاليف عليهم، وأن من حبسه العُذْرُ كتب اللهُ له أجر نيتته.

(١) الكُتْفُ: أي عَظْمُ كَتْفِ البعير ونحوه؛ كان يُكْتَبُ عليه القرآن وعلى الجلود ..، و (غير) قرئت بالرفع في رواية حفص - ومن وافقه - على أنها صفة لـ"القاعدون"، وقرئت بالنصب (غير) في رواية قالون - ومن وافقه - على أنها استثناء؛ والمستثنى يُنْصَبُ.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا عَفُورًا﴾ النساء: ٩٩.

روى البخاري في صحيحه والطبراني وابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في بعض المسلمين في مكة؛ أسلموا وأخفوا إسلامهم، وعندما حانت الهجرة كرهوا الخروج وخافوا، وبقوا في مكة مع المشركين، فكانوا إذا ساقهم الكفار معهم إلى معركة من المعارك ضد المسلمين يخرجون معهم كارهين؛ ويكثر سوادهم ضد المسلمين، فيموتون فيكونون ظالمين لأنفسهم، أو أنهم تركوا الهجرة وبقوا في مكة؛ فأنزل الله

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾

وعاتبهم أنهم لم يهاجروا في أرض الله فراراً بدينهم، واستثنى المستضعفين الذين لا حيلة لهم ولا قدرة على الهجرة وعفا عنهم. والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

• قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ النساء: ١٠٠.

روى ابن جرير وابن كثير في التفسير والوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في بعض الصحابة المهاجرين الذين خرجوا للهجرة ولكنهم (ماتوا في الطريق) قبل وصولهم إلى المدينة، أو لحقهم المشركون فقتلوهم؛ فأنزل الله فيهم هذه الآية تُبَيِّنُ أن مَنْ خرج هاجراً فمات في طريق الهجرة فقد وقع أجره ونال الثواب العظيم على الهجرة.

ولكن الله - تعالى - اشترط شرطاً عظيماً في قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي مُخْلِصاً في هجرته لا يريد بها إلا وجه الله واتباع الرسول والدار الآخرة، وليس لطلب الدنيا ومتاعها، فعند ذلك ينال الثواب.

ويلحق بهذه الآية: آياتُ سورة العنكبوت وسورة النحل؛ نزلت في شأن المهاجرين؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ العنكبوت: ١٠، ذلك أنهم خرجوا للهجرة فلحق بهم المشركون فقتلوهم وأرجعوه من الهجرة؛ فرجعوا متأثرين بفتنة الكفار فعاتبهم الله وقال: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

ومنهم مَنْ فُتِنَ وأُوذِيَ وأُرجِعَ مِنَ الهجرة؛ ولكنه لَمْ يَرْجِعْ معهم؛ بل واصل هجرته فقتل أو أُوذِيَ حتى أنجاه الله، فنجا مَنْ نَجَا وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، فأنزل الله في هؤلاء - الذين عَزَمُوا على الهجرة وخرجوا إليها ولقوا الأذى في

سبيلها حتى هاجروا أو قُتلوا في سبيل الله - أنزل فيهم قوله من سورة النحل:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النحل: ١١٠.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فمن أراد الهجرة فأوذي في سبيلها أو صد عنها - وهي واجبة عليه - فافتحم وهاجر وامتنح في سبيل الله فهاجر ونجا أو قتل فأجره عند الله عظيم.



• قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١١٥ ﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ١١٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١١٨ هَتَأْتُهُمْ هَتُولَاءُ جَدَلْتُهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١١٩ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٠ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٢١ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيضًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ١٢٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١٢٣ ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٢٤ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥ - ١٢٤ .

روى الترمذي والحاكم بسندٍ صحيح وابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن سبب نزول هذه الآيات هو أن (بني أبيرق) وهم بيت من الأنصار من أهل المدينة يقال لهم: بنو أبيرق، وهم أربعة

إخوة: (طُعْمَة، وبشر، ومبشر، وبشير)، كانوا بالمدينة، فسرق (طُعْمَة بن أبيرق) درعاً، ثم وضعه عند يهودي، فانكشف خبره أنه سرق الدرع، فاتهم به اليهودي وهو بريء، وقال: إن اليهودي هو الذي سرق الدرع..

وجاء إخوته الثلاثة الباقون - وشهدوا زوراً وكذباً - أن أخاهم (طُعْمَة) بريء من السرقة، وأن اليهودي هو الذي سرق، فشهدوا وبرؤوا أخاهم واتهموا اليهودي، وحكم النبي ﷺ بحد السرقة على اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات تُبَيِّنُ أن هؤلاء الخونة قد كذبوا في شهادتهم وخانوا وظلموا البريء واتهموه.

واتضح السارق الحقيقي، وحذر الله رسوله من الخونة والخيانة والتعامل معهم فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿هَاتِئِمَّ هَتُّؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ الذين هم إخوة السارق جادلوا عنهم وبرؤوه واتهموا من لم تثبت إدانته، وقد أحاط الله بهم - علماً وقُدرةً - ﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.

ثم دعاهم الله إلى التوبة من الخيانة والافتحام والظلم ورمي الأبرياء بما ليس من كسبهم؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

وبعد ذلك حَكَمَ النبي ﷺ بقطع اليد - في السرقة - على السارق الحقيقي وهو (طعمة بن أبيرق)، فهَرَبَ من المدينة وارتدَّ عن الإسلام ولجأ إلى المشركين، فأنزل الله فيه قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥.

والعبرة فيه هذه الآيات بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فكُلُّ مَنْ ظَلَمَ أَوْ اتَّهَمَ بَرِيئًا أَوْ كَسَبَ الْآثَامَ - قولاً أو فعلاً - ثم رمى بها الأبرياء أو شهد شهادة زور .. فأثمه عند الله عظيم ويتحمل الوزر، كما أن من الواجب التثبت في الأحكام، وتحرّي العدل في القضاء.

انتهت سورة النساء ويلها سورة المائدة



من سورة المائدة

• قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٦.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن حبان وأصحاب السنن وابن كثير في التفسير: أن النبي ﷺ كان بالبيداء في سفرٍ؛ وهم عائدون إلى المدينة فسقط عقدٌ - قلادة - من عائشة - رضي الله عنها - وكان في ذلك العقد خرزٌ يمانِيٌّ ثمينٌ، فأخبرت النبي ﷺ بسقوط العقد، فأوقف الناس في ذلك المكان، وأخذوا يبحثون عن هذا العقد، وغضب (أبو بكر) ﷺ على ابنته عائشة؛ وقال لها: يا بنيتي: في كل سفر تكونين عناءً على الناس.

وبينما هم كذلك يبحثون عن العقد أو القلادة حانت الصلاة؛ وكانوا في مكانٍ ليس فيه ماء وليس معهم ماء، ولا يُصلُّون إلا بوضوء - والوضوء قد شرع يومئذ - فأخبروا النبي ﷺ بذلك، واشتكوا أنهم في مكانٍ ليس فيه ماء وليس عندهم ماء وقد حان وقت الصلاة وينبغي أن يتضوؤوا...، فأنزل الله هذه الآية - آية التيمم - وفيها: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

ففرح الناس بهذه الرُّخْصَةِ - رُخْصَةِ التَّيْمَمِ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ - وَأَوْضَحَ النَّبِيُّ ﷺ (صِفَةَ التَّيْمَمِ) بِأَنْ يَكُونَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً عَلَى صَعِيدٍ طَاهِرٍ وَيَمْسَحُ بِهَا الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ.

وَفِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ وَجَدُوا عِقْدَهَا قَدْ سَقَطَتْ تَحْتَ جَمَلِهَا.

وَقَامَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ (أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ) ﷺ وَقَالَ يَا عَائِشَةُ: مَا هَذِهِ بِأَوْلِ بَرَكَاتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّاسِ، جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا؛ مَا أَصَابَكَ أَمْرًا تَكْرَهِيهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيهِ خَيْرًا وَفَرَجًا ^(١).

(١) وَكَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ يَقْصِدُ: (حَادِثَةَ رُخْصَةِ التَّيْمَمِ) الْمَذْكُورَةَ، وَ(حَادِثَةَ الْإِفْكَ) الَّتِي فِيهَا سَقَطَتْ مِنْ عَائِشَةَ عِقْدُهَا؛ فَشُرِعَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ "الْمَنْعُ مِنَ الْقَذْفِ وَحَدُّ الْقَذْفِ"، وَسَيَاتِي شَرْحَهَا فِي سُورَةِ النُّورِ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ.

• قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المائدة: ١١.

أورد السيوطي في أسباب النزول وبعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية عدة روايات فيها ضعف، ولكن تتقوى ببعضها: أن قوماً أرادوا قتل النبي ﷺ والتخطيط لذلك مرّات عديدة، سواء من يهود بني النضير أو من غيرهم من يهود المدينة ومن منافقيها ومن بعض الأعراب والقبائل المشركة التي كانت تُرسل مبعوثيها لقتل النبي ﷺ وأذيته وبسط أيديهم على المسلمين..، ولفظ ﴿قَوْمٌ﴾ لفظ عام يشمل هؤلاء كلهم.

فنزلت هذه الآية وفيها التذكير بنعمة الله - تعالى - بأن كفّ شرهم ومكرهم عن المسلمين، وكفى الله المؤمنين القتال، وسلّم من شر هؤلاء الأشرار، ودافع عن المؤمنين، وعصم رسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة: ٦٧.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلما تجددت النعمة على المسلمين؛ بحفظ الله لهم ودفع الأذى عنهم ونصرهم على أعدائهم وتأمين خوفهم، فهذه الآية تُرشد إلى أن يحمدوا الله ويشكروه ويزيدوا من ثباتهم ورباطة جأشهم وتمسّكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم حتى تتوالى عليهم نعم الله وحفظه وتوفيقه.

• قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَأُاَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْاَ مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۗ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

المائدة: ٣٣ - ٣٤ .

روى البخاري وابن حبان وأبو داود وابن هيثم في السيرة وأصحاب التفسير: أن هذه الآية نزلت في قوم يقال لهم: العرنيون، أتوا النبي ﷺ مسلمين، ومكثوا أياماً بالمدينة، ثم قالوا: يا رسول الله، لقد استوحمنا المدينة، أي: مَرَضْنَا مِنْ جَوْهَا وَمِنْ وَحْمِهَا، وَلَمْ نُطِقْهَا، فأرسلهم ﷺ في البادية مع إبل المسلمين، ومع الراعي، وقال: الحَقُوا بِالْإِبِلِ؛ اشربوا من ألبانها وأبوالها، وادَّهِنُوا بِأَبْوَالِهَا خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَلَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعُرَنِيُّونَ بِإِبِلِ الْمُسْلِمِينَ فِي نَوَاحِي الْمَدِينَةِ، وَشَرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا، وَتَغَدَّوْا مِنْهَا، وَشَرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا وَسَمُّوا قَتَلُوا الرَّاعِيَّ ثُمَّ سَمَلُوا وَفَقَّوْا عَيْنَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقَوْا الْإِبِلَ وَهَرَبُوا بِهَا وَارْتَدَّوْا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِمْ أَرْسَلَ خَلْفَهُمْ سَرِيَّةً مِنْ مَائِي رَاكِبٍ بِقِيَادَةِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ (كِرْزِ الْفَهْرِيِّ) ﷺ فَلَحِقُوا بِهِؤُلَاءِ الْعُرَنِيِّينَ الْمُعْتَدِينَ؛ حَتَّى أَمْسَكُوا بِهِمْ وَأَحْضَرُوهُمْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَحِينَهَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿ إِنَّمَا جَزَأُاَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۗ ۝﴾ إِنْخِ الْآيَاتِ.

وجاءت هذه الآيات بحُكْمِ حَدِّ الْحَرَابَةِ ؛ لأن ما فعله هؤلاء القوم من قتل الراعي والتمثيل به ، وتسميل وفقء عينيه ، والهروب بإبل الصدقة والارتداد عن الإسلام .. هذا كله حرابة وقطع طريق وقتل نفس ، فحُكْمُهُمْ حَدُّ الْحَرَابَةِ الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ هَذِهِ الْآيَةُ.

وحد الحرابة في هذه الآية درجات ، فَمَنْ (قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ وَأَخَافَ الطَّرِيقَ) فَإِنَّهُ يُقْتَلُ ثُمَّ يُصَلَّبُ ، وَمَنْ (أَخَذَ الْمَالَ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ) فَإِنَّهُ تُقَطَّعُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافِ كَمَا نَصَّتِ الْآيَةُ ، وَمَنْ (أَخَافَ السَّبِيلَ وَرَوَّعَ الْأَمْنِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَلَمْ يَأْخُذْ مَالًا وَلَمْ يَقْتُلْ نَفْسًا) فَإِنَّهُ يُنْفَى مِنْ بَلَدِهِ - أَيْ يُسَجَّنُ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ عَامًّا كَامِلًا - أَوْ أَكْثَرَ ؛ حَسْبَمَا يَرَاهُ الْإِمَامُ.

وهؤلاء العرنيون أتوا بالجرائم كلها، قتلوا النفس ، وأخافوا السبيل ، ونهبوا المال - الإبل - وارتدوا عن الإسلام ، وفرّوا هارين.. ، فاستحقّوا بذلك حدَّ الحرابة ، فطَبَّقَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ ، فَأُولَ مَا فَعَلَ بِهِمُ الْقِصَاصُ فِي الْعَيْنِينَ وَالنَّظْرَ ؛ بَأَن سَمَلَ أَعْيُنَهُمْ ، ثُمَّ طَبَّقَ فِيهِمْ حَدَّ الْحَرَابَةِ بِقَتْلِهِمْ وَصَلْبِهِمْ.

وفيهمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ ، وَالْعِبْرَةُ فِيهَا بَعْمُومَ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا ، فَكُلُّ مَنْ فَعَلَ الْحَرَابَةَ وَقَتَلَ الْأَنْفُسَ وَنَهَبَ الْأَمْوَالَ وَقَطَعَ عَلَى الْأَمْنِينَ سُبُلَهُمْ وَطُرُقَهُمْ - سِوَاءِ فِي الْبَنِيَانِ وَفِي الْبَلَدِ أَوْ فِي الصَّحْرَاءِ وَخَارِجِ الْبَلَدِ - فَإِنَّهُ عَلَى الرَّاجِحِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ فَعَلَ الْحَرَابَةَ (فِي الصَّحْرَاءِ) بَعِيدًا عَنِ الْبَنِيَانِ ؛ أَوْ (دَاخِلَ الْبَلَدِ) ، فَالْجَمِيعُ سِوَا سِوَا سِوَا ، فَمَنْ ارْتَكَبَ الْحَرَابَةَ يُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ عِقُوبَتُهَا كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَرُوا بِتِلْكَ أَيْدِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللسنَّ باللسنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤١ - ٤٥﴾.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن حبان وأصحاب السنن

والمفسرون: أن هذه الآيات نزلت في طوائف اليهود عندما أتوا إلى النبي ﷺ

بِزَانٍ وَزَانِيَةٍ لِيُقِيمَ عَلَيْهِمَا الْحُكْمَ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ فِيهَا طَائِفَةً تَتَغَلَّبُ عَلَى الطَّوَائِفِ الْأُخْرَى، وَكَانَ الرَّجْمُ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى وَيَعْرِفُهُ الْيَهُودُ فِي التَّوْرَةِ وَهُوَ (الرَّجْمُ) لِلزَّانِي وَالزَّانِيَةِ الثَّيْبِينَ، وَلَكِنَّهُمْ بَدَّلُوا حُكْمَ الرَّجْمِ وَغَيْرَهُ بِأَنْ يَجْلِدُوا الزَّانِي الْمَحْصَنَ وَيُحَمِّمُوهُ - أَي: يُسَوِّدُوا وَجْهَهُ بِالْحِمَمِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَلْ تَجِدُونَ جَلْدَ الزَّانِي وَتَحْمِيمَهُ فِي كِتَابِكُمُ التَّوْرَةَ؟) قَالُوا كَذِبًا: نَعَمْ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ (عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ فَاسْأَلَهُ عَنْ حَدِّ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ الْمَحْصَنِينَ فِي التَّوْرَةِ، فَقَالَ: إِنَّهُ الرَّجْمُ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي الْيَهُودِ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ أَوْ زَنَا تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ أَوْ زَنَا الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَكَانُوا فِي أَشْرَافِهِمْ يَبْدَلُونَ الرَّجْمَ بِالْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران ٩٣، فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ، وَأَتَى غُلَامٌ مِنْهُمْ لِيَتْلُوَهَا، فَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَلِمَةِ (الرَّجْمِ)، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَإِذَا هُوَ مَكْتُوبٌ تَحْتَهَا (الرَّجْمُ) فِي التَّوْرَةِ، لِلزَّانِي وَالزَّانِيَةِ الْمَحْصَنِينَ.

فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجْمِ الزَّانِيَيْنِ الْيَهُودِيِّينَ الْمَحْصَنِينَ، وَقَالَ ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ)، وَأَنْزَلَ اللَّهُ حِينَئِذٍ قَوْلَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّحْتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ أَنَّهُمْ: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ

وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا ﴿المائدة: ٤١﴾ أي: إن اليهود قالوا: نتحاكم إلى رسول الله فإن حكم بالجلد والتحميم نأخذ بحكمه، وإن غير وحكم بالرجم لا نأخذ حكمه، فقلوه: ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخْذُوهُ﴾ أي: الجلد والتحميم، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا﴾ أي: حكم لكم بالرجم، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المائدة: ٤٥ - ٤٧.

وأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ﴿المائدة: ٤٢﴾، وعاتبهم فقال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿المائدة: ٥٠﴾
والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فينبغي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرضا بما فيه في كل زمان وفي كل مكان، وعلى الشريف والضعيف والكبير والصغير، فحكم الله جارٍ على كل أحد، وينبغي الرضا بحكم الله وعدم السخط منه، كما يحرم أن يُقدّم على حكم الله شيئاً من أهواء الناس أو عادات القبائل أو أعراف المجتمعات التي تُخالف كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن تلك العادات كلّها ضلال؛ فلا عبرة بها، وإنما ينبغي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرضا بها وبما أتى فيها من أحكام وحدود وتشريعات.

• قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة: ٦٧.

روى ابن حبان في صحيحه والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير وغيره من المفسرين بروايات صحيحة: أن هذه الآية نزلت عندما أتى أعرابيٌّ مُرسَلٌ من قومه لأذية النبي ﷺ أو قتله، فجاء للنبي ﷺ وهو نائم تحت شجرة؛ وقد علّق سيفه فيها، فأخذ هذا الأعرابي سيف رسول الله وسلّه ونادى: يا محمد، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقال ﷺ: اللهُ يَمْنَعُنِي، فنزل قول الله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يحفظك ويحميك ويرعاك.

وكان ﷺ يتخذ حرساً؛ فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس، وأمر الناس

والحرس أن يَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِهِ؛ لأن الله قد عصمه وحماه.

وأطلق ﷺ هذا الرَّجُلَ ومضى.

وعصمة النبي ﷺ عِصْمَتَانِ:

(عِصْمَةُ هِدَايَةِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ)؛ فلا يقع في معصية ولا في خطأ؛ كما

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُوَ الْوَاحِيُ الْيُوحَى﴾ النجم: ٤.

(وعصمة حماية)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

• قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا

مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

المائدة: ٩٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن حبان والترمذي وأحمد والسيوطي في أسباب النزول: أنه لما نزلت آية تحريم الخمر، ونزل النهي عن شربها أسرع الصحابة إلى إهراق ما معهم وتركوها وتابوا منها، وقال البعض منهم: قد قتل أناسٌ في غزوة بدر وغزوة أحد؛ وماتوا وهم يشربون الخمر، وذلك قبل تحريمها، وقبل نزول حكم الله فيها، فأُنزل اللهُ هذه الآية. والعبارة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وفيها من الفوائد: سرعة استجابة الصحابة؛ رضي الله عنهم. وفيها أيضاً من الفوائد: أنه لا يُتكلَّم في الأموات، ولا يُسبَّون؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا.

ومن الفوائد والأحكام: أنه لا يؤاخذ العبد بجهله حتى يتعلم، ولا يؤاخذ بالأحكام حتى تنزل، فهي محلّ عفوٍ قبل نزول الحكم، فإذا شرع الحكم يؤاخذ المكلف به.

• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ

وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ المائدة: ١٠١.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد وأهل التفسير:

أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يُكثرون الأسئلة على النبي ﷺ، وبعضهم

يسأله استهزاءً، فيقول: مَنْ أبي؟ وسائل آخر يقول: أين ناقتي؟، ولَمَّا شُرِعَ

الحج سأل أقوامٌ؛ فقالوا: أفي كُلِّ عامٍ يا رسول الله؟ فسكت ﷺ ثم قال:

(لا، ولو قلتُ: نعم لوجبتُ).

فهؤلاء الأقوام الذين يُكثرون الأسئلة ويسألون سخريةً واستهزاءً نزلت

فيهم هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ...﴾

والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن النبي ﷺ قد نهى عن

كثرة السؤال وعن القيل والقال، وإنما يُسأل للحاجة والمصلحة.

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اَعْتَدْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْههَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَأَسْمِعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿المائدة: ١٠٦ - ١٠٨﴾

هذه الآيات الثلاثة روي عن بعض المفسرين أنها منسوخة، ومنسوخ حكمها، وهي في: شهادة (المغرب) إذا لم يجد شهوداً من المسلمين. ولكن الصحيح المترجح الذي عليه جماهير أهل العلم وجماهير المفسرين أن هذه الآيات مُحْكَمَةٌ وليست منسوخة، وحُكْمُهَا ثابت، يؤخذ به في كل زمان ومكان.

والعبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

وفي سبب نزولها: روى البخاري والترمذي والبيهقي وأبو داود والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أنه كان رجلاً من الأنصار يُتاجر بماله في الشام، فمرض وحضرته الوفاة هناك ومعه مال، ومعه أيضاً جامٌ من فضة - أي إناء ثمين من الفضة - فلم يجد شهوداً من المسلمين على وصيته، وأراد أن يوصي؛ فلم يجد إلا اثنين من النصارى يُتاجران بأموالهما

في الشام، والوصية مشروعة والإشهاد عليها بشاهدين واجب؛ لاسيما إذا كان الموصي مسافراً وأدركه الموت ولم يجد شهوداً من المسلمين؛ فإنه يجوز له أن يُشهد شاهدين من الكفار بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون مسافراً.

الشرط الثاني: ألا يجد شهوداً من المسلمين.

فحينها يُشهد اثنين من المشركين أو من أهل الكتاب على وصيته، وأهل

الذمة أولى من غيرهم.

فأعطاهما ما معه من المال وكذلك الإئاء الفضي، وأوصاهما أن يوصيلا

هذا المال إلى أهله، ثم توفي.

فأخذ هذان النصرانيان الإئاء فباعاه بألف دينار واقتسماها كل واحد

منهما أخذ خمسمئة ديناراً، ورجعا بالمال وأعطياه لأهل المتوفى بالمدينة، ففقد

أهله الإئاء؛ فسألوهما: أين الإئاء؟ قالوا: لم نره ولا نعلمه ولم يُعطينا إلا ما

أعطيناكم من المال..

ومضت الأيام وأسلم أحدهما؛ فلما أسلم تأتم من الخمسمئة دينار

التي أخذها ظلماً من قيمة الإئاء؛ فذهب بها إلى أهل المتوفى الذي أوصى

وأخبرهم أنه هو صاحبه أخذ الإئاء ظلماً وعدواناً وباعاه واقتسما قيمته، وأنه

قد تاب وأرجع إليهما ما عنده، وأخبرهما أن صاحبه عنده خمسمئة دينار

بقية قيمة الإئاء، فذهب أهل الميت صاحب الإئاء إلى رسول الله وقالوا: إن

فلاناً النصراني عنده خمسمئة دينار، فقال ﷺ: (ألكم بيّنة؟) قالوا: ليس

عندنا بينة، فأمرهم أن يستحلفوه، فأنزل الله قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي من المسلمين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير المسلمين إذا لم يجد الشهود المسلمين.

فقام رجُلان من أهل الميت وحلفا بالله أن النصراني عنده خمسمئة دينار، فأخذ منه الإناء وأعطى لأهله، وثبت حكم هذه الآية، أنه إذا كان الإنسان مُغترباً وحضرتة الوفاة وليس عنده شهود وأراد أن يوصي يجب عليه أن يُشهد اثنين من المسلمين، فإن لم يجد فإنه يُشهد اثنين من أهل الكتاب على وصيته.

وإذا شكَّ أو ارتاب أهل الميت في الأوصياء أو في الشاهدين فإنه يُشرع لهم أن يطلبوا الحلف واليمين من الشاهدين؛ فيحلف الشاهدان - بعد صلاة العصر في مجمع الناس - أنهما لم يخونا ولم يكذبا ولم يُبدلا ولم يُغيِّرا ولم يكتما، فإذا رضي أهل الميت بيمينهما تنفَّذ الوصية، وإذا لم يرضوا فإنه يحق لهم أن يردَّا شهادة الشهود، وبالتالي يأخذان يمين الشهود.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

انتهت سورة المائدة ويليها سورة الأنعام.

مِن سُوْرَةِ الْأَنْعَامِ

• قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

الأنعام: ٢٦.

روى الحاكم والسيوطي في أسباب النزول، وجمهور المفسرين: أن هذه الآية نزلت في بعض قرابة النبي ﷺ، ومنهم أعمامه الذين أدركوا الإسلام، وعمّه أبو طالب - غير أبي لهب - فإنهم كانوا ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: عن الرسول، وعن الإسلام، يدافعون عنه، ويحّمونه ويَنهَوْنَ مشركي قريش أن يؤذوه أو يعتدوا عليه، ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾، أي يتعدون عنه عن الرسول وعن الدين.

فَهُمْ مِنْ جَانِبٍ يَدَافِعُونَ عَنْهُ، ولكنهم يتعدون عن دينه وعن شرعه، وهذه الآية هي ذمٌّ وقَدْحٌ في الذي يقول ما لا يفعل، وأنه لا يَنْفَعُهُ عندما يتكلم بلسانه بخير، أو يُثْنِي على الإسلام؛ ولكنه بأفعاله وقلبه بعيدٌ عن تعاليمه وعن هديه.. فإن ذلك لا يَنْفَعُهُ، وإنما هو قد أهلك نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ يدافعون عنه ولكنهم في الحقيقة بعيدون عنه وعن تعاليمه؛ فهؤلاء يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وما يشعرون.

وهذه الآية وإن كان المقصود منها عمّ النبي ﷺ ولكن العبرة فيها

بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

• قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام: ٥٢.

روى ابن حبان والحاكم وأحمد والطبراني وجمهور المفسرين والواحيدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في كفار قريش وكبراءهم ومتكبريهم؛ حيث كانوا يحتقرون المستضعفين والعبيد والموالي الذين أسلموا واتبعوا النبي ﷺ؛ ويستصغرونهم ولا يتواضعون أن يجالسوهم، ويحتقرون الضعفاء والأرقاء؛ كبلال بن رباح، وعمار بن يسار، وخباب بن الأرت، وصهيب الرومي، وعبدالله بن مسعود، وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام وسبقوا إليه..، حتى إنهم كانوا يقولون للرسول ﷺ: يا محمد: إن أردت أن نأتيك ونجلس معك فاطرد هؤلاء الذين يتبعونك ويجلسون عندك..! فهى الله رسوله أن يستجيب لمطالب الكفار والمتكبرين؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكل من تكبر وازدرى واحتقر الناس وقاسهم بمقياس القبليّة والعصبيّة ولم يقسّمهم بمقياس الدّين والعقيدة والتوحيد والإسلام والخير والصلاح.. فإنه ظالم غاشم آثم، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣.

• قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام: ١٤١.

روى ابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي والواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في البعض عندما كانوا يُخرجون الزكاة ثم يزيدون فوقها صدقات وأعطيات من قوتهم وقوت عيالهم، ومما هو من حاجتهم ويحتاجونه، ثم تسارفوا في ذلك، ولحق بهم ضرر، فنهى القرآن عن الإسراف.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها ..

فإذا كان الإسراف في (الصدقة) التي تضرّ بكفاف الأسرة منهيٌّ عنه فمن باب أولى الإنفاق في (الكَماليات وغير الضروريات بل وفي المحرمات) والتي يتسارع إليها أكثر الناس اليوم، وينفقون أموالاً في لباس وأشياء وترفيات لا يحتاجونها، وإنما يقتنونها سرفاً وترفاً، ويأخذون الغالي الثمين الذي يقوم مقامه الرخيص الذي يؤدي الغرض، ويتنافسون في بهرج الحياة ومتاعها ومساكنها ومراكبها..، فهذا مذموم ومنهي عنه بنص القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام: ١٤١، وتكررت هذه الآية أيضاً

في (سورة الأعراف) بالنهي عن الإسراف في الزينة واللباس والأكل والشرب؛

فقال تعالى: ﴿بَنِيَّ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣١، وسيأتي الكلام عن هذه الآية الكريمة؛ فيما يلي.

انتهت سورة الأنعام ويليها سورة الأعراف

مِن سُوْرَةِ الْأَعْرَافِ

• قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُدُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٣١﴾ الأعراف: ٣١.

روى مسلم في صحيحه والنسائي وأهل التفسير: أن هذه الآية نزلت في مشركي قريش وغيرهم من الكفار والمشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت وهم عُرَاة، فأنزل الله هذه الآية تحثهم على ستر العورة عند الطواف بالبيت وعند الصلاة، فعورة الرجل من سُرَّتِهِ إلى رُكْبَتِهِ، والمرأة كُلُّهَا عورة إلا وجهها في الصلاة، إلا بحضرة الرجال الأجانب فتستر، مع وجوب الاقتصاد وعدم الإسراف في اللباس والأكل والشرب ..

وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ أمر (أبا بكر الصديق) ﷺ على حج العام التاسع الهجري، وكان (المشركون) يَحْجُّونَ مع المسلمين، ويطوفون بالبيت عُرَاة من غير لباس.

وكان ذلك تمهيداً لـ (حجة الوداع) في العام ١٠هـ؛ لكفّ المشركين، وتطهير البيت والمشاعر من رجسهم ومن طوافهم بالبيت وهم عُرَاة. وبعث أبو بكر ﷺ رجالاً ينادون في الناس يوم النحر: (أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان) (١).

(١) رواه البخاري ومسلم، وانظر: الرحمة العالمية في صحيح السيرة النبوية ص ٦٥٣ للمؤلف.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فهي عامة، وينبغي على الإنسان أن يستر عورته عند الصلاة والطواف، ويلبس لهما أحسن ثيابه متواضعاً غير مُسرف.

والمقصود بـ ﴿حُدُوا زِينَتَكُمْ﴾ أي ما يستر عوراتكم ويُزيّنكم من اللباس الواجب الساتر للعورة في الصلاة؛ لأن اللباس الساتر زينة للإنسان مثلما أن العري قبح في الإنسان.

ثم ذيل الآية بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي يأكل الإنسان ويشرب ويأتي من الطيبات ويلبس ما يريد .. بشرط أن يتجنب الإسراف والمخيلة وما زيد عن الحاجة، حتى الإسراف في الأكل والشرب واللباس والشهوات وما فوق الحاجة .. فهذا كله من المذموم.

ونزل أيضاً في هذا الأمر قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف: ٣٢، هذه الآية أيضاً سبب نزولها هو أن يترك الإنسان ما هو واجب عليه في أمر اللباس والأكل والشرب، أو أنه يُسرف في ذلك فيأخذ فوق حاجته، وقد قال النبي ﷺ: (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا؛ مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرْفٍ) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وصححه الألباني وأحمد شاكر.

انتهت سورة الأعراف ويليهما سورة الأنفال

مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

• قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: ١.

روى مسلم في صحيحه وابن حبان وأحمد وأصحاب السنن في سبب نزول هذه الآية: أن الصحابة اختلفوا وتنازعوا الرأي في غنائم (غزوة بدر)، وانطلق شُبَّانُ الصحابة، وحازوا الجزء الأكبر من الغنائم، وحصل الخلاف على الغنائم، وانقسم الصحابة ثلاثة أقسام، فقسم منهم قالوا: نحن الأحق بالغنائم؛ لأننا ثبتنا تحت الرايات ندافع عن رسول الله ﷺ، وقسم منهم قالوا: نحن أحق بها (بالغنائم)؛ لأننا مكثنا ندافع العدو ونقاتله، وقسم منهم (وهم الشبان) قالوا: نحن أحق بالغنائم؛ لأننا نحن الذين جمعناها وحزناها، وبينما هم في هذا الخلاف وهم يختصمون إلى النبي ﷺ نزلت هذه الآيات تفصل بينهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وفي رواية أبي داود والترمذي والنسائي: أن (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه أتى بسيف من الغنائم؛ وقال: يا رسول الله، هبني هذا السيف، فقال ﷺ: (هذا ليس لي ولا لك؛ فأرجعه مع الغنائم)، وجمعت الغنائم ثم قسمت بالسوية، وزال الخلاف بين الصحابة.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالنزاع والخلاف مذموم، والاجتماع والتعاون والاصلاح واجب؛ وهو وصية الله العظيمة التي يجب أن يؤخذ بها في كل شأنٍ من الشؤون الأسرية والاجتماعية والمالية والاقتصادية.. وغيرها، هذه الوصية العظيمة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١﴾ وصية جامعة تحل كثيراً من مشاكل الناس في كل زمان ومكان.

وقد روي عن الإمام القارئ (نافع بن أبي نعيم المدني) أنه لما حضرته الوفاة جمع أولاده ثم أوصاهم بوصية الله؛ فقرأ عليهم هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١﴾.

(١) انظر: تاريخ القراء العشرة ورواتهم ص ١٢ للشيخ المقرئ عبد الفتاح القاضي؛ رحمه الله، و(نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم) من القراء السبعة، وهو قارئ المدينة وعالمها، وأشهر رواة في الإقراء: الإمام قالون والإمام ورش، توفي نافع سنة ١٦٩ هـ رحمه الله ورضي عنه.

• قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأَنْفَالُ: ٩.

روى مسلم في صحيحه والترمذي وأبو داود وأحمد وابن كثير في التفسير في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ يوم (غزوة بدر) نظر إلى المشركين فإذا هم يزيدون على الألف، وجيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، فاتّجه ﷺ إلى الله، داعياً مستغيثاً، يستغيث بالله، ويدعوه بالنصر، وكان مما هتف به: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، اللهم إن تهلك هذه القلة المؤمنة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض). فما زال ﷺ يهتف بهذا الدعاء وبهذه الاستغاثة ويرفع يديه حتى سقط

رداؤه من على منكبيه، وأنزل الله هذه الآية ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ

لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالمؤمن دائماً يلجأ إلى الله ويستغيث به ويتوكل بقلبه عليه.

والاستغاثة: لا تكون إلا بالله، والدعاء يكون في الرخاء والشدة، والاستغاثة تكون في الشدة وفي ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن استغاث بغير الله من المخلوقين في غير ما يقدر عليه فقد أشرك.

أما الاستعانة: فتجوز بالمخلوق فيما يقدر عليه، مع الاعتماد بالقلب

على الله تعالى.

• قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَيُجِبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ الأنفال: ١٧.

روى الطبراني والحاكم والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير: أن النبي ﷺ أخذ يوم (بدر) كفاً من الحصباء والتراب ثم رماها على صفوف المشركين، فانهزموا وتفرقوا، وكان لا يرمي ﷺ بسهمه على المشركين إلا أصاب واحداً منهم.

وروي عن حكيم بن حزام رضي الله عنه - وكان مشركاً في صفوف المشركين يوم بدر قبل أن يُسلم - قال: إن رسول الله لَمَّا استقبلنا بقبضة الحصى والتراب ورمانا فكأنه أصابنا؛ لم نر شيئاً وانهزمنا، وأنزل الله حينئذ قوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾.



• قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الأنفال: ١٩.

روى أحمد في المسند والحاكم والنسائي والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير بسند صحيح: أن هذه الآية نزلت في المشرك (أبي جهل) يوم غزوة بدر، فهو في هذه الآية هو المستفتح، فإنه - لعنه الله - لما التقى المشركون بالمسلمين - يوم بدر - أخذ يدعو الله ويستنصره ويستحكمه، ويقول: اللهم انصر أعزّ الفئتين وأكرم الفرقتين، اللهم من كان منا أقطع للرحم وأتى بما لا يُعرف فأجبه الغداة - أي: اقتله وأهلكه - وأخذ يدعو؛ ودعاؤه هذا يدل على جهله وظنه الخاطئ، وكان يرى أنه على الصواب، ولا يشعر أنه على الخطأ والضلال، وهذا يدل على كبره وغطرسته، فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ وكأنها ردُّ عليه واستهزاء به وتهكم بظنه وجهله.

والعبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها، فقد يوجد - في أي زمان وأي مكان - من الناس من يرى أنه على الحق والصواب، ويدعو الله على خصمه، وقد يستحكم الله تعالى ويتخذه حكماً - على طريقة أبي جهل - فيما بينه وبين الآخرين ويدعو ويرى أنه على صواب، وهو في الحقيقة على خطأ وظلم، فتعكس دعوته وبالأعلى عليه، نسأل الله العفو والعافية.

• قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الأنفال: ٦٨.

روى الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وأهل التفسير والواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في المسلمين؛ عندما أخذوا الفدية من أسرى (غزوة بدر) المشركين.

فإن النبي ﷺ استشار أصحابه في قتل أسرى غزوة بدر أو فدائهم بأخذ الفدية منهم وإطلاقهم، فأشار (عمر) بقتلهم وترك الفدية، وأشار الصحابة بأخذ الفدية، فأخذ النبي ﷺ برأي الصحابة، وأطلقهم وأخذ الفدية منهم، فعاتبه الله وأنزل عليه قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٧ فهذا إشارة إلى تعظيم أمر الآخرة في الأمور العامة، ثم أنزل هذه الآية ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ والكتاب الذي سبق: هو أن الله أحلّ الغنائم لأمة محمد ﷺ، أي سبق هذه الحادثة، فمعنى الآية لولا أن الله قد أحلّ لكم الغنائم لمسكم عذابٌ عظيمٌ فيما أخذتموه من مال الفدية في أسرى مشركي غزوة بدر.

• قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿﴾ الأنفال: ٧٥.

روى الطبراني والحاكم وابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي والوادعي في صحيح أسباب النزول: أنها نزلت هذه الآية في نسخ وإبطال الإرث بالجلف والإخاء، كتآخي (المهاجرين والأنصار) الذين آخى النبي ﷺ بينهم، فكانوا يتوارثون رغم أنه ليس بينهم قرابة نسب، فنزلت هذه الآية تُبطل التوارث بالتآخي، وحصرت التوارث بين القرابة والأرحام والعصبات، وأبطلت ما عدا ذلك من صور التوارث عن طريق التآخي وغيره.

وعبر بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ يشمل طرق التوارث المشروعة في الإسلام؛ وهي: (النكاح، والولاء، والنسب)، فهذه كلها من الرحم ويدخل فيها القرابة، أما التآخي الذي كان بين الصحابة في المدينة فأبطلته هذه الآية.

انتهت سورة الأنفال، يليها سورة التوبة

من سورة التوبة

• قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

التوبة: ١٩.

روى مسلم في صحيحه وأحمد وابن حبان وأهل التفسير والواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في (ثلاثة نفر) كانوا عند منبر رسول الله ﷺ، وكلُّ منهم يذكر العمل الصالح الذي يتمناه ..

فقال الأول: أريد أن أسقي الحاج.

وقال الثاني: أريد عمارة المسجد الحرام.

وقال الثالث: بل أفضل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ..

فأنزل الله قوله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ التوبة: ١٩.

والعبرة في هذه الآية هو بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن الأعمال

الصالحة تتفاوت.

وفي هذه القصة مشروعية المسابقة في الخيرات، ورفع الهمة إلى العمل

الصالح؛ كلُّ بحسب استطاعته وقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَاِتِّبِ

حَيْرَ الزَّادِ النَّفْوَى﴾ البقرة: ١٩٧.

• قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ التوبة: ٢٥.

روى البيهقي في الدلائل والسيوطي في أسباب النزول والمفسرون: أن هذه الآية نزلت في أناسٍ من المسلمين (يوم غزوة حنين والطائف)، فإنهم رأوا أنهم قد بلغوا اثني عشر ألف مجاهدًا مع النبي ﷺ؛ فأعجبتهم كثرتهم وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة، فحدث ما حدث في غزوة حنين، مما يُبين أن الكثرة مهما كانت لا تنفع إذا لم يأت من الله نصر، وأنزل الله حينئذٍ قوله:

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

وهذه الآية العبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكل من أُعجب بكثرة المال والقوة ولا يتوكل على الله ولا يجعل المعتمد على الله فإنه سوف يُهزم ..

ومضت سنة الله؛ أن من اعتمد على ماله قلّ، ومن اعتمد على عقله ضلّ، ومن اعتمد على علمه زلّ، ومن اعتمد على الناس ذلّ، ومن توكل على الله فلا ضلّ ولا زلّ ولا ذلّ ولا قلّ.

• قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ

يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في المنافق (ذي الخوبصرة التميمي)، الذي تكلم باسم المنافقين، ولمز النبي ﷺ وقدح فيه، وفي قسمته عندما كان يقسم صدقات أتى بها إليه ﷺ، فأخذ يقسمها على أناس ورؤساء عشائر وقبائل يستألفهم إلى الإسلام، ويقسم ﷺ بحكمته وبعده وبجلمه وبعلمه، ويعدل فيها، فأتى هذا المنافق ليلمز النبي ﷺ ويقده في قسمته؛ وقال له: اعدل يا رسول الله، فقال ﷺ: (ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟!).

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: دعني أضرب عنقه فإنه منافق، فمنعه النبي ﷺ وقال: (دعه لا يتحدث الناس أن رسول الله يقتل أصحابه، وإن لهذا المنافق أعواناً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية).

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن كل من حاول القدح في تعاليم القرآن والسنة، أو تزهيد الناس فيها، أو تشكيك الناس في أحكام الشرع فإنه من المنافقين ومن تنطبق عليهم هذه الآية، ويدخل في بيان النبي ﷺ الذي بينه في هذا المنافق.

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التوبة: ٧٩.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في المنافقين الذين لَمَزُوا واستهزءوا بالمؤمنين الذين يتصدقون، حيث لَمَّا نزلت آية الصدقة التي تحث المسلمين على الإنفاق والصدقات وهي قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ التوبة: ١٠٣ لَمَّا نزلت هذه الآية جاء الصحابة يتصدقون؛ كُلٌُّ بحسب طاقته وجهده..، فسخر منهم المنافقون، ولمزوهم، فَمَنْ قَلَّ مِنْهُمْ قالوا: بخيل، وَمَنْ أَكْثَرَ قالوا: مُرَاءٍ، فذمهم الله وأنزل هذه الآية تتوعدهم بالعذاب؛ وفيها قال تعالى: ﴿..فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإنه يحرم لَمَزَ أهل الخير على أعمالهم، وتحرّم السخرية من الناس والاستهزاء بهم والحكم عليهم بظاهر أشكالهم أو أعمالهم، ولكن يُوكَلون إلى الله، ولا يجوز اللمز ولا الغمز في أيّ عمل ولا بأيّ عمل، فهذا من صفات المنافقين.

• قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ

أَبِاللَّهِ وَعَآئِنِئِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
إِن نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿التوبة: ٥٦- ٦٦﴾

روى ابن أبي حاتم وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في بعض المنافقين؛ كانوا جلوساً مع المسلمين في غزوة تبوك، فقال أحد هؤلاء المنافقين - مستهزئاً بالصحابة والمسلمين - قال: ما رأينا مثل قرائتنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أجهن عند اللقاء، يقصد الغمز واللمز والاستهزاء بصحابة رسول الله، فقام رجلٌ من الصحابة وقال لهذا المنافق: كذبت؛ إنك منافق؛ ولأخبرن رسول الله.

فلما ذهب ليخبر رسول الله بكلام هذا المنافق إذا هذه الآية قد سبقته ونزلت على النبي ﷺ، فأتى هؤلاء المنافقون إلى النبي ﷺ يعتذرون منه، فلم يردّ عليهم الرسول ﷺ إلا بالآية يقرؤها ويكررها ﴿أَبِاللَّهِ وَعَآئِنِئِهِ وَرَسُولِهِ

كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾

والعبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإن الاستهزاء برسول الله أو بدينه أو بكتابه أو بالعباد الصالحين من نواقض الإسلام، بنص هذه الآية ﴿ لَا تَعْنَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، ومن المنكرات العظيمة التي تُخرج صاحبها من الإسلام أن يستهزئ بالله أو آياته أو بكتابه أو برسوله أو بأحكامه.

• قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نَقَمَ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ التوبة: ٨٤.

المخاطب بهذه الآية هو النبي ﷺ، والخطاب عامٌ له ولأُمَّته، فالعبرة

هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

والمقصود بقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين، ينهى الله رسوله أن

يُصَلِّيَ عَلَى مَنْ مَاتَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ؛ وَمَنْ ثَبَتَ بِالْيَقِينِ وَبِالْأَدْلَةِ وَالْبِرَاهِينِ نِفَاقَهُ وَأَنَّهُ يَبْغِضُ الْإِسْلَامَ وَيَبْطِنُ الْكُفْرَ وَالشَّرَّ.. فَإِنَّهُ مُنَافِقٌ لَا يُصَلِّيُ عَلَيْهِ.

وسبب نزول هذه الآية:

هو - كما في الصحيحين البخاري ومسلم وفي السنن وعند أهل التفسير -

أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْمُنَافِقُ (عبدالله بن أبي بن سلول) رَأَسَ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ، أَتَى

ابنه عبدالله^(١) إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَبِي تَوَفَّى فَأَعْطِنِي

قَمِيصَكَ كَمَا أَكْفَنَ أَبِي فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ.

فالنبي ﷺ - جَبْرًا لِحَاطَرِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَالصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ

بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي؛ وَاسْتِثْلَافًا لِقَوْمِهِ - أَعْطَاهُ قَمِيصَهُ لِيُكْفَنَ فِيهِ أَبَاهُ، وَذَهَبَ

النبي ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَى هَذَا الْمُنَافِقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَلَمَّا وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) عبدالله بن عبدالله بن أبي هو ابن المنافق عبدالله بن أبي بن سلول، و(عبدالله بن عبدالله بن

أبي) صحابيٌ جليل، ورجلٌ صالح، وهو من فضلاء الصحابة، ومن خيار الأنصار، شهد مع

النبي ﷺ بدرًا وأحدًا وغيرها من الغزوات، وتوفي يوم اليمامة شهيداً ﷺ.

ليصلي عليه أتاه عمر بن الخطاب ^(١) وقال: يا رسول الله: أَلَمْ يَنْهَكَ اللهُ أَنْ لَا تُصَلِّيَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ؟ فقال النبي ﷺ: قد خيرني الله فيهم، في قوله: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ التوبة: ٨٠، فلما أراد ﷺ أن يقوم ليصلي على هذا المنافق - عبدالله بن أبي بن سلول - نزلت هذه الآية تنهى النبي ﷺ أن يُصَلِّيَ عليه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّأَبْدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ثم عَلَّلَتِ الآية سبب ذلك النهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلٌّ مَنْ عَلِمَ - بأدلة قاطعة - نفاقه فإنه لَا يُصَلَّى عليه.

(١) عمر بن الخطاب الخليفة الراشد، والصحابي الجليل، المبشر بالجنة، والمسدد الرأي، والملمهم، كان ملهماً في كلامه، وكان ذكياً فطناً، وكان حازقاً، وكان موفقاً في المشورة وسديداً في الرأي حتى إنه بعقله وذكائه يوافق القرآن وينزل القرآن على رأيه، ونزلت آيات برأيه؛ مثل آية الحجاب، وآية المشورة في قتل أسرى بدر، ولما قال: لو نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؛ نزلت الآية على كلامه: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ البقرة: ١٢٥. ونزلت هذه الآية التي تنهى عن الصلاة على المنافقين أيضاً توافق رأي عمر؛ والذي أشار على النبي ﷺ ألا يصلي على المنافقين، وهذا من سداده، فلننظر كيف قال: وافقتُ ربِّي في ثلاث، فعين أدبه مع الله وتكرماً منه للحق قال: وافقتُ ربِّي، وإلا فإن القرآن ينزل موافقاً لرأيه ﷺ.

• قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَنْظُرُوا لِلَّهِ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ التوبة ١٠٧-١٠٨.

روى الطحاوي في مشكل الآثار وابن حجر في الإصابة والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في مسجد بناه المنافقون في المدينة، وأتوا النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله بنينا مسجداً للحاجة وليلة الشاتية والمطيرة، ونود أن نُصلي لنا فيه.

فهم النبي ﷺ أن يُصلي لهم فيه؛ فأنزل الله عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ فسماه مسجد ضرار، ونهاه أن يُصلي فيه فقال تعالى: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا﴾، وأمر النبي ﷺ بهدم (مسجد الضرار) فهدم؛ وعدم القيام والصلاة فيه؛ لأنه قصد به الضرر والإضرار والإرصاد للمؤمنين ومُحاربة الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم هو (مسجد قباء)، وقيل: هو (المسجد النبوي)، فورد هذا وورد هذا؛ وكلاهما روايةٌ صحيحة؛ فكلا المسجدين أُسِّس على التقوى، ولفظ الآية عامٌ يشمل قباء والمسجد النبوي.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.
فكلّ مَنْ أنشأ شيئاً - سواء كان بُنياناً أو شيئاً محسوساً أو غير محسوس -
يقصد به الضرر والإضرار - ولو كان ظاهره الخير لكن باطنه يقصد به سوءاً -
فإنه من الضرر.

وينطبق هذا على ما في عَصْرِنَا ما أنشأه المنافقون من مُنشآت أو مواقع
إلكترونية يُقصد بها الضرر والمضارّة والتفريق لا الصلاح .. فينبغي الابتعاد
عنها وعدم الوقوف عليها والحذر من الاغترار بها؛ هذا هو منهج القرآن.



وقوله - تعالى - في آخر آية مسجد الضرار: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ

يُنْظَهُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٨.

ذكر جمهور أهل التفسير: أن هذه الآية نزلت في (أهل قباء)؛ حيث
كانوا يتطهرون وَيَسْتَنْجُونَ بعد انقضاء الحاجة، ويتطهرون طهارةً كاملةً
ويبقون على وضوئهم طيلة وقتهم، وَيُحِبُّونَ الطهارة والتطهر .. فمدحهم الله.
ولمّا سألهم النبي ﷺ وقال: (على ماذا أثنى الله عليكم يا أهل قباء في

قوله: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يُنْظَهُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ)؟ قالوا: إنا كنا نغتسل
من الجنابة، ونستنجي بعد الحاجة، ونبقى على طهارة دائمة، فقال ﷺ:

(هو ذلك فعليكموه). رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني.

والفرق بين "المتطهر" و"المطهر": أن المتطهر هو الذي يتطهر عند
موجب الطهارة كالوضوء للصلاة؛ من تطهر، وأما "المطهر" فهو الذي يستمر

على التطهر ولو لغير موجب الطهارة؛ فيكون طيلة وقته على طهارة؛ من الاطّهار؛ صيغة تضعيف ومبالغة؛ للدلالة على الطهارة في الصلاة وفي غير الصلاة، وقال الله فيهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.



• قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ

كَانُوا أَوْلِيَ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التوبة: ١١٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن وأهل التفسير في سبب نزول هذه الآية: أن (أبا طالب) - عمّ الرسول ﷺ - لما حضرته الوفاة جاءه رسول الله ﷺ؛ فوجدَ عنده (أبا جهل وعبدالله بن أبيّ بن أمية)، فقال الرسول ﷺ: يا عمّ: (قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، وأحاجّ لك بها عند الله).

فقال أبو جهل وعبدالله بن أبيّ: يا أبا طالب: لا ترغب عن ملة عبدالمطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يُكرّر عليه ويقول له: قل: لا إله إلا الله، وأبو جهل وأبو أمية يُغويانه ويصدّانه ويقولان له: لا ترغب عن ملة عبدالمطلب، فكان آخر شيءٍ كلمهم به أنه على ملة عبدالمطلب، ثم فاضت روحه ومات، فقال النبي ﷺ: (لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله

قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَ

قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التوبة: ١١٣.

ونزل كذلك حينئذٍ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص: ٥٦.

والعبرة في هذه الآيات هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ..

فإنه لا يُستغفر لِمَن مات على الكفر والشرك والنفاق الأكبر؛ ولو

كانوا من الأقرباء.

ثم لننظر إلى (رفيق السوء وجلساء الشر) كيف يُغوون جلسهم ويردونه ويهلكونه في الدنيا والآخرة..؛ كما فعل جلس السوء (أبو جهل وابن أبي بن أمية)، لَمَّا قَعَدَا عِنْدَ عَمِّ الرَّسُولِ - أَبِي طَالِبٍ - يُغْوِيَانِهِ وَيَصِدَّانِهِ عَنِ كَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الَّتِي لَوْ قَالَهَا لَنَجَا مِنَ النَّارِ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ.

وفيه قال النبي ﷺ: (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، ولكنه

أهون أهل النار عذاباً؛ يوضع في أحمص قدميه جمرتان من النار تغلي منهما دماغه). رواه البخاري ومسلم.

انتهت سورة التوبة، ويليهها سورة يونس

سورة يونس

لَمْ أَعثر في كُتب التفسير وكتب أسباب النزول على خصائص لآياتٍ في سورة يونس لها أسبابٌ بأسانيد قوية، ولكن تبقى السورة لها السبب العام للقرآن الكريم؛ الذي هو هداية الناس وإرشادهم ودلالتهم على الله وتوحيده وإخلاص العبادة له، فهي من السور العظيمة التي تُعالج العقيدة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء، ومُجادلة المشركين بالحجج والبراهين.



من سورة هود

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَتَّخِفُوا مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمَ مَا يَسْرُوتُ وَمَا يَعْلَنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ هود: ٥.

روى البخاري في صحيحه والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في أناس إذا قضاوا حاجتهم في الخلاء؛ أو جامعوا نساءهم فإنهم يتحرّجون من نظر الله إليهم عند كشف عوراتهم، فيستغشون ثيابهم ويستتروا بها، جهلاً منهم بعلم الله الذي يستوي عنده السرّ والعلانية، ويعلم حالهم؛ استتروا أم لم يستتروا.

ورواية أخرى صحيحة عند ابن كثير وابن جرير في التفسير وغيرهما:

أن المراد بهذه الآية بعض المشركين والكافرين؛ وأن معنى ﴿يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يلفونها ويصدّون بها تخفياً من الله تعالى، ويكتُمون ما فيها من الشرّ والكفر وبُغض الإسلام، ويُظهِرون ما لا يُبطنون، ويتكلمون بكلامٍ في الظاهر جميل وطيب، ولكنهم في صدورهم يُضمرون ما لا يُظهِرون من الشرّ.

وفي صحيح البخاري: أن معنى قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ قال:

أي: ليستخفوا من الله - تعالى - إن استطاعوا.

وسياق الآية يدل على أن استخفاءهم أي من الله؛ لأنه قال في آخر

الآية: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فالذي يعلم السرّ والعلانية وما بذات

الصدر هو الله ؛ أما الرسول فلا يَعْلَمُ الغيب ، فدل على أن الضمير في قوله :
﴿مَنْهُ﴾ أي : من الله تعالى ، وهذا هو الصواب ، والله أعلم ^(١) .

والخلاصة : أن هذه الآية شاملة لكل مَنْ يريد أن يستخفي أو يأخذ
طَرْفَ ثوبه أو يلفّ صدره لَفًّا وَثْنِيًّا وَصَدًّا حَسِيًّا أو مَعْنَوِيًّا .

صَدًّا حَسِيًّا : بجسده يلفه ويغطي وجهه من الله تعالى ؛ إما أنه في قضاء
حاجته حياءً مِنْ الله أو يظن أن الله لا يراه ولا يطلع عليه إذا عمل المعاصي .

أو صَدًّا مَعْنَوِيًّا : أنهم يُبْطِنُونَ في صدورهم شَرًّا وَكُفْرًا وَيُظْهِرُونَ خِلَافَهُ
بِأَلْسِنَتِهِمْ ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الله لَا يَعْلَمُ مَا فِي صُدُورِهِمْ ، وَجَهْلًا مِنْهُمْ بِاللَّهِ .

والله رَدَّ عَلَيْهِمْ بَأْنَهُمْ عِنْدَمَا يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ أَوْ يُبْطِنُونَ فِيهَا شَرًّا أَوْ
يَسْتَخْفُونَ وَيَسْتَتِرُونَ .. فَإِنَّ الله يَسْتَوِي عِنْدَهُ السِّرُّ وَالْعَلَانِيَّةُ ، وَلَيْسَ عِنْدَ الله
شَيْءٌ مُغَيَّبٌ ، بَلِ اللهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَّةُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي صُدُورِهِمْ سِوَاءَ ثَنُوهَا
وَصَدُّوَابِهَا أَوْ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَسْتَخْفُوا ، فَاللهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ .

وإذا اختلفت الأقوال في أن المراد مَنْ يَسْتَتِرُ عِنْدَ قِضَاءِ الْحَاجَةِ
وَالجِمَاعِ ، أَوْ أَنَّهُ يَتَخْفَى وَيَصْدُ عَنِ الرَّسُولِ حَتَّى لَا يَرَاهُ .. فَإِنَّ الْآيَةَ يَصْلُحُ أَنْ
تَكُونَ شَامِلَةً لِذَلِكَ كُلِّهِ .. فَاللهُ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَهُوَ الْعَلِيمُ ذَاتُ الصُّدُورِ .

(١) لأنه روى بعض المفسرين أن معنى قوله : ﴿لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ﴾ أي : من الرسول إذا رآه بعض
المنافقين والمشركين حتى يتخفوا منه ، ولكن هذا القول ضعيف وبعيد ومردود بسياق الآية ،
ومحدث صحيح البخاري المذكور : أن المراد بالضمير ﴿مَنْهُ﴾ هو الله تعالى . (راجع صحيح
البخاري كتاب التفسير ؛ تفسير سورة هود) ، وقال ابن حجر في الفتح : القول بأن المنافقين
مقصودون بها قولٌ مستبعد ؛ لأن السورة مكيّة والمنافقون في المدينة . اهـ .

وهذا هو المقصود الأساسي من الآية وسبب نزولها، والله أعلم.
والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، وهي زاجرٌ
لكل عبدٍ مؤمن، وهي موعظةٌ قرآنية عظيمة جليلة :

- تُرَبِّي فِينَا تَعْظِيمَ اللَّهِ وَمُرَاقِبَتَهُ وَأَنَّهُ مُطَّلَعٌ عَلَى صُدُورِنَا وَسِرَائِرِنَا
وَأَحْوَالِنَا، فَلَا يَحْجُبُ عَن نَظَرِ اللَّهِ وَلَا عَن سَمْعِهِ وَلَا عَن عِلْمِهِ بِنِيَانٍ وَلَا
لِبَاسٍ وَلَا تَسْتُرٍ، وَأَنهَا لَا تَنْفَعُ كِمَرَاتِ الْمِرَاقِبَةِ وَلَا الْاِحْتِيَاطَاتِ الْبَشَرِيَّةِ إِذَا
ضَعُفَ إِيمَانُ الْعَبْدِ، وَانْعَدَمَ اسْتِشْعَارُهُ لِمَعِيَّةِ اللَّهِ وَسَمِعَهُ وَبَصَرَهُ وَعِلْمَهُ.

- وَتُبَيِّنُ لَنَا صِفَةً مِّنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ خِصَائِصِهِ الَّتِي
اخْتَصَّ بِهَا، وَالَّتِي لَا تَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَهِيَ (عِلْمُ الْغَيْبِ).

فإن علم الغيب لله وحده، لا يعلم الغيب لا نبي مرسل، ولا ملك
مقرب، ولا يعلمه إنس ولا جان، ولا يعرفه لا كاهن ولا ساحر، بل مدعوه
كاذبون مفترتون، ومن ادعى علم الغيب فقد كفر بالله وخرج من الإسلام،
وكذب واحتمل بهتاناً مبيناً؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿النمل: ٦٥﴾

• قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ

يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرَيْنِ﴾ هود: ١١٤.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في رجلٍ أصاب ذنباً ومعصية كبيرة، فأتى إلى النبي ﷺ يسأله: هل له توبة؟، فأنزل الله هذه الآية.

فقال هذا الرجل: يا رسول الله، هل هذا لي خاصة؟ فقال ﷺ: (بل لجميع أمتي كلهم) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

وبدأ بالصلاة؛ لأنها أعظم الحسنات والطاعات وأفضل القربات، فقد قال النبي ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط) رواه مسلم والترمذي وابن حبان.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن كل من عمل معصية أو اقترف إثماً أو قصر في طاعة.. فعليه - بعد التوبة - أن يكثر من الحسنات ومن الطاعات والقربات وأعظمها الصلوات، يكثر منها ومن الأعمال الصالحة، فإن العمل الصالح يحو السيئة والخطيئة، كما قال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) رواه الترمذي وأحمد.

انتهت سورة هود، ومنتقل إلى سورة الرعد^(١).

(١) أما سورة يوسف فلم يذكر أهل الحديث ولا أهل التفسير شيئاً من أسباب النزول فيها.

من سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ الرعد: ١٣.

روى النسائي والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات والواحي والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير بسند صحيح: أن هذه الآية نزلت في رجلٍ طاغيةٍ من طُغاةِ الجاهلية؛ بعث النبي ﷺ إليه صحابياً يدعوهُ إلى الله وإلى الإسلام، فاتاه وقال: إن رسول الله أرسلني إليك لأدعوك إلى الإسلام وإلى توحيد الله وإفراد الله بالعبادة ونبد الشرك..

فقال هذا الطاغية الجاهلي: ومَنْ هو ربِّكَ الذي تدعوني إليه، هل هو من حديدٍ أم نحاسٍ أم ذهبٍ أم فضة؟، قال ذلك مستهزئاً، فعاد هذا المبعوث إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فأرسله النبي ﷺ ثانية إليه فقال له مثل ما قال، فأرسله النبي ﷺ ثالثة إليه فقال نفس ما قال سابقاً مستهزئاً ساخراً، فبينما هو كذلك إذ أرسل الله - تعالى - عليه صاعقةً أحرقتَه وذهبت بقحف رأسه، وأنزل الله فيه قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾.

وقد قال الله - تعالى - قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

فقوله: ﴿خَوْفًا﴾ أي: من الصواعق والتدمير، ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: في

المطر وفي رحمة الله.

انتهت سورة الرعد، ويلها سورة ابراهيم

مِن سُوْرَةِ إِبْرَاهِيْمَ

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ إبراهيم: ٢٧.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي وابن ماجه والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في شأن عذاب القبر، ونعيم القبر، وامتحان القبر، وسؤال منكر ونكير، بعد الدفن، والذي ثبت بالأحاديث المتواترة الصحيحة عن النبي ﷺ أن الميت إذا وُضِعَ في قبره وأهيل عليه التراب فإنها تعود له روحه بأمر الله، ويُحْيِيهِ اللهُ في قبره؛ لِيُسْئَلَ أَسْئَلَةَ الْقَبْرِ: مَنْ رَبِّكَ؟ وما دينك؟ ومَنْ نَبِيِّكَ؟

فإذا كان قبل الموت ثابتاً عليها قولاً واعتقاداً وسلوكاً وإخلاصاً وكان مؤمناً عاملاً بمقتضى الإيمان صادقاً مخلصاً متقرباً إلى الله وموحداً له بالعبادة فإنه يُجِيبُ وَيُثَبِّتُهُ اللهُ، وإلا ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) وحينها لا حول ولا قوة إلا بالله.

نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة^(١).

(١) ومنتقل بعد هذه السورة إلى سورة النحل؛ لأن سورة "الحجر" لم يصح فيها شيء.

مِن سُوْرَةِ النَّحْلِ

• قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً ۖ وَلَا جُرْأَلْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤١.

روى ابن جرير في التفسير - وغيره من المفسرين - والسيوطي في أسباب النزول: أنها نزلت في بعض الصحابة الذين عُذِّبوا في مكة لإسلامهم، وعذبتهم قريش وسامتهم سوء العذاب وحبستهم ومنعتهم من الهجرة مع المسلمين، فصبروا على ما أُوذوا وصبروا على دينهم حتى جعل الله لهم مخرجاً وفرجاً، فتمكنوا من الهرب ومن الهجرة ..

ومنهم أبو جندل بن سهيل، وأبو بصير؛ وقصتهما في الصحيحين. فإن (أبا جندل) رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام في مكة، وعُذِّب وأُوذِي وحُبِس في مكة في حرِّ الشمس وقتاً طويلاً ..، ثم جعل الله له مخرجاً وفرجاً. وأبوه (سهيل بن عمرو) رضي الله عنه - الذي أسلم فيما بعد - هو مبعوث المشركين يُفَاوِضُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية، وكان من بنود الصلح: أن مَنْ خرج من قريش للمسلمين يُرْجَع، وَمَنْ ذهب من المسلمين إلى الكفار فإنه لا يُرْجَع. فكان (أبو جندل) لا يستطيع البقاء في مكة بين المشركين، ولا يستطيع أن يَلْحَقَ بالمسلمين في المدينة؛ لأن بنود الصلح تمنع من ذلك، فهاجَرَ إلى جهة البحر، فتبعه عددٌ من المؤمنين المستضعفين الذين مكَّن الله لهم وجعل لهم مخرجاً، وقصته معروفةٌ في كُتُب السيرة النبوية.

• قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ النحل: ٧٥ - ٧٦.

روى ابن جرير في التفسير والسيوطي والوادعي في أسباب النزول بسندٍ صحيح: أن هذه الآية الأولى نزلت في رجلٍ من قريش، وعبدٍ كان عنده؛ جعلهما الله مثلاً لعدم التساوي بين (الرقيق) الضعيف العاجز و(الأحر) القوي القادر، فالفرق بين الخالق والمخلوق كالفرق بين الرقيق والحرّ.

والمثل الثاني قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾: نزلت في (عثمان بن عفان) رضي الله عنه وعبدٍ رقيق كان عنده، وكان (عثمان) يُنفق عليه ويكفيه المؤونة لكن هذا العبد كان يكره الإسلام ويأباه وينهى عثمان عن المعروف.

والقصد من هاتين الآيتين: هو ضرب المثل لعظمة الله ووحدانيته وقدرته؛ وإظهار الفرق الكبير بين الخالق الرازق القادر؛ والأصنام والأوثان والمعبودات التي لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر!!

لذا كان الشرك ظلماً عظيماً؛ وهو أكبر المحرمات؛ كما أن التوحيد

أعظم الواجبات.

• قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ النحل: ١٠٣.

روى الحاكم وابن جرير في التفسير وغيره من المفسرين والسيوطي في

أسباب النزول:

أن سبب نزول هذه الآية أنه كان هناك عبدٌ رقيقٌ أعجميٌّ في مكة؛

وكان النبي ﷺ يذهب إليه ويدعوه إلى الإسلام ويُعلِّمه القرآن ..

فرأته قريش يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا زوراً: إنه يُعلِّم

الرسولَ القرآنَ، فنزلت هذه الآية تكذبهم وتردُّ باطلهم وافتراءهم،

﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي إن هذا الرقيق أعجمي ليس

بعربي؛ ﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، فهذا حجةٌ كبيرة على

أن كلامهم هراء وافتراء.

• قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ

خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿النحل: ١٢٦﴾.

روى الترمذي وابن حبان والطبراني والحاكم وأحمد في المسند بسند صحيح والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت عدة مرات؛ تحت الرسول ﷺ والمسلمين على العفو، وعدم الزيادة في العقوبة، وتحثهم على الصبر على ما لقوا من أذى المشركين والمنافقين سواء في مكة أو في غزوة بدر أو في أحد، أو يوم فتح مكة، أو غيره من الغزوات.. فرُوي أنها نزلت أولاً بمكة، وأن من المسلمين من توعد بالانتقام مما لقوا من العذاب في مكة؛ فنزلت هذه الآية تحثهم على العدل وعلى العفو والصبر.

ثم نزلت هذه الآية مرةً أخرى في غزوة أحد عندما رأى رسولُ الله (عمه حمزة) قد قتل شهيداً ومُثل به وقطعوا أصابعه وأذنيه، فتوعد ﷺ بالتمثيل بعدد كبيرٍ من المشركين مقابل ما فعلوه في عمه حمزة؛ فنزلت هذه الآية تمنع الزيادة في العقوبة، وتحث على العفو والصبر.

وكذلك في فتح مكة، لما تمكّن المسلمون من كفار قريش في مكة نزلت هذه الآية أيضاً، وهذا ما ذهب إليه جماهير المفسرين، ووردت به الروايات الصحيحة أن هذه الآية نزلت عدة مرات، في كل مرةٍ تحث المسلمين على الموازنة في العقوبة وعلى تغليب جانب العفو والصبر، فتكرر نزولها تذكراً من الله لعباده.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن كل مؤمن مخاطب بها، ومندوب إلى العفو والتسامح والصبر وترك العقوبة؛ أو على الأقل لا يكيل بمكيالين؛ امتثالاً لأمر الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ بلا زيادة؛ لأن الزيادة في العقوبة ظلمٌ وحرامٌ في شريعة الإسلام، والعفو أفضل وأكمل؛ والخطأ في (العفو) خيرٌ من الخطأ في (العقوبة)؛ ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

انتهت سورة النحل، ويلها سورة الإسراء.



مِن سُوْرَةِ الْإِسْرَاءِ

• قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٦ - ٥٧ .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأهل التفسير: أن هاتين الآيتين نزلتا في نفرٍ من (الإنس) كانوا يعبدون نفراً من (الجن)، فأسلمَ النفر الذين من الجن، ودخلوا في الإسلام، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بذلك؛ وبقوا على شركهم..

فأنزل الله هذه الآية تبين لهم شركهم وضلالهم وأنهم على وهم وأن الذين كانوا يتوجهون إليهم - من الجن - لا ينفعونهم ولا يضرّونهم بل هم عبيدٌ ضعافٌ مثلهم؛ لا يملكون ضراً ولا نفعاً لأنفسهم ولا لغيرهم.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلُّ مَنْ دعا أو عبد غير الله فقد أشرك - والعياذ بالله - وكلُّ مَنْ يتوكل بقلبه على غير الله أو اتجه بعبادةٍ إلى غير الله فهو على وهمٍ وضلالٍ وخطر، والواجب على المؤمنين تحقيق التوحيد، وتذليل القلوب لعلام الغيوب.

• قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الإسراء: ٥٩.

روى أحمد والنسائي والحاكم والهيثمي وصحّاه وابن جرير الطبري وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في (كفار قريش) بمكة، عندما سألو النبي ﷺ أن يأتيهم بآية، وأن يُحوّل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحّي عنهم جبال مكة فيجعلها سهولاً فيزرعون فيها..

ف قيل للنبي ﷺ - وقد نزل الوحي عليه -: إن شئت أن تنتظر لهم وإن شئت أن يؤثّوا بالذي طلبوا؛ فإن كفروا أهلِكوا كما أهلِك من قبلهم أمم، فقال رسول الله ﷺ: (بل أستأني وأنتظر بهم)، فأنزل الله هذه الآية.

وقوله: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ هو كمثل يُبين الله فيه أن الأقسام الذين يطلبون آيات من الأنبياء ثم يكفرون أنهم يُهلِكون. فكأنه - عزّ وجلّ - يبيّن لهم أنهم لو طلبوا تحويل جبال مكة ذهباً - كآيات - ثم كفروا.. فإنهم يُهلِكون كما أهلِك (قومُ ثمود)؛ عندما طلبوا (الناقة) فكذبوا بها فأهلِكوا.

• قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ۗ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۗ ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۗ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۗ ﴿٧٦﴾ سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۗ ﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٧ .

روى ابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول بروايات فيها إرسالٍ وُضِعَ لكنها تتقوى ببعضها وبسياق الآيات: أنها نزلت في كفار قريش وبعض المشركين ومن عاونهم من المنافقين؛ لأنهم أرادوا فتنة النبي ﷺ وصدّه عن دعوته إلى توحيد الله وإلى الإسلام؛ فقالوا له: اعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك، واترك سبب آلهتنا حتى تتبع ما عندك، فأنزل الله هذه الآيات ليبين منته وفضله على رسوله وعصمته له منهم؛ كما قال - تعالى - في سورة المائدة: ﴿ وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمَائِدَةِ: ٦٧ ، فَاللَّهُ عَصَمَهُ وَثَبَّتَهُ ، وَلَوْ اسْتَجَاب لَطَلْبَاتِهِمْ قَالَ: ﴿ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴾ سَيَتَّخِذُونَهُ حَمِيمًا وَصَدِيقًا فَتَفْتَنَ بِهِمْ ، فَثَبَّتَهُ اللَّهُ وَقَالَ: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ ﴾ أَي عَلَى الدِّينِ وَالْحَقِّ ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۗ ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ ﴾ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ ﴿ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ وَضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ ، وَلَكِنِ اللَّهُ عَصَمَ رَسُولَهُ وَثَبَّتَهُ .

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ فنزلت في (مشركي قريش) ومن عاونهم، وقيل: إنها نزلت في (منافقي ويهود المدينة) - على قول أن الآية مدنية..

فقالوا: اخرج من الأرض - أرض مكة - إلى أرض الشام، فهي أرض المحشر وأرض الأنبياء، فثبت الله رسوله منهم، وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي يضايقوك ويخرجوك منها، ولو أخرجوك ما لبثوا بعدك فيها إلا قليلاً فيهلكون. لماذا؟ لأنها سنة الله في الأقوام المكذبين الذين يخرجون الأنبياء من أرضهم..؛ فإنهم لا يبقون بعدهم إلا قليلاً ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

والعبرة في هذه الآيات هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ففيها التذكير للمؤمن أن يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله، فكما أن الله - تعالى - ثبت النبي ﷺ وحفظه وعصمه بالوحي وبالعصمة التي اختصه بها.. فكذلك أنزل الله علينا نحن تثبتاً وحفظاً من أساليب الشياطين ومكرهم..

وحفظنا وعصمتنا هي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن اتخذها منهجاً وتمسك بها واتبع القرآن والسنة واعتصم بهما فإن الله يثبتته فلا يركن إلى الفاسقين، ولا إلى أعداء الدين، ولا يقع ضحية للشهوات والشبهات والفتن، ولا لأساليبهم الخادعة والماكرة على مر الزمان.

• قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في اليهود، عندما سألوا النبي ﷺ عن (الروح) عناداً وتشكيكاً؛ فمكث ﷺ قليلاً؛ ورفع بصره إلى السماء.

قال الراوي عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: فعرفنا أنه ينتظر الوحي، ونزلت عليه هذه الآية تُجيب ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال بعض أهل التفسير: فلما سمع اليهود قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: نحن لم نؤت من العلم قليلاً؛ وإنما أوتينا كثيراً في التوراة، فقد أوتينا التوراة وفيها حكم الله، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٠٩؛ فكانت هذه الآية ردّاً عليهم وبيانا أن العلم الكثير لا يُحيط به اليهود ولا غيرهم، ولا يحيط به إلا الله الواسع الذي وسع كل شيء علماً.

وهذا الخبر في المدينة، وسورة الكهف كلها مكية.

ويجاب عن هذا: بأنه لا مانع من تعدد أسباب النزول وتعدد النزول أيضاً، فقد تنزل الآية مرّةً أو مرتين أو ثلاث، فربما هذه الآية نزلت بمكة ثم نزلت أيضاً في المدينة، والله تعالى أعلم.

• قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾

الإسراء: ١١٠.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي بأصحابه في مكة، فإذا رَفَعَ صوته وسمع المشركون القرآن سَبَّوا القرآنَ وَمَنْ أَنزَلَهُ، وإذا خفضه لم يسمع الذين مَنْ حوله، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبُّون القرآنَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي الوسط وصوتٌ مسموعٌ معتدل.

وفي الصحيحين: أن المقصود بالصلاة هو (الدعاء)، لكن يُجمَع بينها أن المقصود بالدعاء في الرواية الثانية هو (الدعاء داخل الصلاة)، أو أنها الصلاة، فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء، وهي تحتل هذا وهذا كله. والعبارة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإذا كان في إظهار الخير والقرآن مَضْرَبَةً؛ أو يترتب على الإظهار مَفْسُودَةٌ؛ إما من إزعاج وإما من تعرُّض القرآن للامتهان أو السبِّ من ضالٍّ أو مُنحرفٍ فلا مانع من الخفض، والسبيل الوسط هو في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ

وَرَدَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ - مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ - رَوَايَاتٌ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ، لَكِنْ لَمْ أَعثرْ عَلَى سِنْدٍ قَوِيٍّ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَهِيَ قَلِيلَةٌ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَأَىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الكهف: ٢٤

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ كَثِيرٍ فِي التَّفْسِيرِ وَالسِّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: أَنَّ كُفَّارَ قَرِيْشٍ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ بِإِعْازٍ مِنَ الْيَهُودِ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَعَنْ الرُّوحِ، وَعَنْ قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (سَأخْبِرْكُمْ غَدًا)، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَتَأَخَّرَ الْوَحْيُ عَنْهُ أَيَّامًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعَلِّقِ الْأَمْرَ الْمُسْتَقْبَلِيَّ الْغَيْبِيَّ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَأَىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكَر رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَيَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ أَوْ عَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَى شَيْءٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَنْ يَقُولَ: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، فَهَذَا الْإِسْتِنَاءُ وَاجِبٌ، وَهُوَ مِنْ قُوَّةِ الْعَقِيدَةِ وَكَمَالِ التَّوْحِيدِ.

إِلَّا فِي (الدَّعَاءِ)؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَجْهَلِهِمْ يُعَلِّقُ الدَّعَاءَ بِالمَشِيئَةِ أَوْ يُتْبِعُهُ بِالمَشِيئَةِ؛ فَقَوْلٌ مَثَلًا: وَفَقَكَ اللَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهَذَا لَا يَنْبَغِي وَقَدْ حَذَرَ وَنَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالَ: (لَا تَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شئتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شئتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ؛ وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

مِن سُوْرَةِ مَرْيَمَ

• قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مريم: ٦٤.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد: أن هذه الآية نزلت عندما قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا..﴾.

وهذا السؤال من النبي ﷺ هو اشتياق إلى كلام الله وإلى الوحي وإلى ملاقاته جبريل عليه السلام.

وفي ذلك الإشارة إلى وجوب محبة الله وكلامه ودينه وملائكته، وهو من صلب عقيدة المؤمن.

• قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ مريم: ٧٧.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في (العاص بن وائل السهمي)، وهو من أشد كفار قريش، عندما أتاه "خباب بن الأرت" عليه السلام يطلبه ديناً عنده ويتقاضاه عليه، فقال العاص بن وائل: لا أعطيك مالك حتى تكفر بمحمد، فقال خباب عليه السلام: لا أكفر حتى يميتك الله ثم يبعثك، فقال العاص: دعني حتى أموت وأبعث فسأوتني مالاً وولداً فأقاضيك، فنزلت هذه الآية.

ومن هذه القصة نستفيد الحذر من خطر الاستهزاء بالحقائق، ومن التكبر على اليقينيات مع العلم بها، وأن ضعف الإيمان باليوم والآخر من أسوأ أحوال العبد، فإذا تكبر على أوامر الله فإنه ينسى اليوم الآخر ويقع في طول الأمل وفي حب الدنيا، ويقع في المعاصي حتى يأتيه الموت، فيكون من الهالكين.

وقد مَقَّت القرآنُ لذين يَنسون الآخرة ويتنكبون عنها ولا يؤمنون بها الإيمان الذي يَحث على الخوف من الله والعمل بما أمر الله والبعد عما حَرَّمَ الله؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ﴾ المؤمنون: ٧٤.

مِن سُوْرَةِ طه

• قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ،

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤.

روى السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وبعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن فإنه يتعجل بقراءته مع جبريل، ويتعجل بحفظه ويكرره ويردده، حتى يحفظ ما أتى به من القرآن، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وهذا التعجل منه ﷺ إنما حُبُّ للقرآن، وحرصٌ على ضبطه وإتقانه وتلقيه قبل أن يتفلسف..

وقد قال ﷺ: (تعاهدوا القرآن؛ فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ تفلسفاً من الإبل في عقلها) رواه البخاري ومسلم.

وللفائدة: راجع أسباب نزول سورة "القيامة" عند قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ

بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ، وَقُرْآنُهُ، (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنُهُ، (١٨) ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا

بَيَانُهُ، ﴿القيامة: ١٦ - ١٩﴾.

مِن سُوْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

الأنبياء: ١٠١.

روى الحاكم وصححه والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه والسيوطي في لباب النقول وأهل التفسير: أن الله لَمَّا تَوَعَّدَ الكفار والمشركين ومعبوداتهم بالنار وذمَّ آلهتهم التي يَعْبُدُونَ؛ وذلك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ الأنبياء: ٩٨، أي حطب جهنم، فاستغلَّ بعض المشركين الموقف، وقالوا: يا محمد، إن النصراني يَعْبُدُونَ (عيسى) وهو عبدٌ صالح، واليهود يَعْبُدُونَ (عُزَيْرًا) وهو عبدٌ صالح، ومن المشركين مَنْ يَعْبُدُ الملائكة والملائكة عِبَادًا صَالِحُونَ، فالكفار يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ فِي النَّارِ مع مَنْ يَعْبُدُونَهُمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، أي مُبْعَدُونَ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ، كَعِيسَى وَعُزَيْرِ وَالْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، فَهُمْ مُبْعَدُونَ عَنِ النَّارِ..

وهو رَدٌّ عَلَى حُجْجِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، حَتَّى إِنْ اللهُ ذَمَّهُمْ وَذَمَّ حُجْجَهُم الْوَاهِيَةَ وَجَدَّالَهُمْ، وَنَزَلَتْ أَيْضًا الْآيَةُ مِنْ (سُورَةِ الزَّخْرَفِ) تَذَمُّهُمْ وَتَذَمُّ جَدَّالَهُمُ الْعَقِيمِ وَنَقَاشَهُمُ السَّقِيمِ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الزخرف: ٥٧.

من سورة الحج

● قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

الحج: ١١.

روى البخاري في صحيحه والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في بعض من قدموا المدينة ودخلوا في الإسلام، فكان بعضهم إذا ولدت امرأته غلاماً وتنجت خيله وإبله وكثر ماله قال: هذا دين صالح، وإذا لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين غير صالح، وكره الدين، وكره الدخول في الإسلام، فذمهم الله وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ...﴾.

وروى السيوطي وغيره: أن يهودياً أسلم؛ ثم فقد بصره وبعض ماله، فتشاءم من الإسلام، فكان ممن شملتهم هذه الآية، يعبد الله على حرف.. والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكل من يتشاءم بالدين ولم يرضَ به ديناً، ونسب إليه سوء.. فإنه يدخل في هذه الآية.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ لفظٌ عمومٍ يشمل كل من اعتقد عقيدة هؤلاء الذين تشاءموا بالإسلام، ومعنى الحرف أي الوجه الواحد والحافة، فكأنه يعبد الله في الأمن والرخاء والخير والمال والولد، فإذا فقدها فكأنه لا يعبد الله ولا يعرف الله، نسأل الله العفو والعافية.

• قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الحج: ٥٢.

روى البخاري في صحيحه والسيوطي في أسباب النزول وجمهور المفسرين: أن هذه الآية نزلت في مشركي قريش بمكة، عندما كان النبي ﷺ يتلو عليهم سورة النجم، وأتى عند قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿ النجم: ٢٠؛ اللات والعزى أصنام ومعبودات كفار قريش، فورد في الروايات: أن كفار قريش نَعَسُوا والنبي ﷺ يتلو الآيات؛ فلما سجد ﷺ سَجَدَ النجم سجدوا معه كلهم، ثم عَلِمُوا أنهم قد زلوا عندما سجدوا، وأرادوا أن يُبَرِّوُوا؛ فلفَّقُوا على النبي ﷺ قولاً باطلاً؛ قالوا: إنه قال عن اللات والعزى: "تلك الغرائيق العُلا وإن شفاعتهن لُترتجى.."

ويقال في روايةٍ أخرى: إن الشيطان هو الذي ألقى هذه الكلمات.. ففَرِحَتْ قريش واستبشرت بها وأشاعتها في مكة، وقالوا: إن محمداً مدح اللات والعزى، وإنه رَجَعَ عن دينه.

وانتشرت الشائعة حتى إن (المهاجرين) الذين كانوا في الحبشة للهجرة الأولى سَمِعُوا هذه الشائعة وتأثروا بها فَرَجَعَ عددٌ منهم، وبلغهم أن قريشاً قد أَسَلَمَتْ، ولما وصلوا مكة إذا بالشائعة كذب، فوقع منهم ما وقع من فتنةٍ في قريش، وفرَّ مَنْ فرَّ، ورجع إلى الحبشة مَنْ رَجَعَ، وأنزل الله هذه الآيات تُكْذِبُ قريشاً، وتُبطل كلامهم وتُبطل ما ألقى الشيطان مع القرآن مما فَرِحَتْ

به قريش ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾
يعني تكلم بكلام الله أو قرأ وتلا القرآن - فالتمّني في لغة العرب التلاوة -
﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيْ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ألقى الشيطان كلمات كذبا في حديثه وفي كلامه ؛
فيسمعه الناس ، ويفتن به المفتونون ، ثم ينسخ الله ويبطل ﴿ مَا يُلْقَى
الشَّيْطَانُ ﴾ ، ويبقى القرآن الكريم .

والفائدة من ذلك : الحذر من الشيطان الرجيم ومن الشائعات ،
ووجوب الثبت والحذر من أساليب المشركين ، وحججهم الواهية ، وأنه - في
آخر المطاف ونهاية الأمر - لا يصحّ إلا الصحيح .



مِن سُوْرَةِ الْمُؤْمِنُوْنَ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾

المؤمنون: ٧٦.

روى النسائي والحاكم وابن حبان ووالواحيدي والسيوطي في أسباب النزول وجمهور المفسرين بإسنادٍ صحيح: أن هذه الآية نزلت في (كفار قريش) عندما تمادوا في الطغيان والشرك والتكذيب؛ فأصابتهم المجاعة الشديدة التي أنهكتهم بسبب طغيانهم؛ حيث كان النبي ﷺ يدعو للمستضعفين: (اللهم أنج فلاناً، اللهم أنج فلاناً، اللهم أنج المستضعفين من المسلمين، اللهم اشدّد وطأتك على مُضْر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف).

وأتى (أبو سفيان) - سيد قريش - إلى النبي ﷺ، وقال: يا محمد:

نَشُدُّكَ بِاللَّهِ وَالرَّحْمِ، فَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلْهَزَ - أَي الْجُلُودَ وَالْدَمَ - مِنْ شِدَّةِ الْمَجَاعَةِ.

ومع ذلك لم يتوبوا؛ ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾.

والعبرة في هذه الآية هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن الناس إذا تمادوا في المعاصي والآثام فقد يؤخذون بالعذاب وضيق العيش وبنكد الحياة، فلا ينزل البلاء إلا بذنب، ولا يُرفع إلا بتوبة، فينبغي على المؤمنين أن يستكينوا لله، ويتضرعوا إلى الله عند نزول البلاء والمصائب؛ لأن التمادي في الكبر والإعراض والمعاصي - رغم نزول البلاء - هو من أخلاق المشركين وصفات المنافقين. نسأل الله العفو والعافية.

من سورة النور

• قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ

مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: ٣.

روى الترمذي والنسائي وأبو داود والحاكم بإسنادٍ صحيح والسيوطي في أسباب النزول وبعض المفسرين: أن هذه الآية نزلت في أحد الصحابة - يقال له: مرثد رضي الله عنه - أراد أن يتزوج امرأةً بغياً تُسافِح، وتعرضت له ليلةً بمكة وقالت له: ألا تبيتَ عندنا الليلة؟ قال: فاستلَّ نفسه منها، ثم سلَّك في الجبال واختبأ في غار؛ فراراً من الفتنة، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال له: يا رسول الله، هل أنكح فلانة؟

فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن إجابته؛ فنزلت الآية ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا مرثد لا تنكحها) رواه أصحاب السنن وحسنه الألباني.

والعبرة في الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالمؤمن يبتعد عن الشبهات، ويعف نفسه عن الحرام، وعن مواطن الردى في كل زمان أو مكان.

• قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخُمُسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُاَ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخُمُسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ النور: ٦ - ٩.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأصحاب التفسير: أن هذه الآية نزلت في (هلال بن أمية) رضي الله عنه عندما قذف امرأته، وأتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، وجدت رجلاً مع امرأتي، فقال ﷺ: (البينة أو حدٌ في ظهرك)؛ أي تأتي ببينة أربع شهود سواك؛ يشهدون أنهم رأوا وسمعوا، أو حدّ القذف في ظهرك ثمانين جلدة. فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا رجلاً مع امرأته أيذهب يكتمس البينة؟ فما زاد رسول الله إلا أن يقول له: (البينة أو حدٌ في ظهرك)، فقال هلال: والذي بعثك بالحقّ إني لصادق ولتُنزلن الله ما يُبرئ ظهري من الحدّ، فنزل جبريل بقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ... ﴾ الخ الآيات.

وفي الصحيحين أيضاً والسُنن: أنه في نفس الوقت أو قريب منه جاء الصحابي الجليل (عُويمر بن عجلان) رضي الله عنه إلى النبي ﷺ أيضاً يشتكي ويقذف زوجته وأنه رأى معها رجلاً، فقال له النبي ﷺ: (قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً)؛ أي الآيات السابقة.

واختلف أهل العلم هل هذه الآية نزلت في قذف (هلال بن أمية)

لزوجته؟ أم في قذف (عويمر العجلاني) لزوجته؟

وجَمَعَ أهل العلم بين القولين: بأنها نزلت في الموقفين نفسيهما،

فنزلت في "هلال" وفي "عويمر".

وذلك لأنهما أتيا في نفس الوقت أو في وقت متقارب ورميا زوجتيهما

برجلٍ واحد؛ هو (شريك بن سحماء)، فنزلت الآية أكثر من مرة.

فلا مانع من تعدد النزول عند اختلاف الأسباب، ولذلك قال النبي

ﷺ لعويمر بن عجلان: (قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا)، وكان ﷺ

يقصد الآية التي نزلت في "هلال بن أمية" وزوجته، فإنها أيضاً لها نفس

الموقف لعويمر ولها نفس الحكم.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكل من اتهم

زوجته بالفاحشة فما عليه إلا أن يلاعنها بالطريقة المعروفة عند الفقهاء؛ بأن

يشهد أربع شهادات بالله أنها فعلت الفاحشة، والخامسة أن لعنة الله عليه إن

كان من الكاذبين، ثم يقام عليها الحد، إلا إذا أرادت أن تدرأ عن نفسها الحد

وتُدافع عن نفسها فإنها تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة

أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

فعلى ذلك يُفرّق القاضي بينهما، ويحرمان على بعضهما حرمةً أبديةً،

ويُدعى الولد إلى أمه، وتطلق المقدوفة من زوجها الذي قذفها.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُوتِيَتْكُ مِنْهُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَتَوَلَّى فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِالْيَمِينِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَتَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ أَلَيْتِ وَاللَّهِ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿النور: ١١ - ١٨﴾.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن وأصحاب التفسير: أن هذه الآيات تُسمى (آيات الإفك)، وأنها نزلت تبرئ عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - مما رماها به المنافقون من الإفك والبهتان.

وقصتها: أن النبي ﷺ كان إذا خرج في غزوة أو في سفر فإنه يقرع بين نسائه فخرجت (عائشة) معه في غزوة، ولما قفلوا راجعين إلى المدينة وقاربوا المدينة حطَّ الجيش في مكان.

تقول عائشة: فذهبتُ في حاجتي، فلما رجعتُ فإذا الجيش قد ذهب، ولا يعلمون أنني في هودجي، فحملوا الهدج ولستُ فيه ووضعه على البعير يظنون أنني فيه، ثم ذهبوا، فلما رجعتُ لم أجد غير أن أجلس في مكاني الذي غادر منه الجيش، وإذا (بصفوان بن المعطل) ﷺ لاحقٌ بالجيش، قالت:

فلما رأيته - وكنْتُ متحجِّبةً - عَرَفَنِي ؛ لأنه كان يعرفني قبل أن يُفْرَضَ الحِجَابُ ، فوالله ما زاد غير أن قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم أركبني على بعيره ، وساقني حتى أَلْحَقَنِي بالجيش .

فلما عَلِمَ المنافقون بهذا الأمر استغلَّوا ذلك في الطعن في عائشة وفي عرض رسول الله ﷺ .

وكان الذي تولى هذا الإفك وهذا الكذب وهذا الافتراء هو رأس المنافقين في المدينة : (عبدالله ابن أبي بن سلول) .

وتأثر بالمنافقين ثلاثة من الصحابة في رمي عائشة ، وهم : (حمنة بنت جحش ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت) .

فمكث الوحي شهراً كاملاً لم ينزل شيء ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وكانت عائشة تبكي في الليل والنهار ؛ وإذا بالآيات تنزل من السماء ببراءتها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ﴾

وعاتب الله فيها المؤمنين أنهم لم يتثبتوا عند سماع الشائعات ، وكان ينبغي أن يُحسنوا الظن ببعضهم وبأبّ المؤمنين رضي الله عنها ، وأن يغلب حُسن الظن على سوء الظن حتى تأتي البيّنات الواضحات ، وأن لا يتأثروا بالشائعات ولا ينشروها في المجتمع حتى يتثبتوا ..

وشُرِعَ في هذه القصة أدبٌ عظيم للمؤمنين وفيها عبر وبركة ، وكما قال أحد الصحابة : هذه من بركاتكم يا آل أبي بكر . يقصد أن (عائشة) قد سقط

عِقْدَهَا فِي (حَادِثَةِ الْإِفْكِ) فَكَانَ بَرَكَةً بِتَبَرُّثِهَا وَتَهْذِيبِ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَفِي سَفَرٍ آخَرَ سَقَطَ عِقْدُهَا؛ فَحَطَّ الْجَيْشُ فِي مَكَانٍ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، وَمَكَثُوا فِي مَكَانِهِمْ يَبْحَثُونَ عَنِ الْعِقْدِ الَّذِي سَقَطَ، وَحَانَتْ الصَّلَاةُ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مَاءٌ فَنَزَلَتْ آيَةُ (التَّيْمَمِ): ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ المائدة: ٦.

وقد سبق ذكر ذلك في سورة المائدة، وهو في الصحيحين.

• قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٢٢.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأصحاب السنن والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما منع (مسطح بن أثاثة) رضي الله عنه من النفقة، وكان يُنفق عليه قبل أن يقذف عائشة - رضي الله عنها - مع من قذفها في حادثة الإفك؛ فقطع أبو بكر عليه النفقة، وقال: لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قاله في عائشة. فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا يَأْتِلُ﴾ أي: لا يحلف ﴿أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ثم أعاد إلى (مسطح) ما كان يُعطيه من النفقة.

• قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٣٣.

روى مسلم في صحيحه وأبو داود والحاكم وأهل التفسير: أن هذه الآية نزلت عندما كان (عبدالله بن أبي بن سلول) - المنافق المعروف - له جارية وكان يقول لها: اذهبي فأبغئها شيئاً، أي: اعملي الفاحشة لتكسبين لنا مالاً، وقيل: إن له أكثر من جارية يأمرهن بذلك، فاشتكين إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله هذه الآية تُحرّم هذا العمل المشين وتنهى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: ٥٥.

روى الطبراني والحاكم والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير بسندٍ صحيح: أن هذه الآية نزلت عندما قدِم الرسول والصحابة المدينة واستقروا بها وآواهم الأنصار؛ فرماهم العرب عن قوس واحدة، وانقلب عليهم الكفار والمشركون والمنافقون؛ فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يُصبحون إلا به، فقال بعضهم لبعض - مُستبعدون للأمن -: أترون أنا سوف نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟! فأنزل الله قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾. وهذا وعدٌ من الله، وقد رَبط الاستخلاف والاستقرار والأمن بالإيمان، كما قال في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكلما آمن الناس وقَّووا إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأقاموا شريعة الله، وقاموا بما أوجب الله وابتعدوا عما حرم الله.. فإن وعد الله لهم أنه يستخلفهم في الأرض، ويبدل خوفهم أمناً، ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بالنعمة ولم يشكر الله عليها ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

• قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ

حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ عَمَمَتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ

مَفَاحِشُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا

فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴿النور ٦١﴾

روى الحاكم والبزار والسيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وأهل التفسير : أن هذه الآية نزلت في بعض أصحاب النبي ﷺ إذ كان يتحرّج العميان والمرضى أن يأكلوا في غير بيوتهم ؛ فأنزل الله هذه الآية.

كذلك كان الصحابة إذا خرجوا مع النبي ﷺ في نفيٍ أو غزوةٍ فإنهم يدفعون مفاتيحهم إلى ضمّانهم - أي الذين يضمنون ويحفظون بيوتهم بعدهم - ويقولون لهم إذا أعطوهم مفاتيح بيوتهم : كلوا منها ما أحببتم.

فكان هؤلاء (الضمّنى) الذين أخذوا المفاتيح يتحرّجون من الأكل من هذه البيوت التي هم قائمون عليها ؛ ويقولون : نخشى أن نأكل شيئاً من غير طيب نفسٍ منهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصةً لهم..

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالإنسان له أن يأكل بالمعروف من البيوت التي هو قائمٌ على حفظها والعناية بها ، بشرطٍ أن يكون بالمعروف وبالرفق ، وعند الحاجة.

• قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٣﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣ .

روى البيهقي في دلائل النبوة والسيوطي في لباب النقول وأهل التفسير: أن هذه الآيات نزلت تأييداً لأدب المؤمنين مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق (الأحزاب) وفي غيرها من الغزوات، وفي مجامع المسلمين.. فإن المؤمنين إذا كان الواحد منهم إذا كان له حاجة، أو أراد اللحاق بأهله في شأنٍ من الشؤون ثم يعود فإنه يستأذن النبي ﷺ، ولا يذهبوا حتى يستأذِنوه، فأشاد الله بهذا الخُلُق الطَّيِّب، وعرض بالمنافقين الذين يتسلَّلون ولا يستأذِنون، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَادًا ﴾. واللواذ: هو التخفي، أي: يَخْرُجُ خُفِيَةً وَمِيلاً بِجَانِبِهِ، ويلوذ بمن أمامه حتى يَخْرُجَ وَيَسْتَلَّ خُفِيَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ من غير استئذان.

وقوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ ﴾ "قد" للتحقيق وللتأكيد، أي: "إن الله"؛ لأن (قد) إذا أتت من الخالق - سبحانه - فهي للتأكيد والتحقيق، وإذا أتت من المخلوق فهي للشك والظن؛ وَعَدَمَ اليقين، لكنها من الله تحقيق، أي: إن الله

يَعْلَمُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ لِيُؤَادًا وَخُفْيَةً وَيَذْهَبُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ،
وَسَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ.

والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فالأدب الذي نأخذه منها هو
أن المؤمن إذا كان في عملٍ أو مع رئيسه أو مُديره أو في أمرٍ مهمٍ من أمور
المسلمين .. فإنه ينبغي أن لا يغادر حتى يستأذن.

وقوله - تعالى - في صدر الآية: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ

بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ نزل - كما روى أبو نعيم في دلائل النبوة والسيوطي في
أسباب النزول وبعض أهل التفسير - في البعض من الصحابة - وأيضاً من
غيرهم من الأعراب - كانوا إذا نادوا النبي ﷺ قالوا: يا محمد، أو يا أبا
القاسم، فأنزل الله هذه الآية تنهى أن يُنادى الرسول باسمه، ولكن
يُنَادَى: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وهذا من كمال الأدب معه ﷺ.



مِن سُوْرَةِ الْفِرْقَانِ

• قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا
الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ الفرقان: ٢٠

روى الواحدي والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير وغيرهما من أئمة التفسير: أن سبب نزول هذه الآية هو أن المشركين عَيَّرُوا النَّبِيَّ ﷺ بالفقر، وأنه بَشَرٌ كَالْبَشَرِ وَكَالنَّاسِ، وأنه يذهب ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ لفقره..

فليُسلِّي اللهُ رسوله عن استهزائهم أنزل هذه الآية، ويبيِّن فيها أن المرسلين من قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق؛ لا عيب في ذلك. وفيها وَجْهٌ آخَرٌ: أن قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ﴾ كناية عن أن الأنبياء والرسل - ومنهم محمد - بَشَرٌ كَالْبَشَرِ؛ يأكلون مما يأكل الناس ويشربون مما يشرب منه الناس.

وفيها كناية عن أن الأنبياء يتخلَّون ويدخلون الخلاء؛ كالناس، كما قال - تعالى - عن عيسى وأمه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۗ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ المائدة: ٧٥، وتقدير الكلام: يأكلون الطعام ويذهبون إلى الخلاء؛ فهم بَشَرٌ لَهُمْ طَبَائِعُ الْبَشَرِ، إلا أن الله شَرَّفَهُم بِالنَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

وقوله: ﴿وَيَمْسُوكَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي لكسب الأرزاق، فالفقر ليس عيباً، ولا يُعَيِّرُ به الإنسان، بل هو خير للإنسان من الطغيان.
وكما قيل:

النفس تَجْزَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً وَالْفَقْرُ خَيْرٌ لَهَا مِنْ غِنِيٍّ يُطْغِيهَا

أما من قال: إن الرسول ﷺ يذهب للأسواق للدعوة والنصيحة فيها فهذا قولٌ بعيدٌ ضعيفٌ؛ ليس عليه دليل، ولم يقل به أحدٌ؛ وهو مُخَالِفٌ لِمَا رُوِيَ عَنْ أئِمَّةِ التفسير.

• قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ

سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ الفرقان: ٢٧ - ٢٩.

روى السيوطي في تفسيره وفي أسباب النزول وأبو نعيم في دلائل النبوة والإمام الطبري في تفسيره: أن هذه الآية نزلت في (عُقبة بن أبي معيط) وفي (أبي بن خلف) - وهما من أشرس كفار قريش وأكثرهم عداوة للإسلام والمسلمين..

وذكر أهل التفسير: أن المقصود بـ(الظالم) في هذه الآية هو (عُقبة بن أبي معيط) لأنه ظلم نفسه بالشرك وبالكفر ومعصية الرسول وبرفقة السوء الذي كان يُصاحبهم فيُغوونَه عن الحق؛ فهلك في الدنيا والآخرة.

ورفيقه السوء هو (أبي بن خلف)؛ حيث كان يصدّه عن الإسلام وعن

الرسول وعن سماع القرآن، وكان يستهزئ به ويسخر منه..

ولما سمع أن "عُقبة" يريد مُجالسة رسول الله قال له: أصبوت عن

دينك واتبع دين محمد؟ فتأثر "عُقبة" بكلامه فترك الإسلام حتى مات على الكفر؛ حيث قُتل مشركاً في (غزوة بدر).

وأما (أبي بن خلف) فإنه قُتل في غزوة أحد، قتله النبي ﷺ، ففيهما

نزلت هذه الآية ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ من الندم والحسرة ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي

اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي﴾ يدعو على نفسه بالويل والهلاك ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ

فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي الذي أضله وأغواه.

وفي الآية أتى بلفظ (الظالم)، و(فلان) ولم يُصرِّح بالأسماء ؛ لأنَّ العبرة هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

فكُلُّ مَنْ أَوْعَعَ نَفْسَهُ فِي الشَّرْكِ أَوْ الْكُفْرِ أَوْ النِّفَاقِ أَوْ مُجَالَسَةِ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ يَصِدُّونَ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّهُ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَكُلُّ مَنْ اتَّخَذَ صَدِيقًا سَوِيًّا وَجَالَسَ الْأَشْرَارَ فَإِنَّهُ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ؛ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ..
خاصة في عصرنا هذا ..

فإنَّ جُلُوسَ الشَّرِّ وَالسُّوءِ قَدْ كَثُرُوا ، وَتَعَدَّوْا الْإِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْإِنْسِ ؛ وَهِيَ مُجَالَسَةُ (الْأَجْهَازَةِ وَالتَّقْنِيَّاتِ وَالْجَوَّالَاتِ وَبِرَامِجِ التَّوَاصُلِ الْحَدِيثَةِ).
فهذه جليس سوءٍ وشرٍّ؛ عند الإفراط فيها أو استخدامها استخداماً سيئاً؛ فتجرُّه إلى الشرِّ والفتن وإلى ما تحمّل وتَنقَلُ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَتَقَالِيدِهِمْ..؛ وَمَا فِيهَا مِنْ مُجَالَسَةِ وَمُتَابَعَةِ الْمَشَاهِيرِ وَالْأَشْرَارِ.. ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

قال ﷺ : (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ، فَحَامِلِ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً) البخاري ومسلم.
وصدق القائل :

عن المرء لا تسكن وسل عن قرينه
فكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي
إذا كنت في قوم فاصحب خيارهم
ولا تصحب الردي فتددي مع الردي

• قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخَلَّدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ الفرقان: ٦٨ - ٧١.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأبو داود والترمذي والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير: أن هذه الآيات نزلت عندما سئل النبي ﷺ: أيّ الذنب عند الله أكبر؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)، قيل: ثم أيّ؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)، قيل: ثم أيّ؟ قال: (أن تزني بحليلة جارك). فنزلت هذه الآيات المذكورة تصديقاً للنبي ﷺ.

ولمّا سَمِعَ البعض من أهل الشرك والكفر هذه الآية قالوا: إننا في جاهليتنا قد قتلنا وزيننا وأتيننا الفواحش وأشركنا ودعونا مع الله إلهاً آخر وأكثرنا من ذلك .. فهل لنا من مغفرة؟ فأنزل الله قوله الآية التي بعدها: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

كذلك نزل قوله - تعالى - في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣ والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها، فإن باب التوبة مفتوح، ويحرم على المؤمن أن يقنط من رحمة الله، ولكن يوازن بين الخوف والرجاء،

وَيَطْمَعُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا عَمَلَ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْكَبَائِرِ وَالْكَفْرِ وَالنَّفَاقِ وَالْجِرَائِمِ ثُمَّ تَابَ مِنْهَا تَوْبَةً نَصُوحاً فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ وَيُبَدِّلُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ.

فَبَابِ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ عَاصٍ؛ حَتَّى تَقُومَ قِيَامَتُهُ الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى.

وَلَكِن (التَّوْبَةَ) لَا تَصَحُّ إِلَّا بِشُرُوطٍ؛ مِنْهَا:

- أَنْ يَتْرَكَ الذَّنْبَ وَيُقْلِعَ عَنْهُ.

- وَأَنْ يَنْدِمَ عَلَى فِعْلِهِ.

- وَأَنْ يَعْزِمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ.

- وَإِذَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ فِي حَقِّوْقِ النَّاسِ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِمْ أَوْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

- وَأَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُ خَالِصَةً لِرُوحِ اللَّهِ، لَا لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّوْبَةِ.

- وَأَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُ فِي وَقْتِهَا؛ قَبْلَ غَرْغَرَةِ الرُّوحِ وَقَبْلَ حُصُولِ الْأَجْلِ؛

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا

حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء: ١٨.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَأَنْ

يَغْفِرَ مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الذَّنُوبِ وَالتَّفْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ.

مِن سُوْرَةِ الشُّعْرَاءِ

• قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

يَهيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦.

روى الحاكم وابن جرير في التفسير والسيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وغيرهم: أنه تهاجى رجُلان في عهد رسول الله ﷺ؛ أحدهما من الأنصار، والآخر من غير الأنصار، وكلُّ منهما هجَا الآخر، وتكلّم فيه بشعر، وكان مع كل واحدٍ منهما فريقٌ وغواةٌ من قومه سفهاء، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ولمّا نزلت هذه الآيات جاء (عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت) إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآيات، والله يعلم أننا

شُعراء، ونخشى أن نكون قد هلكنا، فأنزل الله بعدها قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧.

ففي هذه الآية لَمَّا ذمَّ اللهُ الشُّعْرَاءَ والشُّعْرَاءَ.. استثنى منهم المؤمنين الذاكِرِينَ؛ الذين يقولون الشعر فقط للحقِّ وبالحقِّ ونصرة الحقِّ، وكان سَلِيقةً وَسَجِيَّةً صُدْفَةً مِنْ غير تكلفٍ؛ بعيداً عن العصبية والمفاخرات..

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ففيها تنبيه للشُّعراء - في كلِّ زمان ومكان - الذين منهم مَنْ يتكَلَّف الشُّعْر، ومنهم مَنْ أشغل حياته ووقته وليله ونهاره بالشُّعْر ونظمه وطلَّب الشهرة والمفاخرة، ويلتهي به عن القرآن وعن طلب العلم وعن ذكر الله؛ وهذا من تلبس إبليس على البعض.

وما أجمل شعر المحاورة - وغيره من ألوان الشُّعْر - عندما يكون في الحكمة والنصيحة والتوجيه ومعالجة قضايا ومشاكل المجتمع ومدح الخصال الحميدة وتشجيع أهلها ..



مِن سُوْرَةِ الْقَصَصِ

• قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص: ٥٦.

روى مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وأحمد والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ، وفي عمه (أبي طالب)، فالنبي ﷺ كان حريصاً على هداية عمه ويتمنى أن ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فيعمل بمقتضاها فينجو بها في الآخرة؛ جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين وللرسول من الحماية والعناية والرعاية والاهتمام..

فدخل ﷺ على عمه وهو في سكرات الموت، فيقول له: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)، وكان عنده أبو جهل وبعض المشركين الذين يصدونه ويغوونه عن كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله، فأثروا عليه، فلم ينطق الشهادة، وقال: لولا أن تُعيرني قريش لقلتها، فمات وهو يقول: على ملة عبدالمطلب، فحزن النبي ﷺ لذلك، فأُنزل اللهُ قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وكان النبي ﷺ يحب عمه أبا طالب؛ لِمَا حَوَاهُ مِنَ الْحِمَايَةِ وَالرَّعَايَةِ.

وفي رواية النسائي: أنه سُئل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

أَحْبَبْتَ﴾ هل كانت في أبي جهل وأبي طالب؟ قال: نعم.

من ذلك يُعَلِّمُ حِرْصَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ أَعْمَامِهِ وَأَقَارِبِهِ وَمَنْ يُرِيدُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي إِلَّا مَنْ يَشَاءُ.

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِعُمُومِ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا، فَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ إِلَّا أَنْ يَدْعُو اللَّهَ بِالْهِدَايَةِ؛ لِأَنَّ الْهِدَايَةَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، فَالْأَبُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَ ابْنَهُ، وَالْأَخُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَ أَخَاهُ؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَكْثُرَ مِنَ الدَّعَاءِ بِالْهِدَايَةِ، كَمَا أَمَرْنَا اللَّهَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الَّتِي نَقَرَأُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الصَّحِيحِ: (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ)، أَي: اطْلُبُوا مِنِّي الْهِدَايَةَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَمِنْ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالعِفَافَ وَالعِزَّةَ وَالعَمَلَ وَفِي السُّجُودِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ.

وَأَنْ يَكُونَ طَلَبُ (الْهِدَايَةِ) بِأَنْوَاعِهَا..

- هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالإِرْشَادِ.

- وَهِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالعَمَلِ.

فَإِنَّهُ قَدْ يُهْدَى الْإِنْسَانُ إِلَى (العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ)، لَكِنَّهُ لَا يُؤَفَّقُ إِلَى (العَمَلِ)، فَهَذِهِ لَيْسَتْ بِهِدَايَةٍ، إِنَّمَا الْمَطْلُوبُ هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالإِرْشَادِ مَعَ الْهِدَايَةِ الأُخْرَى الأَهْمَى؛ وَهِيَ هِدَايَةُ الْعَمَلِ وَالاِتِّبَاعِ.

فالواجب أن يتجه العبد لربه في سجوده بطلب الهداية وأن يدعو الله أن يهديه الصراط المستقيم وأن يهديه وأولاده وذريته وأقاربه ومن يجب. فالهداية لا يملكها ولا يُعطيها إلا الله، ولا يهدي إلا الله.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حاول في ابنه: ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ٤٤ قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿هُود: ٤٣﴾ ، فلم يستطع هداية ابنه، ولم يستطع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هداية عمه، لكن الهداية بيد الله، فلا تُطَلَّبُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ؛ للنفس وللولد والمؤمنين ..

نسأل الله أن يجعلنا من الذين هداهم الصراط المستقيم، وأن يهدينا ويُرشِدنا، ونسأله - تعالى - الهداية والتقوى والعفاف والقناعة والرّضى.

وللتبئيه :

فقد تقدم الحديث عن هذه الآية في سورة التوبة عند ذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التوبة: ١١٣ ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يستغفر لأُمَّه ولعمّه أبي طالب عندما ماتا على الشرك، وقال: (لأستغفرن لك ما لم أُنه)، فنزلت هذه الآية من سورة التوبة تنهى عن الاستغفار للمشركين ولمن مات على الكفر والشرك، نسأل الله العفو والعافية.

• قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ القصص: ٥٧.

روى النسائي والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير وغيرهم: أن هذه الآية نزلت في كفار قريش؛ إذ أتوا النبي ﷺ وقالوا له: لو اتبعناك يا محمد فإن الناس وسائر العرب سوف يتخطفوننا من أرضنا، ويجتمعون على حربنا، ويخرجوننا من ديارنا، فنزلت هذه الآية يرد عليهم ويُعاتبهم: ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: هذا وهم في حال الشرك الكفر جعل الله لهم بلداً آمناً، يُجبي إليه الثمرات والأرزاق من كل مكان، فكيف إذا آمنوا!

ثم قال بعدها: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرَبٍ مَّ بَطَرْتِ مَعِيشَتَهَا فَنَلَكِ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنِي مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص: ٥٨.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فكل من تنكر من الدين أو اعتقد أنه سبب لضيق عيشه أو تكالب الناس عليه، أو نظر إلى الناس وخاف منهم؛ ولم ينظر إلى رب العالمين وإلى عظمتهم وتوحيده ورضاه فإنه على خطر، وهذا من بَطَرِ المعيشة، أي: من الطغيان وكُفْرِ النعمة، ومما يسبب البوار وخراب الديار، كما قال تعالى: ﴿ فَنَلَكِ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنِي مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ لأنها خوت وخربت بسبب ظلمهم ومعاصيهم.

تنبيهه :

وفي معنى هذه الآية السابقة: آيةٌ أُخرى في (سورة العنكبوت)، قوله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ العنكبوت: ٦٧.

فهذه أيضاً سبب نزولها هو تكذيب وكُفر وبَطْر وتمادي الكفار والمشركين، وإعراضهم عن دعوة النبي ﷺ، فيذكرهم بما هم فيه من الأمان والاستقرار في حرم مكة؛ والناس يُتَخَطَّفون من حولهم.

فآية الأولى في سورة القصص: تَلَفَتِ الْأَنْظَارُ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالثَّمَرَاتِ

التي تُجَبى إليهم، فيقول: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القصص: ٥٧.

والآية الأخرى في سورة العنكبوت: تَلَفَتِ الْأَنْظَارُ إِلَى الدِيَارِ مِنْ

حَوْلِهِمْ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَالْبَلَاءِ؛ فِي الْوَقْتِ الَّذِي هُمْ فِيهِ فِي أَمْنٍ وَاسْتِقْرَارٍ وَرَغْدٍ عَيْشٍ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ العنكبوت: ٦٧.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلُوبِيٍّ أَعْلَمُ

مَنْ جَاءَ بِأَهْدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ القصص: ٨٥.

روى السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وابن جرير في التفسير وغيرهما: أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ عندما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، ولما بلغ المحفة جهة المدينة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية تُطْمِئِنُّهُ وتكون وعداً من الله أن يُعيدَهُ إلى مكة فاتحاً منتصراً، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي أنزل عليك القرآن ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ ومعاد في تفسير جمهور المفسرين اسمٌ من أسماء (مكة).

وهذا وعدٌ من الله للنبي ﷺ، وقد تحقَّق هذا الوعد، وأعادَهُ اللهُ إلى مكة فاتحاً منتصراً، وذلك في غزوة فتح مكة في العام ٨هـ؛ كما هو معلومٌ في السيرة النبوية.

مِن سُوْرَةِ الْعَنْكَبُوْتِ

• قوله تعالى: ﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

﴿٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ العنكبوت ٣.

روى السيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير وغيرهما من أئمة التفسير: أن هذه الآيات نزلت في السابقين إلى الإسلام الذين أودوا وعذبوا في مكة؛ وبالذات المستضعفين منهم؛ كعمّار بن ياسر وخباب بن الأرت وبلال بن رباح وصهيب الرومي؛ وغيرهم؛ ممن أودوا من أجل إيمانهم وإسلامهم، فنزلت هذه الآيات تسليّة لهم، وأن المؤمن قد يُبتلى ويُختبر؛ لتمييز صادق الإيمان من مدّعي الإيمان، وأنه بقدر قوة الإيمان يكون عظم البلاء، فيثبت المؤمنون ويستعدّوا بالصبر والاحتساب.

وقوله: ﴿أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا﴾ سؤال استنكاري؛ يستنكر عليهم أن يقولوا بألسنتهم دون قلوبهم ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي بل من آمن (بقلبه ولسانه) واعتقد العقيدة الصحيحة لابد أن يُفتن، وليس الأمر كما ظنّوا أن من قالها (بلسانه) فإنه يكفي، لا.

بل لابد أن يقولها من قلبه صادقاً، وسوف يمتحنه الله بالبلاء والفتن؛ حتى يتميز (المنافق الكاذب) من (المؤمن الصادق) الذي قاله من قلبه خالصاً.

ووضّح أن هذه سنّة الله في الأمم السابقة وفي هذه الأمة إلى يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي ابتلينا واختبرنا ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ

اللَّهُ الَّذِيكَ صَدَقُوا وَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١﴾. فيمتحن الله العبادَ بالبلاء والفتن والمحن والشهوات والشبهات ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ خَالِصًا. وَأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْسِبُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ كَلِمَةٌ تُقَالُ بِاللِّسَانِ، فَيَقُولُونَهَا بِاللِّسَانِ وَهُمْ عَنِ مُقْتَضَاهَا غَافِلُونَ جَاهِلُونَ ؛ فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ فِتْنَةٌ أَوْ مِحْنَةٌ أَوْ شِدَّةٌ أَوْ شَهْوَةٌ أَوْ شُبْهَةٌ انْتَكَسُوا إِلَى الضَّلَالِ وَارْتَدَّوْا عَنِ دِينِهِمْ ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي نَفْسِ هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ أَي بِلِسَانِهِ فَقَطْ ، ﴿ فَإِذَا أُوْذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ وَيَتَزَعَّرُ إِيمَانُهُ ؛ لِأَنَّهُ إِيمَانٌ ضَعِيفٌ غَيْرُ رَاسِخٍ.

فَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّ يَكُونُ الْإِيمَانُ وَالتَّصَدِيقُ بِالْقَلْبِ ، وَمَبْنِيًّا عَلَى الْأَدَلَّةِ وَالبَرَاهِينِ النُّقْلِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ.

وَالعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَعْمُومِ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا ، فَاللَّهُ - تَعَالَى - قَالَ : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ فَآتَى بِلَفْظِ الْعُمُومِ (الناس) لِيَشْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ وَمَنْ مَضَى وَمَنْ يَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَكَلَّمَا تَقَدَّمَ الزَّمَانُ زَادَ الْبَلَاءُ وَالاخْتِبَارُ ، لِأَسِيْمَا وَمَا نَحْنُ فِيهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ وَالفِتَنِ..

وَمَا أَكْثَرَ السَّاقِطِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - بِأَلْسِنَتِهِمْ - أَمَامَ الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ وَالفِتَنِ وَالاِبْتِلَاءَاتِ وَالاخْتِبَارَاتِ ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ مُجَرَّدَ دَعْوَى ، وَلَمْ تَصُدَّرْ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ وَكَانَ إِيمَانُهُمْ إِيمَانًا تَقْلِيدِيًّا وَليس إِيمَانًا مُكْتَسَبًا مِنَ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمُقْرُوءَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالمَنْظُورَةِ فِي الْأَكْوَانِ.

وَحَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ - الْعَنْكَبُوتَ - بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩، فهي سورةٌ مضمونها كُلهُ يَدورُ حولِ الابتلاءِ والاختبارِ والفتنِ بالبلايا والشبهاتِ والاختباراتِ والفتنِ، وأن هذه سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَلَا يَتَجَاوَزُ الْاِخْتِبَارَ وَلَا يَنْجُوا مِنْ عَاقِبَتِهِ إِلَّا مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبِهِ وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، وَعَمَلَ بِمَقْتَضَى هَذَا الْإِيمَانِ، فَحِينَهَا يَكُونُ مِنَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ؛ فَيَهْدِيهِ اللَّهُ سَبِيلَ الرِّشَادِ وَيَكُونُ مَعَهُ وَيُثَبِّتُهُ عَلَى الْإِيمَانِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَيْهِ وَيُخْتَمَ لَهُ بِالْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

رَبَّنَا ثَبِّتْنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. آمِينَ.

• قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت: ٨.

روى مسلم في صحيحه والترمذي وأحمد وأهل التفسير: أن هذه الآية نزلت في الصحابي الجليل التقي المجاهد (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه، وفي أمه. حيث إنه لما أسلم أرادت أمه أن تصدّه عن الإسلام، وقالت: إن الله أمرك بالبر، ووالله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى تكفر وتترك دين محمد، ومكثت أياماً حتى غشي عليها من الجهد، و"سعد" يقول لها: لا أترك ديني.

فأنزل الله هذه الآية توصي الإنسان بربه بوالديه ولو كانا مشركين، لكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأيضاً في معنى هذه الآية آية أخرى في (سورة لقمان)؛ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهَنَا عَلَىٰ

وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ لقمان ١٤.

فهذه الآيات: العبرة فيها بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ لأنها توجب على الإنسان - في كل زمان ومكان - أن يبرّ والديه، وأن يحسن إليهما إحساناً كبيراً حتى ولو كانا مشركين كافرين، لكن لا يطيعهما في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما يُعاشرهما بالإحسان والمعروف والبر والرحمة، ومن البر بالوالدين أن يدعوهم إلى الله ويُعلمهم تعاليم الدين والقرآن والسنة، فهذا من أعظم البر.

• قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت: ١٠.

روى البخاري في صحيحه والطبراني والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في مَنْ بقي من المسلمين (في مكة) بعد هجرة المسلمين إلى المدينة، وبقوا مع المشركين بمكة .. فكتب إليهم إخوانهم المسلمون أن هاجروا واتركوا أرض المشركين، فخرج بعضهم مهاجراً؛ فلحقهم المشركون وصدّوهم عن الهجرة، ومنهم مَنْ قُتِلَ ومنهم مَنْ نجا، ومنهم مَنْ رجع وعاد مع المشركين..، فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية؛ وقال فيها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي بمجرد أن تعرّضوا لكلام قريش وأذاهم رجعوا معهم إلى الشرك!.

أما الذين صبروا على البلاء وفضلوا الهجرة مع المسلمين واللاحق بهم فسَبَقَ في (سورة النحل) بيان أن الله - تعالى - أنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾؛ لأنهم كانوا مؤمنين حقاً من قلوبهم ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النحل: ١١٠.

وكذلك في (سورة النساء) ذمّ الله - تعالى - الذين لم يهاجروا؛ مع قدرتهم على الهجرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُم مَّلَكُتِكُمْ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا

فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ ﴿النساء: ٩٧﴾ .

وقد سبق في الحديث عن ذلك في (سورة النساء وفي سورة النحل)،
وأن الله استثنى المستضعفين الذين إيمانهم صادق وبالعامل بالقلب واللسان
وبالفعل ؛ ولكنه مُسْتَضْعَفٌ ؛ ففيهم قال تعالى : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ
وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿﴾ .

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها، و﴿النَّاسِ﴾ لفظٌ عامٌ يشمل كل
ضعيف إيمان وكل منافق ؛ إذا تعرّض لأدنى فتنة أو شُبْهة أو شهوة انقلب على
وجهه ؛ خسر الدنيا والآخرة ؛ كما في (سورة الحج) : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ
عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١) ، فيعبد الله على وجهٍ واحدٍ ؛ هو
الأمن والرخاء والنعمة، فهو مؤمن بلسانه ؛ لكن إذا جاء البلاء والاختبار
والامتحان والشهوة والشبهة .. فإنه يَنقَلِبُ على وجهه، وتكون عنده فتنة
الناس كعذاب الله، وهذا من النفاق، نسأل الله العفو والعافية.

مِن سُوْرَةِ لَقْمَانَ

• قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ لقمان: ٦ - ٧.

روى السيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير وغيرهما من أئمة التفسير: أن هذه الآيات نزلت في بعض كفار قريش وغيرهم من المشركين المفسدين، لأنهم كانوا يصدّون الناس عن سماع القرآن، وعن اتباع النبي ﷺ، يصدّونهم بلهو الحديث والغناء ونحوه..

ومنهم: (النضر بن الحارث)، وهو من أشرار كفار قريش، كان يشتري القينات المغنّيات؛ فلا يسمع بأحدٍ يريد الإسلام إلا انطلق بقينةٍ مغنّيةٍ فيقول: أسقيه الخمر وغنّيه لكي ينصرف عن سماع القرآن ويفسد قلبه..، فأنزل الله هذه الآيات التي تتوعّد هؤلاء المفسدين بالعذاب الأليم.

ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٨﴾ خَلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ لقمان: ٩، فذكر ثواب المؤمنين ليبيّن النقيض، وهو أن من آمن بقلبه ولسانه وجوارحه؛ وصدق في إيمانه؛ ولم يتبع الذين يشترى لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، وثبت على إيمانه وتوحيده ومجابهة الفتن والشهوات والشبهات والابتلاءات ثم مات على ذلك صابراً محتسباً فإن له جنات النعيم خالداً فيها وعد الله حقاً.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ولذلك قال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ فهذا العموم يشمل الكافر والفاسق؛ في الماضي والحاضر وإلى يوم القيامة، وأن من عمل هذا العمل من اشتراء اللهو لإغواء الناس وصدّهم عن سماع القرآن وعن الذكر فإن له العذاب المهين.

وكذلك من لم يصبر ولم يُحقّق الإيمان في قلبه وجوارحه قبل قوله فإنه أيضاً يَضَعُفٌ وَيَنْجَرِفُ وراءَ الفِتَنِ والشَّهَوَاتِ، ويكُونُ له نفسُ المصيرِ ونفسُ الجزاءِ والعذابِ..

وأنه لا ينجو من ذلك إلا المؤمنون الصادقون المخلصون العاملون، نسأل الله أن يجعلنا وذرياتنا ووالدينا منهم.

• قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: ٢٧.

روى السيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير وغيرهما: أن هذه الآية نزلت في (بعض اليهود) الذين لما سمعوا قول الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥ ، فقالوا: إننا أتينا من العلم كثيرا وليس قليلا؛ فقد أوتينا التوراة؛ وفيها من الحكمة والعلم الكثير..

فأنزل الله قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ رداً عليهم ، وليبين لهم أن علم الله واسع ، وأن الله واسع في علمه وفي إحاطته بخلقه ، وأنه لا ينتهي علم الله ، فهو أوسع علماً ، وأوسع مما أوتوا.

وفي معنى هذه الآية آية أخرى في آخر (سورة الكهف) قوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

الكهف: ١٠٩.

فلو أن الأشجار تُبرى أقلام ، والبحار حبرٌ ومداد ؛ ثم تُكتب بها العلوم

فإن (البحار والأشجار) سوف تُنفد وتنتهي ، ولا ينتهي علم الله عز وجل.

ولهذا وصف الله نفسه بأنه ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ١١٥ ، ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

التحریم: ٣ ، ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ الأنعام: ٩٦ ، وقال عن نفسه: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

طه: ٩٨ ، سبحانه وتعالى.

• قوله تعالى: ﴿إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣.

روى البخاري في صحيحه وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في بعض أصحاب النبي ﷺ الذين لمّا سمعوا قول الله في "سورة الأنعام":

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢،

قالوا: يا رسول الله، أينما لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: (ليس كما تظنون، إنما

الظلم هو الشرك)، ونزل قوله تعالى: ﴿إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ورواية أخرى؛ في البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: (ليس كما تظنون إنما

هو الشرك، ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان: ﴿إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾)

فبينت هذه الرواية أن آية سورة لقمان كانت قد نزلت.

وجمّع بعض أهل العلم بين الروایتين: باحتمال أن آية سورة لقمان

﴿إِنِّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ كان نزولها في الحال الذي سأل فيه الصحابة عن

معنى الظلم، فتلاها عليهم.

قالوا: وهنا تجتمع الروایتان. والله أعلم.

سورة السجدة

أما سورة السجدة فليس فيها ما يُذكر من أسباب النزول؛ إلا ما ورد في قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ السجدة: ١٦، في روايةٍ صحيحةٍ عند الترمذي وأبي داود وابن كثير في التفسير: أنها نزلت في ناسٍ من أصحاب النبي ﷺ؛ كانوا ينتظرون (صلاة العتمة) - أي صلاة العشاء في ظلام الليل .. فكان بعض الصحابة ينتظرون بعد صلاة المغرب، ويصلون نافلةً من المغرب إلى العشاء؛ ينتظرون صلاة العشاء، فامتدحهم الله بقوله: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.

لكن هناك روايةٌ أخرى صحيحة؛ عند الترمذي وأحمد وابن ماجه وصححها الألباني وهي عند جمهور المفسرين: بأن هذه الآية مقصودٌ بها صلاة الليل والتهجد، يعني قلة نوم الليل؛ لأنهم كانوا يتهجّدون في الليل، وهذا هو الأرجح لأنه عام.

وبهذا فإنه لا سبب يُذكر في نزولها إلا عموم الأسباب العامة من الحث على طاعة الله ومدح الصالحين بقيام الليل ونحو ذلك.

مِن سُوْرَةِ الْأَحْزَابِ

- قوله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الأحزاب: ١ - ٣.

روى السيوطي والواحدي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير وغيره من أئمة التفسير: أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ تسلياً له وتثبيتاً له عندما ساومه الكفار والمشركون - بوصاية من يهود المدينة - على دعوته وعلى رسالته أن يتركها ويتنازل عنها أو عن بعضها - بزعمهم - فأنزل الله هذه الآية، وناداه باسم النبوة ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ﴾ تشریفاً وتكريماً؛ ولم يقل: يا محمد، وكل الأنبياء في القرآن نودوا بأسمائهم: ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ﴾ هو دود، ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ﴾ طه ١٧، ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ﴾ المائة ١١٠، ﴿يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ﴾ طه ٩٢، إلا هو ﷺ ناداه بالنبوة

ثم أمر الله بالتقوى واتباع ما أوحى إليه، وأن لا يطع الكافرين والمنافقين.

ومعنى ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ في قول جمهور المفسرين:

١- أي: ازداد ثباتاً على التقوى، وازداد تمسكاً بما أوحى إليك من القرآن

والسنة، وتزود منها.

فالمراد هو (الازدياد منها والثبات عليها)؛ لأن الرسول هو اتقى الخلق؛

كما قال ﷺ: (ألا إني أتقاكم لله وأخشاكم له وأعلمكم بحدوده وأصدقكم

وأبركم) رواه البخاري ومسلم.

٢ - أن الأمر عامٌّ للنبي ﷺ ولأمته ؛ بالتقوى واتباع الوحي والثبات على القرآن والسنة، ولئن كان الرسول هو المخاطب فالخطاب أيضاً لأمته، فهي المعنية بهذا الأمر، والنبي قدوة لهم فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ ؛ لأنهم إنما يشككون في الشرع وفي الوحي، ويحاولون صدّ المسلمين عن كتاب الله وسنة رسوله. **فينبغي على المؤمن** أن يأخذ هذه الآية بعُموم لفظها لا بخصوص سببها، وكلنا مخاطبون بها، بل نحن أحوج لتقوى الله واتباع الوحي والاستعانة بالله في الثبات عليه.

• قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا

ءَابَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾ الأحزاب: ٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والواحد في أسباب النزول: أن (زيد بن حارثة) رضي الله عنه كان مولياً للنبي صلى الله عليه وسلم - أي عبداً رقيقاً له - أهدته له زوجته خديجة - رضي الله عنها -.

ثم لما أراد صلى الله عليه وسلم إعتاقه خيره بين أهله أو البقاء مع رسول الله؛ فاختار (زيد) رسول الله على أهله وعلى أبيه وأمه، وبقي مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا يُسمونه (زيد بن محمد) - على عادة أهل الجاهلية - فأبطل الإسلام هذا التبني وحرّمه، وأنزل الله قوله: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ لأن الدّعيّ ليس من الصُّلب.

وأصبح زيد يُسمّى (زيد بن حارثة)، وسالم يُسمّى (مولى أبي حذيفة) ولا يقال: ابن حذيفة، وغيرهما كثير.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فهي عامّة، وهو حكمٌ سارٌّ إلى يوم القيامة، أنه لا يجوز التبني في الإسلام، ولا يجوز أن يدعى أحدٌ بغير أبيه ولا من غير صُلبه.

بل قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من ادّعى لغير أبيه - وهو يعلم - فالجنته عليه حرام،

وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) رواه البخاري ومسلم.

• قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب: ٢٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهِمَا والترمذي والنسائي وأحمد والواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في بعض أصحاب النبي ﷺ عندما صدقوا وعزموا النية والصدق في القتال معه ﷺ في غزواته؛ نُصْرَةً لِّلَّهِ ولرسوله ولدينه وكتابه.

ومِنَهم الصحابي الجليل (أنس بن النضر) رضي الله عنه، الذي فاته المشاركة في غزوة بدر، فتندم وتأسف أن لم يحضرها، وقال: لقد فاتني أول قتال قاتله النبي ﷺ ضدَّ المشركين، ولئن أشهدني الله مشهداً آخر مع رسوله ليرين الله مني ما أصنع.

فلما مرَّت الأيام وجاء يوم غزوة (أحد) سارع "أنس بن النضر" من أول المسلمين في غزوة أحد؛ صادقاً مُقبلاً مُحْتَسِباً، وانطلق في وجه العدو من كفار قريش؛ وهو يقول: إني لأجد ريح الجنة دون جبل أحد، فقاتل حتى قُتل في هذه الغزوة شهيداً، قالوا: فوجدوا فيه بضعاً وثمانين ضربةً بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، حتى ما عرفه إلا أخته ببنانه، لأن المشركين لما قتلوه مثلوا به وقطعوا أعضاء جسده بعد طعنه وقتله، قال الراوي: فأَنْزَلَ اللهُ فيهم قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فنحن جميعاً مخاطَبون بهذه الآية؛ أن نكون صادقين مع الله في نياتنا وأعمالنا، وأن الصادق ينجيه الله بصدقِهِ، وأن من أقبل على الله بمجاهدة نفسه صادقاً صابراً

مُحتسباً .. فإن له حُسن الثواب عند الله ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .
 فنسأل الله أن يجعلنا من الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ،
 وأن يُثبِّتنا على ذلك حتى نلقاه .

• قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ الأحراب: ٢٩.

هذه الآيات تسمى (آيات التخيير) كما ذكر أهل التفسير.

ففي الصحيحين والسُّنن وعند ابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في زوجات النبي ﷺ؛ أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - عندما أثقلن عليه بطلب النفقة، والزيادة في الإنفاق، وطلبن منه ما ليس عنده.

ومنهن (عائشة وحفصة)، تظاهرتا عليه، فكأنه غضب ﷺ منهن لأنهن طلبنه مالاً ونفقة كثيرة؛ لاسيما أن هاتين الآيتين نزلتا بعد الآيات التي قبلها في (غزوة الخندق)، وفي (غزوة بني قريظة)، عندما غنم المسلمون منهما مالاً ونخيلاً وتَمراً وغنائم كثيرة ..، فكان أمهات المؤمنين تشوّفنَ لزيادة النفقة والمال، فسألن النبي ﷺ ذلك فأثقلن عليه، فاعتزلهن شهراً كاملاً.

وأتى (عمر بن الخطاب) وقال: لأَدْخُلَنَّ على رسول الله ولأُضْحِكَنَّه، فدخل عليه عمر، ثم قال له يا رسول الله: لو رأيتَ زوجتي أثقلت عليّ بطلب زيادة النفقة فوجئتُ عُنفها، أي: - ضربتُها في عُنفها - فضحك رسول الله ﷺ، فلما ضحك زال عنه الهمّ سأله (عمر) بعدما أضحكه؛ وقال: أطلّقتَ نساءك؟ فقال ﷺ: لا، ثم بعد ذلك اتجه (أبو بكر) إلى ابنته عائشة يُعاتبها على إغضاب رسول الله، واتجه (عمر) لابنته حفصة أيضاً يُعاتبها على

الإثقال على رسول الله، وَيَعْظَانَهُمَا أَنَّهُمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَنِعَا بِالْقَلِيلِ وَبِمَا فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَتَسْمَى "آيَاتِ التَّخْيِيرِ"؛ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولَهُ أَنْ يُخَيِّرَ زَوْجَاتِهِ بَيْنَ أَنْ (يَبْقَيْنَ مَعَهُ) وَلَهُنَّ الشَّرْفُ وَالْجَنَّةُ، أَوْ أَنْ (يُطَلَّقَهُنَّ وَيُسَرِّحَهُنَّ)؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ * يَعْنِي يُطَلَّقَهُنَّ وَيَذْهَبْنَ فِي دُنْيَاهُنَّ.

وَالْخِيَارِ الثَّانِي: ﴿وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ *.

فَبَادِرَ بِتَخْيِيرِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بَيْنَ أَنْ تَبْقَى مَعَهُ أَوْ يُسَرِّحَهَا وَيُطَلِّقَهَا، فَقَالَتْ: (بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا أَخْتَارُ فَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ).
فَاخْتَارَتْ رَسُولَ اللَّهِ، وَقِنَعَتْ بِمَا هِيَ فِيهِ مِنْ عَيْشَةٍ، ثُمَّ تَبِعَهَا بِأَقْبَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ حَفْصَةَ وَغَيْرَهَا، وَرَضِينَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْمًا، وَقِنَعْنَ بِمَا عِنْدَهُنَّ.

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِعُمُومِ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا، فَيَنْبَغِي عَلَى نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرْنَ عَلَى أَحْوَالِ الزَّوْجِ، وَعَلَى تَقْصِيرِ الزَّوْجِ.
وَعَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يُسَدِّدُوا وَيُقَارِبُوا، وَيَنْبَغِي عَلَى الزَّوْجَةِ أَنْ تُقَدِّرَ ظُرُوفَ زَوْجِهَا وَأَحْوَالَهُ الْمَعِيشِيَّةَ، وَلَا تُثْقِلَ عَلَيْهِ بِالطَّلَبَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ بِالضَّرُورِيَّةِ،

خاصة في هذا العصر، وطلب الأشياء التي أكثرها من الترف، وأكثرها
مُحاكاة ومُجاراة للآخرين ..!

فبعض النساء يُقلن: عند آل فلان بيت كذا وسيارة كذا، وعندهم من
الأموال ومن اللباس..؛ فتثقل على زوجها من هذه الطلبات والنفقات التي
ليست بواجبة، والتي هي من الترف ومما فوق الحاجة.

ولهن قدوة وأسوة في نساء النبي ﷺ؛ عندما رَضِينِ بِرَسُولِ اللَّهِ وَقَنَعْنَ
بِالْكَفَافِ، وَاسْتَجَبْنَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ لِنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ
لِهَا أَجْرٌ عَظِيمٌ إِذَا أَرَادَتِ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴿وَلِإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْدَّارَ
الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فغالب مشاكل نساء هذا العصر هي في كثرة الطلبات على الزوج
والتشوّف للآخرين ومُجاراة الجيران، وطلب ما يفوق الحاجة، وإثارة المشاكل
والنزاعات والخلافات على ما لا يحتاجونه.

و(الأسرة) اليوم تحتاج إلى المحبة والرحمة والوئام والأخلاق الحسنة
وتربية الأبناء تربية صالحة .. أكثر مما يحتاجون إلى ترف الدنيا وزيادة نفقاتها
والطمع في كمالياتها ..

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

روى الترمذي والحاكم والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير بطرقٍ صحيحة: أنه أتى بعض المسلمات إلى النبي ﷺ، وقلن له: نرى كلَّ شيءٍ من الأعمال للرجال، ولا نرى النساء يُذكرن، ويُذكر المؤمنون ولا يُذكر المؤمنات..، فأنزل الله هذه الآية وفيها ذكر الرجال والنساء، وتبين أن الرجال كالنساء في الأوامر الشرعية تشمل الجميع، وهُنَّ مُخاطبات بما يُخاطب به الرجال؛ إلا ما يخص الرجال وينفردون به، أو يخص النساء وينفردن به، فهذا واضح ومعلوم.

وأما تذكير الضمير أو الاقتصار على الرجال دون النساء في بعض النصوص فهذا من باب التغليب.

• قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۗ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿الأحزاب: ٣٦ - ٤٠.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والحاكم وأحمد وابن جرير وابن كثير وغيرهما من أئمة التفسير: أن هذه الآيات نزلت في قصة زواج (زيد بن حارثة) من (زينب بنت جحش) رضي الله عنهما. حيث إن زيدا كان عبداً رقيقاً لحديجة - رضي الله عنها - فأهدته للنبي ﷺ، فأعتقه؛ وخيره بين أن يلحق بأهله أو يبقى معه ﷺ، فاختر البقاء مع الرسول؛ فصار مولياً له ﷺ ورقيقاً عنده، ثم على عادة الجاهلية تبناه الرسول ﷺ واتخذه ابناً له، فكان يُسمى (زيد بن محمد)، فلما أبطل افسلام التبني وحرّمه دُعيّ زيدُ بأبيه (زيد بن حارثة).

أما (زينب بنت جحش) فجدّها هو جدّ النبي ﷺ وهو عبدالمطلب، وأُمّها هي أُميمة بنت عبدالمطلب، فزينب بنت جحش هي ابنة عمّة النبي ﷺ. خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لزيد بن حارثة، فكانت تَظُنُّ أَنَّهُ خَطَبَهَا لِنَفْسِهِ، فَأَبَتْ وَاسْتَنكَفَتْ وَرَفَضَتْ زَيْدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾. وفيها عتابٌ لزينت؛ أنها لم تستجب لله ورسوله، فلما سمعت هذه الآية أذعنت وأطاعت رسول الله وقبلت بزیدِ زوج لها، ولم يكن لها خِيَرَةٌ مِنْ أَمْرِهَا ^(١).

وبقيت زينب عند زيد عاماً كاملاً، ولكن لم يتفقا. وإنما ساءت عشرتهما؛ لأن زينب - رضي الله عنها - ترفعت عن (زيد) كونها امرأة شريفة من أشرف العرب، و(زيد) مولى من الموالي.

(١) وفي هذه الاستجابة من (زينب) - رضي الله عنها - درسٌ لنا، والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ذلك الدرس: هو أنه يجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يرضى بحكم الله وبأوامر الله ونواهي الله، ويقنع بما كتب الله له، ولا يعترض على شيء من أحكام القرآن والسنة، ولكن يأخذها من غير خيار، وهذا من دلائل الإيمان الصادق المقرون بالعمل، أما أن الإنسان يترك أوامر الله، أو يختار منها ما يشاء ويترك ما يشاء، أو أنه لا يرضى بها ولا يقتنع بها فإن هذا من ضعف الإيمان، ومن علامات النفاق، نسأل الله العفو والعافية.

فاشتكى زيد إلى النبي ﷺ ترفع زينب، وأنه يريد طلاقها.. فأمر رسول الله زيدا أن يسكها ولا يطلقها؛ بل أمسكها زوجة لك.

وكان ﷺ يخفي في نفسه رغبة أنه يريد من زيد أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ﷺ، ليُبين حكماً شرعياً، ويُبطل عادة جاهلية؛ وهي إبطال التبني، وأن زيدا لم يكن ابناً للرسول، وإنما هو (زيد بن حارثة)، وأنه يجوز الزواج بزوجة الدعي الذي ليس بابن من الصُّلب ..

وأخفى رسول الله ﷺ هذا الشيء في نفسه ولم يُيده؛ لأن الله أوحى إليه أن زيدا سوف يطلقها، وسوف يُزوجه الله إياها ويتولى الله تزويجها لرسوله.

فطلق زيد زينب بنت جحش، ثم انتظر النبي ﷺ؛ فلما انقضت عدتها منه أرسل لها زيدا وقال له: يا زيد؛ إنك أوثق الناس في نفسي وأحبهم إليّ؛ فاذهب فاخطب (زينب بنت جحش) لرسول الله.

فذهب زيد إلى زينب - وقد انقضت عدتها من طلاقه إياها - وقال لها: أبشري؛ إن رسول الله أرسلني إليك لرغبته في الزواج منك، فقالت: دعني أستأمر ربي وأستخير، وقامت تصلي وتستخير..

فأنزل الله هذه الآيات ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ ﴿ أَي يَا مُحَمَّد ﴾ ﴿ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ الذي هو زيد، أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت أنت عليه يا رسول الله بالعتق، فصار حُرّاً بعد أن كان عبداً، ﴿ وَإِذْ تَقُولُ ﴾ ﴿ لَهُ ﴾ ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ أي زينب بنت جحش ﴿ وَأَتَقِ اللَّهَ ﴾ في أمورك وشؤونها ﴿ وَتُخْفِي ﴾ ﴿ يَا مُحَمَّد ﴾ ﴿ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ أي أن الله سوف يبدي ما

أخفاه الرسول في نفسه ؛ وهو رغبة الرسول في زواجه من زينب حتى يُبطل عادة التَّبَيِّينِ ويبيِّن أن زيدا هو (زيد بن حارثة) وليس زيد بن محمد، هذه هي العلة والحكمة.

وليس كما قال بعض الجهلة من المستشرقين وبعض المغرضين بعض المفسرين بأن الرسول رغب في زينب لنفسها لا لشيءٍ آخر..، فهذا غير صحيح وهو كذبٌ وافتراء، والنبي ﷺ لم يطمع في زينب زوجة زيدٍ لنفسها، وإنما رغب في أن يتزوجها حتى يُبطل عادة التَّبَيِّينِ.

وقال: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ أي لا تخشى من كلام الناس ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي لما قضى (زيد بن حارثة) وطره من (زينب بنت جحش) وطلقها وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي الله - عز وجل - زوج زينب لرسول الله ﷺ؛ وهو الذي تولى تزويجها بنفسه - سبحانه - من دون وليٍّ ومن دون عقدٍ ولا مهر، والعلة والسبب قال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا﴾ لم يقل: "أبناءهم"؛ إنما قال: ﴿أَدْعِيَائِهِمْ﴾، فهذه العلة التي أخفاها الرسول في نفسه والتي أبداها الله أنه ليس على المؤمنين - آنذاك - حرجٌ أن يتزوج مُطَلَّقة الدَّعِيِّ الذي كان يَتَبَّنَاهُ لأن الإسلام أبطل التَّبَيِّينِ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وفي هذه الآيات شَرَفُ لزينب وشَرَفُ لزيد ؛ رضي الله عنهما.

فأما شرف زينب بنت جحش :

فأولاً : استجابت لأمر الله ، ولم يكن لها خَيْرَةٌ أمام أمر الله ورسوله ، فتزوجت بزيد وهي لا ترغبه.

ثانياً : أن الله زَوَّجَهَا بنفسه لرسول الله ، ولذلك كانت تفتخر على نساء النبي ﷺ وتقول : (زَوَّجَكُنَّ أَهْلُكُنَّ لرسول الله ، أما أنا فزَوَّجَنِي اللهُ بنفسه لرسول الله من فوق سبع سموات). رواه البخاري والترمذي.

وأما الفضيلة والشرف الذي لزيد - في هذه الآيات - : فهو أنه ذكر اسمَه وَسَطَّرَ اسمَه في القرآن بنصّه ، وهو الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن ﴿زَيْدٌ﴾ ويتلى على السنة المؤمنين إلى يوم القيامة وهذا شرف كبير. ثم قال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ فهذه سنة الأنبياء من قبله.

ثم قال تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. نزلت هذه الآية لأنه تكلم البعض وقالوا : إن رسول الله تزوج زوجة ابنه زيد ، فردّ الله هذه الفرية بأن الرسول ليس أباً لزيد ولا لغيره ، فأبناء الرسول الذين من صلبه ماتوا صغاراً ، وليس له بعد وفاته أبناء ، ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

• قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ

أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ الأحزاب: ٥٢.

روى السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في نسائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تكريماً لهن؛ لأنهن اخترن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما نزلت (آية التخيير) السابقة ذكرها؛ وخير رسول الله نساءه بين البقاء معه ويرضين بضيق العيش؛ أو يُطلقهن، فاخرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكرمهن الله بأن حرم على رسول الله أن يتزوج بعدهن أو عليهن، ولا يحل للرسول من النساء إلا من كانت معه عند نزول هذه الآيات، وهن تسع: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفيّة بنت حبي بن أخطب.

قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ

أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

فلئن وسّع على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعداد إلا أنه ضيق عليه في العدد أنه محدود

لا يزيد عليه.

وفي هذا مراعاة لهن، وكرم من الله لهن أن لا يتزوج عليهن ولا يتبدلن

بغيرهن؛ لأنهن اخترن رسول الله وآثرن الحياة الدنيا على الآخرة.

• قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسَبِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِيءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِيءُ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ الأحزاب: ٥٣.

هذه الآية تسمى (آية الحجاب) ؛ لأنه ذكر فيها مشروعية الحجاب في قوله

تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد والحاكم وابن كثير التفسير: أن سبب نزول هذه الآية - آية الحجاب - أن النبي ﷺ لما تزوج (زينب بنت جحش) - بعد طلاقها من زوجها (زيد بن حارثة) - فإنه ﷺ أقام وليمةً في بيته، وحضر لها الناس، وأشبعهم رسول الله ﷺ خُبزاً ولحماً، فلما طعموا في بيت رسول الله ﷺ من هذه الوليمة ومن هذا الأكل خرج بعضهم؛ وبقي بعضهم في بيت رسول الله من غير مُبالاة؛ مُستئنسين بالحديث مع بعضهم ولم يخرجوا، فتهياً النبي ﷺ للقيام لكي يُشعر الجالسين الذين لم يقوموا أن يقوموا من مجلس رسول الله؛ فقد أنقلوا عليه، وكان بعضهم يدخل ويخرج في بيت رسول الله ﷺ قبل أن يُفرض الحجاب.

ورأى عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه البعض يدخلون بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يستأذنون ؛ بل يَمَكْثون بعد أن يَطْعَمُوا وَيَنْظُرُونَ إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ، فقال : يا رسول الله حَجَّبَ نساءك ، فإن القوم يدخلون ويخرجون في بيتك ، فنزلت هذه الآية توافق رأي عمر بن الخطاب في الحجاب .
وأيضاً تُؤدِّبُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ بِيُوتَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ لَا يَدْخُلُوهَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَّا بِاسْتِئْذَانٍ ، وَإِذَا دَخَلُوا أَوْ طَعَمُوا فَإِنَّهُمْ يُسْرِعُونَ بِالْقِيَامِ وَالخُرُوجِ وَالانْتِشَارِ .. ، وَتُعَلِّمُهُمْ أَدَبَ فِي دُخُولِ الْبُيُوتِ وَانْتِظَارِ الْأَكْلِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظَرٍ إِنَّهُ﴾ غير منتظرين لُنُضْجِهِ وَتَجْهِيزِهِ .

﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ ؛ أَي يَحْرُمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا زَوَاجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ لِأَنَّهِنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ .

والعبرة في هذه الآيات بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فإنها عامة ، يجب على المؤمنين أن يأخذوا بحُكْمِهَا إلى يوم القيامة ، في احترام البيوت وعدم دخولها إلا باستئذان .

وبعد الدخول والأكل يجب ألا يثقل الضيف على صاحب البيت ، ولكن يخرج بسرعة ، والنساء يجب أن يحتجبن بلبسن الحجاب الكامل .

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّأَزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ

مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الأحزاب ٥٩﴾.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن جرير وابن كثير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في زوجات النبي ﷺ تأمرهن بالتستر بالجلباب مع الحجاب؛ إذ إن الحجاب قد فرض قبل ذلك^(١).

حيث كان زوجات النبي ﷺ يَخْرُجْنَ يَقْضِينَ حاجتهن خارج البيت - لأنه لم يكن عندهم مراحيض في البيوت ولا حمامات..
فإذا خَرَجْنَ يَعْرِفُهُنَّ الرَّجَالُ، وَيَتَعَرَّضُ لَهُنَّ الْمَنَافِقُونَ بِالْأَذَى وَالْهَمْزِ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الْإِمَاءِ.

ومنهن (سودة بنت زمعة) رضي الله عنها؛ كانت امرأةً جسيمة طويلة، يَعْرِفُهَا مَنْ رَأَاهَا، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَأَاهَا "عمر بن الخطاب" وقد خَرَجَتْ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَالَ: يَا سَوْدَةَ إِنَّكَ لَا تَخْفَيْنِ عَلَيْنَا، فَاَنْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، فَأَخْبَرَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا قَالَ عُمَرُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ؛ تَرَفَعَ الْحَرَجُ عَنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مِنْ بَيْوتهن لحاجتهن بشرط لبي الحجاب والجلباب، وقال ﷺ: (قَدْ أذِنَ اللَّهُ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ) رواه البخاري ومسلم.

وفي لفظٍ: (.. لِحَوَائِجِكُنَّ).

(١) الحجاب: هو ما يستر الوجه، والجلباب: وهو العباءة الواسعة التي تغطي الجسد كله وتستر تفاصيل الجسد.

وَالْحِطَابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَامٌّ؛ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ مَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومِهَا، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ لَفْظِهَا لَا بِمَخْصُوصِ سَبَبِهَا، فَفِيهَا تَنْبِيهُ لِنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِوَجُوبِ لَزُومِ الْحِجَابِ وَعَدَمِ الْاِخْتِلَاطِ، وَوَجُوبِ الْعِفَافِ، وَلِبَسِ الْجَلْبَابِ مَعَ الْحِجَابِ، وَهِيَ الْعِبَاءَةُ الْوَاسِعَةُ الَّتِي تَغْطِي تَفَاصِيلَ الْجَسَدِ، سِتْرًا وَحِفْظًا لَهَا مِنَ الْأَشْرَارِ، وَوَقَايَةً لِلْمَجْتَمَعِ مِنَ الْأَضْرَارِ^(١).



(١) أما سورة سبأ وسورة فاطر فلم يرد فيها شيءٌ من أسباب النزول التي تثبت بسند صحيح؛ غير عمومات أسباب النزول، والله أعلم.

مِن سُوْرَةِ يَسٍ

• قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثِرَهُمْ ۖ وَكُلَّ

شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ١٢ .

روى البخاري في صحيحه والترمذي والحاكم وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في بني سلمة^(١)، أرادوا أن يتركوا منازلهم وينتقلوا في مساكن جديدة قريبة من المسجد النبوي، فوجههم النبي ﷺ أن يبقوا في منازلهم، ويحتسبوا ثواب المشي وكثرة الخطا إلى الصلاة والمسجد. وجاء في رواية البخاري أن النبي ﷺ أراد بإبقائهم في منازلهم البعيدة هو أن يبقوا عمّاراً لنواحي المدينة وأطرافها؛ حتى لا تعرّى المدينة من السكان ولا تخلو من الناس، فيبقون في أماكنهم ليعمروها وتمتلئ ساحتها وأطرافها بالسكان؛ حماية لها وللمسجد النبوي؛ ولينالوا ثواب المشي للصلاة. وقد شجّعهم ﷺ وجعل جائزتهم أنهم بلزومهم الديار تُكْتَبُ لهم الحسنات والآثار، وكلما ابتعدت منازلهم من المسجد وابتعدت خطواتهم فكلّ خطوة ترفع درجة وتخط خطيئة وتكتب حسنة، وقال: (دياركم تُكْتَبُ آثاركم) رواه مسلم وأحمد.

وأنزل الله قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثِرَهُمْ ۖ ﴾

وفيهما فائدة أن الخطى إلى المساجد ثوابها عظيم عند الله.

(١) بنو سلمة - بفتح السين وكسر اللام - من الأنصار في نواحي المدينة؛ بعيداً عن المسجد النبوي.

وكذلك فيها النظرة الثاقبة للنبي ﷺ التي تُفوق التخطيط العمراني، ولئن كان الناس يهتمون بالتخطيط العمراني وازدهار المدن وتوطين الناس..، فإن النبي ﷺ قد سبق إلى ذلك؛ عندما وجّه هؤلاء القوم من الأنصار أن يلزموا مساكنهم في أطراف المدينة ونواحيها، ولا ينتقلون منها فتعرى من السكان وتخلو من البيوت التي فيها ازدهار المدينة وتوسعها وتطوّرها وحمايتها من الأعداء الذين يأتون من أطرافها، وفوات أجر المشي لأداء الصلاة في المسجد.

• قوله تعالى: ﴿أَوْلَتْغَيْرَ الْإِنْسَانِ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ

يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

روى الحاكم بسندٍ صحيح والواحدى والسيوطي في أسباب النزول وابن

جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في أحد المشركين - وهو

(العاص بن وائل)، حيث أخذ عظمًا قد أرم، ثم فته في يده، ثم جاء به

النبي ﷺ وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا ويحييه وقد أرم؟ فقال

ﷺ: (نعم، ويؤميتك الله ثم يحييك، ثم يبعثك، ثم يدخلك النار). ونزلت

هذه الآيات ..

ثم ضرب (الأمثلة) لهذا الكافر المنكر للبعث، وكل من اعتقد عقيدته

وضُفَّ إيمانه حتى نسي اليوم الآخر والعمل له؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ هِيَ أَعْظَمُ خَلْقًا مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ

يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟! ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

والعبرة في هذه الايات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، لذلك لم يذكر الشخص بعينه؛ بل عبر بـ ﴿الْإِنْسَانُ﴾، والإنسان هنا: عمومٌ أُريد به الخصوص؛ وهو العاص بن وائل، لكن أتى بالعموم ليشمل كل إنسان؛ حتى يُصحح المؤمن عقيدته ويؤمن باليوم الآخر ويعمل له ويتزود من العمل الصالح.

فكل إنسانٍ مُخاطَبٌ بهذه الآيات، وأن ينظر ويتبصر في آيات الله ومخلوقاته، ويُقوي إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويُصدق بالحساب والبعث والجزاء؛ ويوقن ويعمل، ويكون إيمانه مقروناً بالعمل والاتعاظ وانكسار القلب لله الذي يحيي العظام وهي رميم.

مِن سُوْرَةِ الزَّمْرِ

• قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الزمر: ٦٧.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد والترمذي وأهل التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أنه أتى حَبْرٌ - أي عالمٌ - من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقال له: (إن الله يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهنّ ويقول: أنا المَلِكُ أنا الله)، قال الراوي ابن مسعود: فضحك النبي ﷺ يُصدِّقه، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

قوله: (على إصبع) أي من أصابع الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن (الإصبع) صِفَةٌ من صفات الله الذاتية الثابتة له عَزَّ وَجَلَّ، لكن نؤمن بها ولا نبحث في كيفيةها، ولا نشبّهها ولا نُعطلّها ولا نُمثّلها ولا نُؤوّلها، فالإيمان بها واجب، والكيف مجهول.

وقول الراوي: ثم قرأ رسول الله الآيّة .. فيه دلالةٌ على أنها قد نزلت من

قبل.

وسورة (الزمر) مكّية، عالجت قضايا التوحيد والعقيدة، لكن أهل العلم، قالوا: لا مانع أن تكون السورة مكية إلا آية منها أو آيتان أو ثلاثة، فقد تكون هذه الآيّة مدنية.

وهناك أيضاً طريق من طُرُق الجَمْعِ : أنه لا مانع من تكرار مرات النزول وأسباب النزول، فقد تنزل الآية مرّةً أو مرتين أو ثلاث، فقد تكون نزلت في مكة، ثم حدث هذا الموقف للرسول مع هذا الحبر اليهودي؛ فنزلت مرّةً أخرى؛ فتلاها النبي ﷺ عليهم.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها..، فهي تدعو للإيمان بقدرته الله، والتفكر في عظمته وومخلوقاته، وبالوعد الحق بعد الموت والبعث والحساب والجزاء والجنة والنار، يقيناً وإيماناً مقرونًا بالعمل الصالح.

قال النبي ﷺ أنه قال: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض) رواه ابن حبان والبيهقي وابن جرير في التفسير وصححه الألباني.

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال النبي ﷺ: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: (بينهما مسيرة خمسمئة سنة، ومن كلّ سماءٍ إلى سماءٍ مسيرة خمسمئة سنة، وكثف كلّ سماءٍ مسيرة خمسمئة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ بين أسفله وأعلى كما بين السماء والأرض - أي مسيرة خمسمئة سنة - والله تعالى فوق العرش، لا يخفى عليه من أعمالكم شيئاً) رواه أبو داود والترمذي والطبراني وأحمد وصححه الألباني وابن باز.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ

مِن سُوْرَةِ الشُّوْرِى

• قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا

يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الشورى: ٢٧.

روى الطبراني والواحدي والسيوطي في أسباب النزول والحاكم وصححه وابن جرير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في (أهل الصُّفَّة) من الصحابة، عندما تَمَنَّوْا؛ قالوا: ليت لنا كذا وكذا من الدنيا، فنزلت هذه الآية تُسَلِّمُهُمْ وتُطْمِئِنُّهُمْ، وأنه كما قيل:

والنفس تجزع أن تكون فقيرةً والفقير خيرٌ لها من غنى يُطغِيها

وأهل الصُّفَّة: هم فقراء الصحابة وغرباؤهم ومُساَفروهم؛ الذين يأوون

إلى المسجد النبوي.

والصُّفَّة: مكان في زاوية المسجد النبوي، يجتمع فيه ويصُفُّ فيه فقراء

الصحابة؛ الذين ليس لهم أهل ولا مساكن يأوون إليها، وفقراء ليس لهم

شيء من الأموال؛ فيصُفُّون في محيط المسجد النبوي يستقبلون الصدقات

والزكوات من الناس.

وكان النبي ﷺ يعتني بهم ويتصدَّق عليهم، ويأتيهم كل يوم بالتمر

والماء، وأهل الصُّفَّة خرج منهم كبارٌ وعُلماءٌ أفاضل؛ من أفاضل الصحابة

وفقهاءهم؛ وفي مُقدِّمتهم (أبو هريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي)؛ فإنه

كان من أهل الصُّفَّة؛ لأنه كان فقيراً ليس عنده أي شيء يُشغله، وليس عنده

مَالٌ وَلَا أَيْ شَيْءٍ، فَلَا زَمَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ؛ يَسْمَعُ مِنْهُ الْحَدِيثَ وَيَعِيهِ وَيَحْفَظُهُ وَيُرْوِيهِ، فَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ رَوَايَةً لِلْحَدِيثِ، حَيْثُ رَوَى أَكْثَرَ مِنْ ٧٠٠٠ حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ غَالِبَهَا فِي الصَّحِيحِينَ.

فَظَهَرَ فَضْلَ الْفَقْرِ وَفَضْلَ قِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا؛ وَكَلِمَا تَقَلَّلَ الْإِنْسَانُ مِنَ الدُّنْيَا زَادَهُ اللَّهُ مِنَ الْآخِرَةِ.

كَذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ: (العرباض بن سارية) الصحابي الجليل الذي روي عنه أكثر أحاديث الفتن والملاحم وأحوال آخر الزمان.

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْمُومِ لَفْظِهَا لَا بِمُخْصَصِ سَبَبِهَا، وَلِذَلِكَ أَتَى فِيهَا بِلَفْظِ الْعُمُومِ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ لتشمل عباد الله؛ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ؛ كُلِّهِمْ عِبِيدُ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنِ عَبْدٌ طَائِعٌ، وَالْكَافِرِ عَبْدٌ عَاصٍ، فَالْفَقْرُ لَا ضَرَرُ فِيهِ، بَيْنَمَا الْغِنَى قَدْ يَكُونُ ضَرَرًا مُؤَدِّيًا لِلْبَغْيِ وَالْغَفْلَةِ؛ ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾. وَبِالْفِعْلِ فَالنَّفْسُ تَجْزَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً، وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى يُطْغِيهَا.

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَرْضَى وَيَقْنَعُ بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ -

﴿بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾.

مِن سُوْرَةِ الزَّخْرَفِ

● قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

الزخرف: ٥٧.

روى الطبراني وأحمد في المسند والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير وصححو سنده: أن النبي ﷺ قال لقريش يوماً: (إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير)، فقال المشركون: ألسنت تزعج يا محمد أن (عيسى) كان نبياً وعبداً صالحاً؛ فإنه قد عُبد من دون الله؛ عبده النصراني من دون الله، كما أن (عزيراً) عبده اليهود، كما أن هناك أقواماً عبدوا الملائكة، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. لما تكلم هذا المتكلم من كفار قريش وضرب المثل بعيسى ابن مريم .. ضَجُّوا وضَحِكُوا وفرِحُوا، وقالوا: الآن حَجَجْنَا محمداً وأقمنا عليه الحجة، فأنزل الله هذه الآية تُنكِر عليهم، وقال فيها: ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ أي كفار قريش ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضحون ويضحكون فرحاً بهذه الحجة الواهية. وقوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد في رواية حفص وشعبة عن عاصم، ومن وافقه؛ وتعني: الضحك والاستهزاء.

أما في قراءة نافع براوييه قالون وورش وابن عامر والكسائي: فقرأوا

بضم الصاد ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ وتعني: الصدود والإعراض وعدم القبول.

والآية تحتمل المعنيين.

من سورة الدخان

• قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَلَيْسَ لَنَا بِدُخَانٍ وَمَا نَكْتُمُ الْعُجْبَانُ أَتَأْكُلُونَهُ إِنَّهَا لَآكَاشِفَةٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَامِدُ كَذِبُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

الدخان: ٩ - ١٦ .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن حبان وأحمد وأئمة التفسير: أن هذه الآيات نزلت في (كفار قريش)، وأن الدخان المقصود: هو كهيئة الدخان؛ يأتيهم من شدة الجوع الذي أصابهم؛ حيث إن كفار قريش لما عصوا الرسول ﷺ واستعصوا عليه وسخروا منه واستهزؤوا به دعا عليهم؛ فقال: (اللهم خذهم بسبع كسبع يوسف)، فأصابتهم مجاعة شديدة وقحط وجهد وبلاء؛ حتى أكلوا الميتات والعظام، وكان الواحد منهم ينظر إلى السماء فكأنه يرى كهيئة الدخان ..، كما قال تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يغشى عيونهم، فلا يستطيعون أن يروا رؤية واضحة من شدة الجوع.

فذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا محمد، هلكت مضر^(١)، فادع الله لنا،

ثم استبعد الله ذكراهم واتعاهم فقال: ﴿أَلَيْسَ لَنَا بِدُخَانٍ وَمَا نَكْتُمُ الْعُجْبَانُ أَتَأْكُلُونَهُ إِنَّهَا لَآكَاشِفَةٌ﴾

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾

(١) مضر جد من أجداد قبائل قريش ومن حولها؛ ممن أشركوا بالله وكذبوا برسوله.

وقد جاءهم محمد ﷺ فكذبوه، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي: كشف الله ما بهم من القحط والمجاعة، ولكنهم عادوا إلى كفرهم وضلالهم، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾.

والبطشة الكبرى: هي - كما في الصحيحين -: غزوة بدر، التي كانت بطشة كبرى على قريش، هلك فيها أكثرهم وصناديدهم وهزموا فيها هزيمة ساحقة.

وفي صحيح البخاري ومسلم: أن رجلاً فسّر الدخان في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فسرها بأنه الدخان الذي يأتي يوم القيامة، و﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يُحْرِقُهُمْ وَيُعْمِي أَبْصَارَهُمْ وَيُصِمُّ أَسْمَاعَهُمْ، فذهب رجلٌ إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وسأله عن تفسير هذا الرجل؟ فغضب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وخطأه وقال: مَنْ عِلْمٌ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ لِمَا لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا (الدخان) هو المجاعة التي أصابت قريشاً حتى كأنهم يرون الدخان في السماء من شدة الجوع.

وأما (البطشة الكبرى) فهي في قول جمهور المفسرين (غزوة بدر)، ومن المفسرين من فسّر البطشة الكبرى بأنها يوم القيامة، وهي بطشة كبرى على الكافرين والمنافقين، ولكن المترجح أنها غزوة بدر، ولا مانع من أن تشمل الآية كلا المعنيين؛ فغزوة بدر بطشة كبرى، ويوم القيامة بطشة كبرى.

من سورة الجاثية

• قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم

بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية: ٢٤ .

روى السيوطي في أسباب النزول وابن كثير وابن جرير في التفسير بإسنادٍ صحيحٍ صحَّحه الحافظ ابن حجر في الفتح وغيره: أن هذه الآية نزلت في أهل الجاهلية والمشركون قبل الإسلام؛ كانوا يقولون: إنما يُهْلِكُنَا الليل والنهار ويُميتنا ويُحيينا، فأنكر الله عليهم، وردَّ هذا الباطل وهذا الافتراء، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن الله هو الذي خلَقَ الدهر، وخلق الليل والنهار والأيام والليالي والسنوات والشهور والحوادث وكلَّ شيء، ولا يحصلُ شيء إلا بإذنه وأمره، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كُلُّهُ.

فلا يجوز أن يُعتَقَدَ في الكائنات ولا في المخلوقات ولا في الليل ولا في النهار ولا في غيرها.

والعقيدة الصحيحة: هي أن نَعْلَمَ أن الله هو خالق الكون ومُدبِّره ومُصَرِّف ما فيه من الآيات.

ومن ضَعَفَ في العقيدة أن يَسبَّ المسلمُ الدهرَ أو الأيامَ أو الرياحَ، فهذا من المحرَّمات التي تَقْدَحُ في العقيدة.

وقد قال النبي ﷺ: إن الله - تعالى - قال في الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر، وأنا الدهر؛ بيدي الأمر، أُقَلِّبُ الليل والنهار) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

ومعنى قول الله عن نفسه: أنا الدهر، أي: خالق الدهر ومُصَرِّف الدهر، ومُقَدِّر الليل والنهار، وكل شيء فهو بعلم الله، ومن خَلَقَ الله ومن صُنِعَ الله؛ عزَّ وجلَّ.

من سورة الأحقاف

• قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأحقاف: ١٠.

روى البخاري في صحيحه والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه وأقره الذهبي والسيوطي في أسباب النزول وأئمة التفسير: أن الشاهد في هذه الآية هو الصحابي الجليل (عبدالله بن سلام) رضي الله عنه؛ الذي كان يهودياً من أحبار وعلماء اليهود؛ فأسلم وحسن إسلامه، وصار من علماء وفضلاء الصحابة.

وذلك أن النبي ﷺ دخل يوماً إلى كنيسة لليهود في المدينة؛ في يوم عيد لهم؛ لكي يدعوهم إلى الإسلام، ويذكرهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومعهم "عبدالله بن سلام"، وكان قد أسلم، فسكتوا ولم يجبه أحد، فأعاد عليهم فسكتوا، فقال ﷺ: (أبيتم فوالله إني لأنا الحاشر والعاقب وأنا النبي المصطفى؛ آمتتم أو كذبتهم)، ثم انصرف ﷺ عنهم.

فقام "عبدالله بن سلام" وقال: يا معشر يهود؛ أتعلمون من أنا؟ قالوا: أنت أعلمنا بكتاب الله التوراة، وأفقهنا، قال: فإني أشهد أن محمداً نبي الله ورسول الله الذي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فكذبوه، وقالوا فيه شراً، فخرج النبي ﷺ من عندهم ومعه عبدالله بن سلام، وأنزل الله حينئذ قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ

فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

• قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِمَانِ بِهِمَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ الأحقاف: ١٧ - ١٨.

رُوي رواياتٌ ضعيفةٌ غير صحيحة؛ ضعفتها المُحدِّثون والمفسِّرون: أن هذه الآيات نزلت في "عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق" - أخو عائشة - قبل أن يُسلم ﷺ.

حيث كان والده يدعوهُ إلى الإسلام وهو يرفض، هذا بحسب الرواية الضعيفة، وهي رواية واهية ردّها وأبطلها أهل العلم وأهل الحديث وأهل التفسير، ولا تصح، ولذلك بدليلين اثنين:

الدليل الأول: ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها سُئلت عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِمَانِ بِهِمَا﴾ هل نزلت في أخيك عبدالرحمن بن أبي بكر؟ فأنكرت ذلك وكذبتة وقالت: لا، ما أنزل الله فينا آل أبي بكر شيئاً من القرآن إلا ما نزل في براءتي من حادثة الإفك. رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير.

والدليل الثاني: سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها، فإنما ذكر هذه الآية كأنه يُصوّر ابناً عاقاً عاصياً لوالديه كافراً مخالفاً لدينهم، ويُبيّن عقابه في الآخرة، لأنه قال قبل هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا...﴾ الأحقاف: ١٥،

فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكَرَ بَعْدَهَا الْعَكْسَ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ أُسْلُوبِهِ وَمَنْهَجِهِ أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ يَذْكَرُ الْكَافِرِينَ ، وَإِذَا ذَكَرَ بَرَّ الْوَالِدِينَ يَذْكَرُ عَقُوقَ الْوَالِدِينَ ، وَإِذَا ذَكَرَ التَّرْغِيبَ يَذْكَرُ التَّرْهِيْبَ ، وَهَذَا ذَكَرَ (الضدّ) مِمَّا سَبَقَهُ ؛ فَصَوَّرَ صُورَةً أُخْرَى كَأَنَّهُ يَبِينُ أَنَّ ابْنًا يَدْعُوهُ أَبُوهُ وَيَسْتَعِثُّ بِاللهِ وَيَدْعُوهُ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَكِنَّهُ رَفَضَ الْهَدَايَةَ وَأَبَى إِلَّا الْعُقُوقَ وَالْكَفْرَ ؛ فَعِقَابُهُ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَأَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ فِي أَحَدٍ بَعِيْنِهِ ؛ فَالْعِبْرَةُ بَعُمُومِ لَفْظِهَا وَسِيَاقِهَا ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ يَحْرُصُ الْأَبْنَاءَ عَلَى الْبِرِّ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا قُرَّةَ عَيْنٍ لِهَمَّا بِالْإِسْتِقَامَةِ عَلَى التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالِدَعَاءِ ؛ فَهَذِهِ أَبْهَى صُورَةً يَتِمَّنَّاهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ فِي الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ .

نَسَأَلُ اللهُ أَنْ يُصَلِّحَ نِيَّاتَنَا وَذُرِّيَّاتَنَا ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ .

• قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا بَعْدَ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِمُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ الأحقاف: ٢٩ - ٣٢.

روى البيهقي والسيوطي في أسباب النزول والحاكم وصححه وأقره الذهبي وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في (نفر من الجن)^(١) حضروا إلى النبي ﷺ يستمعون إليه القرآن؛ وهو عائد من الطائف حزينا متألما وقد طرده أهلها آنذاك وكذبوه، ولما وصل ﷺ إلى "وادي نخلة" وقام يُصلي ويتلو القرآن - وكانت الجن يستمعون ويسترقون السمع ويصعدون في أطباق السموات - فلما جاء الإسلام ونزل القرآن أرسل الله عليهم الشُّهْبَ، وعلموا أنه حصل في الأرض شيء، وذهبوا يبحثون عن سبب هذا الشيء العظيم الذي نزل من السماء إلى الأرض، ولا يعرفون أنه الإسلام والقرآن، فلما نزل هؤلاء النفر من الجن في وادي نخلة حيث كان النبي ﷺ، وسمِعوه يقرأ القرآن سكتوا وسمعوا القرآن وتأثروا به ووقع في قلوبهم، ثم رجعوا إلى قومهم من الجن يُنذرونهم ويُعلمونهم هذا القرآن ويدعونهم إلى هذا الإسلام

(١) والنفر - في لغة العرب - ما دون العشرة، وفي الروايات الصحيحة أنهم كانوا "تسعة من الجن".

وَيُحَدِّثُونَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ ، وَنَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا...﴾
وهنا فائدتان :

الأولى : أن قول الجن : ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ لم يذكروا عيسى عليه السلام ولا الإنجيل ؛ رغم أنها نزلت بعد موسى ، قال أهل التفسير : لأن عيسى في الأصل جاء مُتَمِّمًا لرسالة موسى ، فالتوراة هي الأصل في شريعة بني إسرائيل ، وجاءت شريعة عيسى والإنجيل مُكَمِّلةً لشريعة موسى والتوراة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾الصف ٦.

والفائدة الثانية : أن في هذه القصة تعريض وتوبيخ وتهكّم بكفار قريش وسائر كفار الإنس ؛ الذين أتاهم محمد عليه السلام من أنفسهم وبلغتهم ؛ فكذبوه وكفروا به وعاندوه ، بينما (الجنّ) سَمِعُوا الرِّسُولَ وَالْقُرْآنَ .. فَأَذَعَنُوا وَانكَسَرُوا وَأَمَنُوا ، وفوق ذلك رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، ويقولون : ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

هذا خطاب "مؤمني الجن" لباقي الجن ولكفار الجن ، وهو خطابٌ عظيم ؛ كما حكى الله عنهم !. فماذا عن الإنس؟

نسأل الله أن يجعلنا من المؤمنين المسلمين المتقين الخائفين الوجلين المهتدين الثابتين المنقادين لأمر الله.

مِن سُوْرَةِ مُحَمَّدٍ

● قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرِيْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ

فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ محمد: ١٣.

روى الترمذي وابن حبان والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: أن هذه الآية نزلت عندما خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة؛ فلما خرج من مكة) التفت إليها وقال: لأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك، فأنزل الله هذه الآية تسلياً له ﷺ، وأنه قد أصاب الأنبياء السابقين والقرى السابقة ما أصابه.



مِن سُوْرَةِ الْفَتْحِ

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهِمَا وأبو داود والترمذي وأحمد وأهل التفسير: أن (سورة الفتح) نزلت بكاملها في صلح الحديبية؛ الذي تم في قرية الحديبية قريباً من مكة، عندما رأى النبي ﷺ أنه يذهب إلى الحرم ويدخله مُحْرَمًا وَيَعْتَمِرُ.

فانتدب معه (ألفاً وأربعمائة من أصحابه)؛ فساقوا هديهم معهم وذهبوا إلى مكة قاصدين العمرة؛ ولما وصلوا إلى (قرية الحديبية) صدتهم قريش عن دخول الحرم وعن العمرة، وكان في هذا الصد خير كثير؛ إذ كتبت بين (المسلمين) وبين (مشركي مكة) بنود الصلح..

ومن تلك البنود: أن يؤخر المسلمون عُمرتهم إلى العام القادم، ومنها أن يتركوا القتال والحرب عشر سنوات، وتكون هدنة بين الطرفين عشر سنوات، ومنها أنه إذا خرج أحد من الكفار إلى المسلمين فعلى المسلمين إرجاعه، بينما إذا ذهب من عند المسلمين إلى الكفار لا يلزم إرجاعه..

فغضب بعض الصحابة من هذه البنود، ومنهم "عمر"، وقال: يارسول الله، أناخذ الدينية في ديننا؟!، ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فقال النبي ﷺ: يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيئني الله أبداً.

فأنزل الله سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا...﴾؛ وقرأها النبي ﷺ

على الصحابة، قالوا يا رسول الله: أوفتح هو؟! فقال ﷺ: (نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح)، فطابت نفوس الصحابة.

وبالفعل كان فتحاً عظيماً، بل إنه لم يمرّ على قريش سنةً من العَشْرِ سنواتٍ إلا وقد خانوا العهد وغدروا واعتدوا ونقضوا البنود التي كانوا اتفقوا مع المسلمين عليها؛ وكتبت بينهم وثائق فيها ..

وذلك أن قبيلةً من القبائل التي تُحالف قريشاً اعتدت على قبيلة مُسلمةٍ تُحالف المسلمين؛ مُتناسين هدنة العَشْرِ سنواتٍ، فلم يتم الصلح إلا وقد ظهر هذا الاعتداء منهم، فكان هذا الاعتداء سبباً لترتيب فتح مكة؛ وغزوة فتح مكة وحنين والطائف، ورُتب لها النبي ﷺ نُصرةً لإخوانهم الذين اعتدوا عليهم، وانتقاماً من قريش التي نقضت العهد، وانتدب الرسول ﷺ المسلمين للخروج لهذه الغزوة؛ وأن يجعلوه سراً مكتوماً لا يُطلع عليه أحد أبداً.

ثم خرج ﷺ بعشرة آلاف معه من المسلمين، حتى حاصروا مكة من جهاتها الأربع، واستسلمت قريش، وتم فتح مكة، ورفُع الأذان فوق الكعبة، رفعه "بلال بن رباح" رضي الله عنه.

وعمَّ الإسلامُ مكة، ودخل النبي ﷺ الحرم مُطأطئ الرأس متواضعاً لله شاكراً لله، وخطب في الناس وحثهم على دين الله وعلى التوحيد وعلى نبذ الشرك، وهدم ﷺ الأصنام التي حول الكعبة؛ هدمها وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ودخل ﷺ الكعبة وصلّى فيها، ثم طمس التماثيل والشركيات التي وضعتها قريش داخل الكعبة، وانتشر التوحيد في أرجاء مكة والحرم وفي أرجاء الجزيرة.

وأرادت ثقيف وأهل الطائف أن يُهاجموا النبي ﷺ والمسلمين عند دخولهم مكة، وخرجوا بالآلاف مؤلفة بأموالهم وأغنامهم وذرايرهم، والتقى المسلمون ومشركو ثقيف وهوازن والطائف في (وادي حنين) بين مكة والطائف، وحصل بينهم معركة عظيمة التي انتهت بنصر المسلمين وغنموا ما مع المشركين من غنائم، وذكر الله ذلك في كتابه فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيثَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ التوبة: ٢٥-٢٦.

وروى البيهقي في الدلائل والسيوطي في أسباب النزول وأهل التفسير: أنه ﷺ لما كتب (بنود الصلح) مع قريش - في صلح الحديبية - نحر الهدي وأحلّ من إحرامه، وقفل راجعاً إلى مكة، وأخّر العمرة إلى العام القادم بناءً على بنود الصلح، فقال البعض من الصحابة: أين رؤياك يا رسول الله؟ فقرأ ﷺ الآية من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا يَخَافُونَ﴾ الفتح: ٢٧، وبالفعل دخلوا المسجد الحرام آمينين مُحَلِّقِينَ رُءُوسَهُمْ لَا يَخَافُونَ؛ لأنه حينئذ قد انكسرت شوكة قريش، وانطمس الشرك، وفتحت مكة، وانتشر الإسلام والتوحيد في أنحاء الجزيرة العربية بأكملها، وهُدِمَت الوثنية، وأقيم على أنقاضها العقيدة الإسلامية الصحيحة الخالصة لله رب العالمين.

• قوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الفتح: ٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد وأهل التفسير:

أن هذه الآية نزلت عندما تلا النبي ﷺ سورة الفتح على المسلمين في قرية الحديبية؛ بعدما نَحَرُوا هَدْيَهُمْ، وقال: لقد أنزلت عليّ آيتان هما أحب إليّ من الدنيا جميعاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۗ (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

وَيَتَّبِعْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۗ (٢) وَيُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾.

فلما تلاها قالوا: يا رسول الله هنيئاً مريئاً؛ قد بين الله لك ما يفعل

بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وفي عمرة الحديبية وصلح الحديبية وفتح مكة تفصيلاً طويلاً، ومواقف

عجيبة، وقصص كثيرة، وعبرٌ نادرة، ليس هذا مقام تفصيلها، وقد بينتها في

كتابي "الرحمة العالمية في صحيح السيرة النبوية".

من سورة الحجرات

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۗ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ الحجرات: ١ - ٣.

روى البخاري والترمذي وأحمد وابن جرير في التفسير والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في بعض أصحاب النبي ﷺ، وذلك عندما قدم إلى رسول الله ﷺ وفد بني تميم - وهم إحدى قبائل نجد - فقال أحد الصحابة: يا رسول الله: أمرٌ عليهم فلاناً، فقال صحابي آخر: بل أمرٌ عليهم فلاناً، فقال الأول: إنما أردت خلافي، وقال الثاني: ما أردتُ خلافك.. فتجادلا وارتفعت أصواتهما بين يدي رسول الله، ولا سيما أنهما تكلمتا واقترحا وهما بين يدي رسول الله، ولا يُقدّم على الله ورسوله كلامٌ ولا رأيٌ..

فأنزل الله هذه الآيات التي نهت عن تقديم الرأي على كلام الله وكلام رسوله، وتنهى عن رفع الصوت بين يدي رسول الله؛ احتراماً له وتعظيماً لمقامه ﷺ، وتبين أن غضّ الصوت عند رسول الله هو من التقوى؛ والأجر على ذلك عظيم.

والعبرة في هذه الآيات وهذا الموقف بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإنه ينبغي على كل مؤمن أن لا يُقدّم رأياً ولا مشورةً ولا فكرةً على كلام الله وكلام رسوله، فإذا وُجد في كلام الله وكلام رسوله البيان والحكم فإنه لا يجوز أن يُقدّم عليه شيء.

كما يجب على كل مؤمن أن يحترم كلام الله وسنة رسوله ﷺ ويُعظمها ويعترف لها بالقداسة، فهذا من علامات إيمان القلب وصدقه.

ومن الفوائد: أيضاً أنه قد يحصل من الفاضل بعض المواقف التي يرى من المصلحة أن يتكلم فيها أو يتصرف تصرفاً يجتهد فيه، كما حصل من هؤلاء الصحابة الفضلاء، ففي بعض الروايات أنهما "أبو بكر وعمر"؛ اللذان تجادلا ورفعا الصوت بين يدي رسول الله ﷺ؛ كما في رواية البخاري.

وعلى أية حال؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وليس أحدٌ معصوم إلا الرُّسل، أما الصحابة وسائر الأمة فليسوا معصومين، بل يجتهدون ويُخطئون، ويقع منهم الصواب، كما يقع منهم الخطأ، وقد يكون من حكمة الله أنه - تعالى - يريد هذه الأشياء - خاصة في صدر الإسلام وعصر الصحابة - لتكون تشريعاً لمن بعدهم إلى يوم القيامة.

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحجرات: ٤ - ٥ .

روى الطبراني والترمذي والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير في سبب نزول هذه الآيات: أنه جاء ناسٌ - من أعراب العرب - إلى حُجرات النبي ﷺ؛ مع الظهيرة، فأخذوا ينادونه: يا محمد اخرج إلينا، فنزلت هذه الآية تُعاتبهم وتبين لهم أن يلتزموا الأدب مع مقام النبي ﷺ، ويتأدّبوا بأدب الزيارة باختيار وقتها، وبخفض الصوت، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أي باسمك بصوتٍ مرتفع ﴿مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ وانتظروا حتى خروجك من حُجراتك إليهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأنه أكمل في الأدب وتهذيب الزيارة مع النبي ﷺ.



• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا

بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ المحجرات: ٦.

روى الطبراني وأحمد والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير بإسنادٍ صحيح: أن النبي ﷺ بعث (الوليد بن عُقبة) إلى إحدى قبائل العرب ليَقْبِضَ ما عندهم من الزكاة التي يَجْمَعُونَهَا، فلما اقترب الوليدُ منهم رَقَّ وخاف وفرع؛ ورجع إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله: إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، وكان قد كذب وأخطأ في هذا النبأ الذي جاء به.

فأرسل النبي ﷺ إليهم مَنْ يَسْتَبِينُ الأمر، وأراد بعض الصحابة مُقاتلتهم لِمَنَعَهُم الزكاة، فأنزل الله قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فعلى كلِّ ناقل خَبْرٍ أو سامع خَبْرٍ أن يَتَبَيَّنَ وَيَتَيَقَّنَ؛ خاصَّةً في عَصْرِنَا هذا..، الذي كَثُرَتْ فيه المجالس والتقنيات والجوالات وبرامج ومواقع التواصل؛ وصارت ميداناً للإشاعات والأكاذيب وتناقُلُ الأنباء فيها بكلِّ سهولةٍ وسُرعةٍ..، مما يوجب علينا الأخذ بهذه الآية بشدَّة، والتبَيَّن والتشَبَّت، حتى لا نُصِيب قوماً بجهالة، وحتى لا نقع في خطأ، ولا نَظْلِم أحداً، ولا نَتَّهِم بريء؛ فنأثم الإثم العظيم على ذلك، وربما حَصَلَتْ فِتْنٌ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَا؛ لِمَنْ لا يَتَشَبَّت ولا يَتَأَنَّى ويأخذ بالبينات والبراهين على التُّقُول والأخبار..

وكما قيل: "إن كنتَ ناقلًا فالصِّحَّة، أو مُدَّعيًا فالدليل".

• قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتَلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات: ٩.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت عندما قيل للنبي ﷺ: يارسول الله لو أتيت "عبدالله بن أبي بن سلول" المنافق؛ في أول إظهاره للإسلام وإبطانه الكفر، فأتاه النبي ﷺ ومعه طائفة من الصحابة لكي يدعوه إلى الإسلام ويذكره بالله..

فلما اقترب ﷺ من هذا المنافق قال: (إليك عني - أي: ابتعد عني - فقد آذاني نتن حمارك)، وكان ذلك كرهاً من هذا المنافق لرسول الله ﷺ.

فقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيّب ريحاً منك، فغضب المنافق "بن سلول" وغضب له منافقون من قومه، وغضب للأنصاري رجالٌ من قومه، فحصل بينهما شجار وشتام وضربٌ بالأيدي والنعال والجريد، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا..﴾. فلم يزل رسولُ الله ﷺ يخفضهم - أي: يهدئهم - حتى سكتوا.

العبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنه يجب وجوباً على من اطلع على شجارٍ أو نزاعٍ أو خلافٍ بين اثنين أو بين أسرتين أو بين قبيلتين أو طائفتين .. ينبغي عليه - بقدر استطاعته - الإصلاح وفضّ النزاع وحمل الناس على "الاستعاذة بالله من الشيطان" وعلى ترك الخلاف والاقتيال.

وإذا كان فيهم (غالبٌ ظالمٌ) فينبغي أن يُدحرَ من ظلمه، وأن يُنصرَ المظلوم، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾. وفي هذه القصة فوائد عظيمة، منها:

أنه قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ "الاقْتِتَالُ لا يَعْنِي الْقَتْلَ الذي هو إهدار الدم؛ وإنما يقصد به النزاع والشجار والمُلاَسَنَةُ بالكلام، وهذا يَشْمَلُ ما فوقه، ولذلك مهما كان النزاع قليلاً أو صغيراً ينبغي الإصلاح..؛ كما قال الراوي: "حَصَلَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَالْأَيْدِي". وفي روايةٍ أُخْرَى: وليس ضَرْباً بِالسَّيْفِ، مما يدل على أن النزاع الذي حَصَلَ في هذه القصة أنه مُجَرَّدُ كَلَامٍ وَمُلاَسَنَةٍ وَضَرْبٌ بِالنِّعَالِ وَالْأَيْدِي والجريد، وليس فيه ضربٌ بالسيف..

ومع ذلك اهتمَّ به القرآنُ اهتماماً عظيماً يوجب فيه الإصلاح، فكيف بالمشاكل الكبيرة التي يَحْصُلُ فيها نزاع، وربما يَحْدُثُ فيها جراح أو دماء؛ فحينها يكون أشدَّ وجوباً في الإصلاح بين الطوائف.

ومن فوائد هذه القصة: تواضع النبي ﷺ في رُكْبَةِ الْحِمَارِ وَمَشِيهِ فِي حَوَائِجِهِ.

ومن الفوائد أيضاً: حُبُّ الصَّحَابَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ وَحِرْصُهُمْ عَلَيْهِ وَالِدِفَاعُ عَنْهُ وَعَنْ سُنَّتِهِ وَالذَّبُّ عَنْ عَرِضِهِ الشَّرِيفِ.

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا نَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الحجرات: ١١.

روى الترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والبخاري في الأدب المفرد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: عن الصحابي الجليل (أبي جبير بن الضحاك الأنصاري) رضي الله عنه قال: كان الرَّجُلُ مَنَّا يكون له الاسمان والثلاثة أسماء؛ فيدعى ببعضها؛ فيكره ذلك، ولما دخل رسولُ الله ﷺ المدينة مهاجراً سَمِعَ الأنصار في المدينة من أيام الجاهلية للواحد ثلاثة وأربعة أسماء، فكان ﷺ يدعو بعضهم ببعض تلك الأسماء، فيغضب من ذلك الاسم ويقول: يا رسول الله، إني أغضب منه، فأنزل الله هذه الآية تُحرّم السخرية والتنازع بالألقاب.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإن هذه الألقاب وما يُسمّى العير والمعايرة وذكر الناس بعيوبهم أو بغير أسمائهم؛ إما بقبائلهم أو بأسرهم أو بعيوب فيهم.. هذا كُلُّه من عادات الجاهلية ومن الأمور المحرّمة، وينبغي أن يترفع عنها المسلم، وأن يتوب إلى الله منها، لأنه قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

(١) هناك خلاف في صُحبة (أبي جبير بن الضحاك) لكن الصحيح عند المحققين من أهل الحديث أنه صحابي جليل وله صحبة؛ قالوا لأن أصحاب السنن أخرجوا له أحاديث ولم يذكروا أنها مُرسلة، ومَن يَعْلَم حجةً على من لا يَعْلَم، والله أعلم.

• قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ

عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الحجرات: ١٧.

روى الطبراني والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير بأسانيد صححوها: أن هذه الآية نزلت في قوم قالوا: يا رسول الله جئناك وأسلمنا، وقاتلك العرب ولم نُقاتلك ..، وأخذوا يَمُنُونَ على رسول الله أنهم أسلموا، فنزلت هذه الآية تُعَاتِبُهُمْ وتُحْطِئُهُمْ، وتُبَيِّنُ أنه ليس لهم مِنَّة، ولكن المِنَّة لله الذي هداهم وأرشدهم للإيمان والرشاد، وَمَنْ عَلَيْهِم بِأَسْبَابِ النِّجَاةِ مِنَ النَّارِ. والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فهذه الآية تفيد تحريم المَنْ والأذى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة ٢٦٢، فمفهوم المُخَالَفَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ مَنْ يَتَمَنَّ أَنْ عَلَيْهِ الْإِثْمَ بِدَلِّ الْأَجْرِ، وتنعكس عليه الآية، وهذا في الأموال والصدقات والهدايا.. فكيف بمنّ الدين والإسلام، فالمِنَّة لله؛ لأن الإنسان هو المستفيد وهو المتضرر، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ.. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فصلت: ٤٦.

فلا يجوز للإنسان أن يَمُنَّ بدينٍ ولا عملٍ ولا عبادةٍ ولا صلاةٍ ولا صدقةٍ ولا نفقاتٍ ولا معروف..، فإنه يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ ولا يَعْمَلُ لِأَحَدٍ، فهو المستفيد وهو المتضرر، وقد أخبرنا الله - تعالى - أن أهل الجنة يوم القيامة يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الأعراف: ٤٣.

من سورة النجم

• من قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزَّرْنَا وَإِزْرَةً ﴿٣٨﴾ وَزَرَّ أُخْرَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ النجم: ٣٣ - ٤٢ .

روى السيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في مُشْرِكٍ أتى صديقاً له أسلم؛ وقال له: أتركت دين آلهتك وزعمت أنهم في النار؟ فإني أعطيك مالاً وأتحمل عنك العذاب وتترك دينك.

فأعطاه مُدَّةً؛ ثم قطع عنه ما كان يعطيه، وتعاسرا على هذا الأمر، فقال له: أتحمل عنك وزر القيامة، فنزلت هذه الآيات توبّخهما، وتبين أنهم يوم القيامة لا يحمل أحدٌ عن أحدٍ شيئاً، ﴿ وَلَا نَزَّرْنَا وَإِزْرَةً ﴿٣٨﴾ وَزَرَّ أُخْرَى ﴿٣٩﴾ الأنعام: ١٦٤ ، و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ المدثر: ٣٨ .



مِن سُوْرَةِ الْقَمَرِ

• قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا

وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ القمر: ٢.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأهل التفسير: أن هذه الآيات نزلت عندما سأل كفار قريش النبي ﷺ أن يأتيهم بآية، تُبَيِّنُ صِدْقَهُ وَصِدْقَ نَبْوَتِهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ آيَةً (انشقاق القمر) فانشققت فلقتين؛ من شرق وغرب جبل النور، ورأوه أمامهم مُنْشَقًّا، فَمِن كِبْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَغَطْرَسَتِهِمْ وَتَمَادِيهِمْ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ.

فأنزل الله هذه الآيات تبين أن انشقاق القمر آية حقيقية، وأنه انفلق ليكون آية من آيات الله لهم، وأن انشقاقه علامة على قرب يوم القيامة، وأنهم في آخر أيام الدنيا، ولكنهم يكذبون ويتبعون أهواءهم.



• قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩.

روى مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد وأهل التفسير: أن هذه الآية نزلت عندما جاء المشركون يُخاصمون النبي ﷺ ويُجادلونه في القضاء والقدر، ويحتجون به، ويقولون إن الأشياء تحدث بغير أقدار الله، فنزلت هذه الآية تكذبهم، وتبين أن كل شيء خلقه الله بقدر، وأن كل شيء من خيرٍ ومن شرٍّ ومن حلوٍ ومُرٍّ.. فهو بقضاء الله وقدره، وأن القدر أربع مراتب: العلم، والخلق، والكتابة، والمشية.

فالعلم: أي علم الله بكل شيء.

والكتابة: أي إن الله قد كتب كل شيء عنده.

والخلق: أي إن الله هو الخالق لكل شيء ولكل حدث.

والمشيئة: أي مشيئة الله وإذن الله وإرادة الله لكل شيء أن يكون فيكون، فما من حدث يحدث وما من خيرٍ ولا شرٍّ ولا قضاءٍ أو قدرٍ إلا والله قد علمه وكتبه وهو الذي خلقه، وهو الذي يأذن بحصوله، ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

وهذا من أركان الإيمان، ومن صلب عقيدة المؤمن، وإنكاره ينقض

الإيمان ويحبط العمل.



مِن سُوْرَةِ الْوَاقِعَةِ

• قوله تعالى: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيْثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ

تُكْذِبُونَ﴾ الواقعة: ٨٢.

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهِمَا وأبو داود وابن حبان وابن جرير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت عندما كان النبي ﷺ وأصحابه في سفر صلح الحديبية - وصلى بهم "صلاة الصبح" على أثر مطرٍ كان من الليل، فلما سلم من الصلاة استقبل أصحابه وقال لهم: (قال ربكم - تبارك وتعالى - أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فهو مؤمنٌ بي كافر بالكواكب، ومن قال: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا وَبَنَجْمِ كَذَا وكذا فهو كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب) رواه البخاري ومسلم.

والأنواء: هي منازل النجوم والقمر ومسارات الكواكب.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي تجعلون شكركم لله ﴿أَنْكُمْ تُكْذِبُونَ﴾ بوحدايته

وربوبيته وفضله، وتنسبون الأمطار إلى المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر.

والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنه يجب على

المسلم أن ينسب الأمور والأمطار والخير إلى الله؛ فهو - سبحانه - المدبر

والمصرف والأمر لكل شيء، ولا يرزق إلا الله، ولا يُدبر إلا الله، أما النجوم

والكواكب والأحوال فهي مجرد أسباب وعلامات.

ومن استسقى بالأنواء والنجوم أو اعتقد أن لها تأثيراً حقيقياً في إنزال

الأمطار أو إنبات الأشجار أو تحريك السحاب.. فإنه قد أشرك واختلت عقيدته.

من سورة الحديد

• قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ ءِيُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ

رَحْمَتِهِ وَبَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءَوَيَغْفِرْ لَكُمْ ءَوَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديد: ٢٨.

روى الطبراني والسيوطي والواحدي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: أن بعضاً من أهل الكتاب - من يهودٍ ونصارى - لما أسلموا وآمنوا بالإسلام والقرآن وآتاهم الله أجرهم مرتين - مرة على إيمانهم بالتوراة والإنجيل، ومرة على إيمانهم بالقرآن - وامتدحهم الله وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ القصص: ٥٤؛ افتخر بعضهم بالأجرين على المسلمين الذين لهم أجرٌ واحد.

وبعض أهل الكتاب كان يقول: إن الرسول الجديد سيكون منا معشر يهود، فلما خرج محمد ﷺ من العرب حسدوه وأنكروا عليه نبوته.

فأنزل الله قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ ءِيُؤْتِكُمْ

كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءَوَيَغْفِرْ لَكُمْ ءَوَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فأعطى الله - سبحانه - المسلمين كفلين ونوراً ومغفرة، ثم بين أن فضله واسع، وأن أهل الكتاب لا يستطيعون تضيق فضل الله الذي بيده خزائن كل شيء؛ فقال: ﴿لَيْلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ءَأَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ءَوَأَنَّ

الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ءَوَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الحديد: ٢٩.

- وفي الصحيحين : عنه ﷺ قال : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين :
- رَجُلٌ كانت له أمةٌ مملوكة ؛ فأدبها وعَلَّمها ثم أعتقها وتزوَّجها.
- وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حَقَّ الله وحَقَّ سيِّده.
- ومؤمِنٌ أهل الكتاب اليهود والنصارى ، الذي آمَنَ بموسى وعيسى ،
- ثم آمَنَ بمحمد ﷺ واتَّبَعَهُ) رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي.



من سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ

إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ

غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا

ذَلِكَ تَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ المجادلة: ١ - ٣.

روى البخاري والنسائي وأحمد والحاكم وصححه والسيوطي في

أسباب النزول وابن جرير وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في

(خولة بنت ثعلبة) وجدالها مع رسول الله ﷺ وشكواها في زوجها (أوس بن

الصامت) عندما ظاهر منها - أي: قال: أنت علي كظهر أمي - وهذه اللفظة

تعني أنه يُحرّمها على نفسه، وهي من عادات الجاهلية..

تقول عائشة - رضي الله عنها -: تبارك الذي وسّع سمعه كل صوت،

وإني وأنا في ناحية البيت ما كنتُ أسمع ما تقول ولا أسمع شكواها.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإن الظهار

مُحرّم في الإسلام، ومن ظاهر من زوجته وحرّمها على نفسه فإنها تحرّم عليه

حتى يُكفّر (كفارة الظهار). وهي كما جاءت في الآية بالترتيب: ١ - عتق رقبة

مؤمنة. ٢ - فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. ٣ - فإن لم يستطع فإطعام

ستين مسكيناً. فإذا كفر بذلك حلّت له زوجته؛ وإلا فلا؛ حتى يُكفّر.

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهَوُا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ

بِالْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي

أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ المجادلة: ٨.

روى مسلم في صحيحه وأحمد والطبراني والواحدي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: أن هذه الآية نزلت في يهود المدينة ومُنافقيها؛ حيث كانوا إذا مرّ بهم صحابيٌّ أو دخلوا مجالس الصحابة أو أتوا مجلس النبي ﷺ فإنهم يجلسون في ناحية ويتناجون فيما بينهم؛ حتى يظنّ المؤمنون أنهم يتناجون ويهمزون فيهم، وكره المؤمنون ذلك منهم.

فنهى النبي ﷺ اليهود والمنافقين عن هذا التناجي؛ لأنه يُسبب سوء الظن وتفكيك الصفوف وإيغار الصدور؛ وقال ﷺ: (لا يتناجَ اثنان دون الثالث) رواه البخاري ومسلم.

فلم ينتهوا؛ فأَنْزَلَ اللهُ فيهم هذه الآية، وحرّم التناجي، وأنه خُلِقَ ذميمٌ من صفات المنافقين.

ثم إن هؤلاء اليهود والمنافقين كانوا إذا قابلوا النبي ﷺ قالوا في تحتهم:

"سأّم عليك"، فذمّهم الله وفضح طويبتهم؛ وأنزل فيهم قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾؛ فالله حيّاً رسوله بالسلام والرحمة والبركة، فبين الله قصدهم، وتوعدهم بالعقاب.

والعبرة في هذه الآيات هي بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فينبغي للمؤمن أن يترفع عن التناجي في المجالس إذا كانوا اثنين، وكذلك ينبغي أن

يحرص المؤمن على تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) عند اللقاء وعند الوداع، فإن كل كلمة منها حسنة والحسنة بعشر، ففيها ثلاثون حسنة؛ لمن أداها مؤمناً محتسباً.

وللتبنيه: حَوْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ المجادلة: ٢٢، روى بعض المفسرين والمؤرخين: أنها نزلت في (أبي عبيدة بن الجراح)، وأنه قتل أباه يوم "غزوة بدر" ..

ولكن هذه الرواية ضعيفة مُرسلة مقطوعة السند؛ بل هي واهية؛ لم تثبت عند المحققين من أهل العلم بإسنادٍ صحيح؛ ولا أن أبا عبيدة قتل أباه، ولم يحصل أن صحابياً قتل أباه أو قريباً له كان على الكفر، وخاصة الآباء! ومما يدل على ضعفها وبطلانها أن الله - تعالى - أوصى بالوالدين ولو كانا مشركين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ لقمان: ١٥، فهذا أمرُ الله، وهذه الأفعال المروية تُخالف أمرَ الله؛ مما يدل على عدم صحتها. والله أعلم.

مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ

• قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الحشر بكاملها : ٢٤-١.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والحاكم وأحمد والواحدي في أسباب النزول وأئمة التفسير: أن سورة الحشر نزلت في (يهود بني النضير)، وإجلاتهم من المدينة، وأن طائفةً من يهود المدينة آذوا النبي ﷺ وحاربوا الإسلام والمسلمين، ونقضوا العهد، وظاهروا المشركين على المسلمين..

فحاصرهم النبي ﷺ حتى اختاروا الجلاء والخروج من المدينة إلى الشام؛ على أن لهم ما حملت رءوسهم من الأمتعة والأموال؛ إلا السلاح، فخرّبوا بيوتهم بأيديهم، وأجلاهم الله من المدينة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن (سورة التوبة) نزلت في اليهود والمنافقين وأفعالهم في غزوة تبوك، وأن (سورة الأنفال) نزلت في غزوة بدر، وأن (سورة الحشر) نزلت في غزوة بني النضير.

وحصل في هذه الغزوة أثناء حصار (يهود بني النضير) اضطّر المسلمون لقطع نخيلهم وأشجارهم، فأنزل الله قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ أي نخلة ﴿أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ففي هذه الآية أن للإمام جواز قطع أشجار العدو إذا كان هناك مصلحة حربية أو مصلحة عامة للمسلمين.

وَحَصَلَ أَنَّ بَعْضًا مِنَ (الْمُنَافِقِينَ) أَتَوْا إِلَى (يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ) وَوَعَدُوهُمْ بِالمُسَاعَدَةِ وَالتُّصْرَةِ؛ فَلَمَّا أُجْلُوا خَذَلُوهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ - سُورَةِ الْحَشْرِ - قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ﴾؛ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ ﴿الحشر: ١٢.



• قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ

نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر: ٩.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والحاكم والواحدي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآية نزلت عندما أتى أحد المهاجرين إلى رسول الله يريد الأكل والضيافة، فسأل ﷺ نساءه ما معهن من أكل؟ فلم يجدن غير الماء، فقال ﷺ لأصحابه: (مَن يَسْتَضِيفُ هَذَا وَيُطْعِمُهُ؟) فقال رجلٌ من الأنصار: أنا يا رسول الله، ثم انطلق هذا الأنصاري إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، قالت: ما عندنا إلا قوتُ الصبيان، فقال لها: هيئي طعامك، وأسرجي سراجك، ونومي صبيانك.

فهياتِ الطعام، ونومتِ الصبيان، وقدمتِ الأكل للضيف، ثم ذهبت هي إلى السراج كأنها تُسرجه فأطفأته مُتعمدة، وجعلا يُريان الضيف أنهما يأكلان؛ وهما لا يأكلان؛ إنما باتا طاويين - أي جاعين هما وصبيانهما - فلما أصبح هذا الأنصاري وغدا إلى رسول الله قال ﷺ له: (لقد ضحك الله الليلة من صنعكما)، وفي رواية: (عجب الله من فعالكما) وراه البخاري ومسلم.

وأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ وهذه الآية بكاملها مدحٌ في المهاجرين وفي الأنصار وإيثارهم كرمهم، فقال - تعالى - في المهاجرين: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ أي مكة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

وقال في مَدْحِ الْأَنْصَارِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الحشر: ٩، أي الْأَنْصَارِ تَبَوَّءُوا وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ قَبْلَ الْمُهَاجِرِينَ ﴿يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ الحشر: ٩، وَيُظْهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ هذا الْأَنْصَارِيُّ أَثَرُ هَذَا الضَيْفِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَعَلَى الصَّبِيَّانِ فَامْتَدَحَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَذَكَرَ أَنَّ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَهُوَ مِنَ الْمَفْلِحِينَ - وَالشُّحُّ هُوَ شِدَّةُ الْبَخْلِ -.

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْمُومِ لَفْظِهَا لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهَا؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ الْمَخْلُصِ أَنْ يُحِبَّ الصَّحَابَةَ وَيَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي الْكِرَامِ وَفِي الْإِيثَارِ وَيَتَرْضَى عَنْهُمْ، وَيَتَرَفَعُ عَنِ الْبَخْلِ الشَّحِّ وَالغِلِّ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ، وَيَحْرِصُ عَلَى إِطْعَامِ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ وَطِيبِ الْكَلَامِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَيَدْعُو لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُصَفِّي قَلْبَهُ وَيُنْقِيهِ؛ لَعَلَّهُ يَنَالُ رَحْمَةَ اللَّهِ وَعَفْوَهُ وَرِضْوَانَهُ، وَبِهَذَا يَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ التَّابِعِينَ الَّذِينَ مَدَحَهُمُ اللَّهُ - فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا - فَقَالَ:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر: ١٠.

اللهم اجعلنا منهم بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

من سورة المتحنة

• قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ المتحنة: ١.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وابن كثير في التفسير والواحي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في (حاطب بن أبي بلتعة) رضي الله عنه ، وذلك أنه كتب كتاباً إلى (قريش) يُخبرهم فيه بأن النبي ﷺ يُجهِّز لغزوة فتح مكة، مع أنه ﷺ قد استأمن الصحابة على الكتمان، وأمرهم بالإسرار، وأن لا يُذيعوا خبر الفتح؛ حتى تتم مبادرة قريش بالغزو والفتح.

وأرسل حاطب رضي الله عنه هذا الكتاب مع ظعينة - أي امرأة مسافرة - لتوصيله إلى قريش، فعلم النبي ﷺ بالوحي؛ فبعث (عليّ والزبير والمقداد بن الأسود) وراء هذه المرأة ليأخذوا الكتاب منها ويأتون به، فلحقوا بها؛ وقالوا أخرجي الكتاب أو لننزعن الثياب، فأخرجته من "عقاصبها" - أي ظفائر شعرها - فأخذه وأتوا به إلى رسول الله ﷺ؛ فإذا هو من (حاطب بن أبي بلتعة) إلى ناس من المشركين بمكة يُخبرهم بأمر رسول الله ﷺ وما يُجهِّز له من غزو مكة، فقال ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، فإن المهاجرين لهم قرابات في مكة يحمّون بها أموالهم وأهلهم هناك، وليس لي أنا

قراية في مكة ؛ فأحبيتُ أن أتخذَ عندهم يداً ومعروفاً حتى يَحْمُونَ بها أموالِي في مكة ، وإنني لَم أفعل ذلك كُفراً ولا رِدَّةً عن ديني ولا رِضاً بالكُفْرِ .
فقال رسول الله ﷺ : صدَق .

قال عُمر : يا رسول الله ، قد نافق فدعني أضرب عنقه ، فقال ﷺ : إنه من أهل بدر ، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم .

فأنزل الله هذه الآية .

والعبرة فيها بعُموماً لفظها لا بخصوص سببها ؛ فإنه لا ينبغي للمؤمن الصادق - في أي زمان ولا مكان - أن يتخذ الأعداء أولياء ، ولا يثق في الذين يُعادون الله ورسوله ودينه وكتابه ، ولكن الواجب أن يتبرأ منهم ويحذر أن يُظاهِرهم على المسلمين أو يواليهم من دون المسلمين .

وما حصل من "حاطب" هو زللٌ فرديٌّ بشريٌّ ، فعَله باجتهادٍ خاطئٍ لأجل أمواله لا موالاةً للمشركين ، وقد اعترف وتاب وأتاب ﷺ .

• قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المتحنة: ٩.﴾

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وأبو داود وأحمد وأهل التفسير: أن هذه الآيات نزلت في (أسماء بنت أبي بكر) رضي الله عنها؛ عندما قدمت إليها (أمها) المشركة؛ والتي كان "أبو بكر الصديق" قد طلقها من قبل في مكة في الجاهلية، فقدمت أمها إليها في (وقت عهد قريش). - أي في مدة العهد مع كفار قريش والذي اتفق عليه في "صلح الحديبية"؛ وفيه: أن من قدم من المشركين إلى المسلمين فإنه يُعاد للمشركين.

وأنت أم أسماء بنت أبي بكر المشركة إلى ابنتها أسماء في المدينة في مدة العهد، وجاءت معها بهدايا لتهديها إلى ابنتها ولعلها تستقبلها، فلما جاءت إلى ابنتها أسماء رَفَضَتْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا شَيْئاً مِنَ الْهَدَايَا حَتَّى تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ وَتَسْتَأْذِنَهُ؛ وَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أُمَّي أَتَنِي مَشْرِكَةً، أَفَأَصِلُهَا؟ فقال ﷺ: (نعم صلي أملك) رواه البخاري ومسلم.

فأنزل الله هذه الآيات: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ... ﴿

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنه يجوز للمسلم أن يبرّ ويحسن إلى والديه الكافرين، وكذلك يجوز للمسلم أن يُحسن إلى الكافر الذي لم يُحارب؛ ويُحسن معاملته؛ ترغيباً له في الإسلام. كما أن الإسلام يُقوي روابط القرابة والصلة، ويؤكد على شدة الإحسان إلى القرابة والوالدين والأقارب ونحوهم.. حتى ولو كانوا مشركين؛ ما داموا لم يُحاربوا ولم يعتدوا.



• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسْءَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَانْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِأَنْتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. المتحنة: ١٠ - ١٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير: أن هذه الآيات تُسمى آيات (امتحان المؤمنات المهاجرات) وأنها نزلت في المؤمنات اللاتي هاجرن وخرجن من "مكة" لحاقاً بالمسلمين المهاجرين فراراً بدينهن، واللاتي خرجن في مدة (العهد المبرم في صلح الحديبية مع قريش)؛ وفيه: أن من خرج من المشركين إلى المسلمين يجب على المسلمين أن يُعيدوه إلى المشركين ..

فلما هاجرت امرأة مؤمنة وأتت النبي ﷺ لحق بها أهلها المشركون لاسترجاعها؛ بناءً على ذلك العهد، فأنزل الله هذه الآيات تُبين أن إرجاع الفارين من كفار قريش - تنفيذاً للعهد - لا يشمل النساء، ولكن يجب امتحانهن، فإذا كنَّ مؤمنات فلا يرجعن ولا يُرجعن.

و(امتحانهن): أي: استحلّافهن؛ بأن تحلف الواحدة منهن بالله العظيم أنها لم تخرج كرهاً في زوج، ولا طلباً للدنيا، وإنما هاجرت ولحقت بالمسلمين حباً لله ولرسوله ونصرةً لدينه، فإذا حلفت بذلك فهي مؤمنة؛ ويحرم إعادتها إلى الكفار، وذلك في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۗ﴾. واستحلّافهن هو ليطمئن المسلمون ولتبيّنوا حالهن؛ أما الله تعالى فهو

﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾

وعَمَّ ذلك جميع المهاجرات عموماً و"أم أسماء" التي سبق ذكرها. والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإذا أتى من عند الكفار امرأة إلى ديار المسلمين رغبةً في الإسلام فإنه لا يجوز إرجاعها إلى ديار المشركين؛ كما قال الله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

وأما الآية التي بعدها؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ فتعني أنه إذا ارتدت مسلمة وذهبت للمشركين فلزوجها المسلم المطالبة بما دفع لها من مهر، فإذا لم يعطوه فإن الإمام يعوّضه من بيت المال أو من الغنائم.

وكان ﷺ - بعد الاستحلاف - يبايع المؤمنات المهاجرات ﴿عَلَىٰ أَنْ لَا

يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾.

وكان ﷺ يبايعهن بالكلام؛ وما مسّت يده يد امرأة قط. رواه البخاري.

مِن سُوْرَةِ الصِّفِّ

• قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَمْ تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كِبْرًا مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ الصِّف: ٣.

روى الترمذي وأحمد والحاكم وصححه والواحدي والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في نفرٍ من الصحابة معهم "عبدالله بن سلام" رضي الله عنه؛ كانوا يتذكرون ويقولون: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعمَلناها..، فنزلت هذه الآيات.

وفي بعض الروايات: أنها لما شرعت بعض التكاليف كأنها ثقلت على البعض؛ فنزلت.

والعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

فإنها عتابٌ شديدٌ من الله - تعالى - إلى جميع المؤمنين، وهذا سؤال توبيخ وتهكّم بالذين يقولون ما لا يفعلون، ثم وضح أن المقت كبير: ﴿كِبْرًا مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ لأن الذي يقول ما لا يفعل هو من صفات المنافقين، ومن علامات قلة الإيمان.

والمؤمن دائماً يحرص أن يطابق قوله عمله، وأن يصدق أقواله بأعماله، وأن الأقوال وحدها لا تنفع، ولا بد من الأعمال، ولا بد من استواء الظاهر والباطن..؛ وإلا تشبّه صاحبها بالمنافقين، عياداً بالله.

مِن سُوْرَةِ الْجُمُعَةِ

• قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ

خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ الجمعة: ١١ .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد وابن جرير في التفسير: أن هذه الآية نزلت عتاباً وتأديباً لبعض الصحابة الذين يتركون النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ويخرجون إذا رأوا تجارةً أو قوافل أتت بالبضائع والبيع والشراء..؛ فينفضون إليها ويتركون النبي ﷺ قائماً وهو يخطب.

وروى ابن جرير في التفسير: أنه كان هناك فناءً في جوار المسجد النبوي مما يلي بقية الغرقد؛ كان يجتمع فيه الأعراب إذا جلبوا الخيل والإبل والبضائع ويبيعون ويشترون فيها، فإذا جاء يوم الجمعة خرجوا إلى هذه التجارة وتركوا النبي ﷺ قائماً في المسجد.

وفي روايةٍ أخرى صحيحة ثابتة: أن بعضهم كان يخرج إذا سمع العزف واللهو في النكاح، فإذا سمعوه خرجوا إلى هذا العزف وهذا اللهو وتركوا النبي ﷺ في المسجد.

فنزلت هذه الآية عتاباً وتأديباً لثلاثا يُقدِّموا على ذكرِ الله شيء، فإذا انقضى الذكر وانتهت الفريضة فلا بأس على المسلم أن يسعى في أرض الله ويبتغي من فضل الله.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ففيها تحريم (البيع والشراء بعد النداء الثاني للجمعة)، فالبيع بعد النداء الثاني للجمعة من البيوع المحرمة المنهي عنها؛ لأن الله قال قبلها في آية الجمعة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الجمعة: ٩، ثم قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْنِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الجمعة: ١٠. فلا بأس بالسعى وطلب فضل الله؛ لكن بعد ما يؤدي ما عليه من الفريضة؛ لاسيما الجمعة؛ لأن حضورها واجب والاستماع لخطبتها واجب، فالالتهاؤ عنها بأي شيء حرام.

وينبغي للمؤمن أن يثبت على دينه عقيدته وتوحيده ومبادئه وقيمه، وعلى أحكام وأخلاق القرآن والسنة، ويسأل الله الثبات عليها، ولا يتركها ويتبع الشهوات والشبهات إذا ظهرت وانتشرت، فهذا معنى بعيدٌ ينبغي أن يؤخذ من الآية، فليس المقصود فقط هو صلاة الجمعة وخطبة الجمعة.. ولكن البعض - للأسف - مع ظهور الفتن وانتشار اللهو ونحوه تجده يتنازل عن عقيدته وتوحيده ومبادئه وقيمه وأخلاقه، ويترجّل خلف الشهوات والشبهات والمغريات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة المنافقون

• سورة المنافقون بكاملها؛ ومنها قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا

نُفِيقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذْلَّ

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ المنافقون: ٨.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد والحاكم وابن

كثير في التفسير والواحدي والسيوطي في أسباب النزول: أن (سورة المنافقون)

نزلت بكاملها في المنافقين وتوضيح نواياهم وفضح عوارهم وإظهار ما في

قلوبهم من الغيظ والافتراء على الرسول والإسلام..

وذلك أنه كان الصحابة مع النبي ﷺ في (غزوة بني المصطلق)؛ وكان

معهم منافقون؛ ومنهم (عبدالله بن سلول)، يقول زيد بن أرقم رضي الله عنه: فبينما

كنا في هذه الغزوة إذ سمعتُ عبدالله بن أبي بن سلول يقول: ﴿لَا نُفِيقُوا عَلَيَّ

مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا﴾، ويقول: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَّ﴾. وكان المنافق "عبدالله بن سلول" يقصد أن يُحرش بين

الأنصار والمهاجرين، فيقول للأنصار: لا تنفقوا على "المهاجرين" حتى

يتضايقوا فينفضوا ويتعدوا عن الرسول ويرجعوا إلى مكة.

ويتوعد: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويقصد

بـ"الأعز": المنافقين، وبـ"الأذل": الرسول والمسلمين.

فلما أخبروا الرسول ﷺ بكلام المنافق "عبدالله بن سلول" استدعاه؛ فحلف هو ومن معه من المنافقين؛ وقالوا: والله يا رسول الله ما قلناه.

قال (زيد بن أرقم) رضي الله عنه: فأصابني همٌّ شديد؛ لأن الرسول ﷺ أخذ بكلام المنافق ابن سلول؛ لأنه حلف، فأنزل الله هذه السورة بكاملها، تُحذر من المنافقين، وتبين سوء نياتهم، وتفضح ما قالوه من الكلام وما بيتوه من النية، وقال الله فيها: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً..﴾ أي: حلفهم اتخذوه وقايةً من إنزال الأحكام والعقوبات عليهم..، إلى آخر السورة، وختمها بموعظةٍ جليلة للمؤمنين.

من سورة التغابن

• قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
 إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ التغابن: ١٥.

روى الترمذي والحاكم بسندٍ صحيح والواحدي في أسباب النزول وابن جرير وابن كثير وغيرهما من أئمة التفسير: أن هذه الآيات نزلت في أناسٍ من أهل مكة؛ أسلموا؛ وكانوا يريدون أن يأتوا إلى النبي ﷺ يتعلمون منه، ويهاجرون ويجاهدون معه..، ولكن يمنعهم (أزواجهم وأولادهم)، ويحولون بينهم وبين ذلك؛ لأنهم إذا أرادوا الحضور إلى النبي ﷺ أو الغزو معه بكوا إليهم وأوقفوهم؛ ويقولون لهم: إلى من تدعوننا؟ فيرقون لهم ويبقون معهم، فلما أتى هؤلاء القوم إلى النبي ﷺ - فيما بعد - وجدوا الناس قد تفقهوا في الدين وسبقوهم إلى الخيرات، فهموا بمعاينة أهلهم وأزواجهم على ما منعوهم من الفقه في الدين والسبق إلى الخيرات..

فنزلت هذه الآيات تُبين لهم أن (الأموال والأولاد والأزواج) أن منهم من قد يكون عدوًّا، والعدوُّ: هو من يصد عن الخير.

ثم دعاهم الله - تعالى - إلى العفو والصفح، وأن لا يضربوا ولا يُعاقبوا أزواجهم وأهلهم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾

وَبَيَّنَ اللهُ - تَعَالَى - السَّبَبَ فِيمَا حَصَلَ مِنْ "أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ" وَهُوَ أَنَّ (الأزواج والأولاد والأموال) فِتْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ؛ إِنْ لَمْ يَفْطَنِ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا وَيَتَعَامَلَ مَعَهَا بِحَذَرٍ، وَيَقُومَ بِحَقُوقِهَا، وَيَحْذَرُ التَّقْصِيرَ فِيهَا، وَلَا يَلْتَهِي بِهَا عَنِ الْآخِرَةِ؛ وَإِلَّا وَقَعَ ضَحِيَّتُهَا وَصَرِيحَ فِتْنَتِهَا..؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

فإن (الأموال والأولاد) من مصادر الفتن، ومصادر الفتن كثيرة؛ منها الشيطان والشهوات والشبهات والجاه والمناصب والكفار والفساق والنساء والسمع والبصر والجوارح والمعاصي والذنوب والدنيا الأموال والأولاد.

فالأموال والأولاد من أخطر صور الفتن، ولذلك قال الله - تعالى - في

سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال: ٢٨.

وقد وضح القرآن كيف تكون "الأموال والأولاد" فتنه؛ فقال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِأَنَّهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المنافقون: ٩.

فكون الأموال والأولاد فتنه: هو أنها تلهي الإنسان وتُشغله عن ذكر

الله وعن الصلاة، وتُشغله عن كثيرٍ من الطاعات والقربات؛ فتكون على صاحبها فتنه ووبالاً في الدنيا والآخرة.

وَكَوْنُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَزْوَاجِ عَدُوًّا لِصَاحِبِهَا: ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ
عِنْدَمَا يُقَصَّرُ فِي حَقِّهِمْ، وَلِأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ..، وَقَدْ يُشْغِلُونَهُ أَوْ يَجْرُونَهُ إِلَى
كَسْبِ الْحَرَامِ، أَوْ جَلَبِ الْحَرَّمَاتِ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَقَدْ يُشْغِلُونَ عَنِ الْعِبَادَةِ وَالْعِلْمِ
وَالْمَعَالِي، لِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ تَعَسَّ
وَأَنْتَ كَس..). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَابْنُ حِبَانَ.

وَقَالَ ﷺ: (الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ). رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَحْمَدُ
وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَالْحَاكِمُ.

مَبْخَلَةٌ: أَي أَنَّهُ يَجْرُّ إِلَى الْبَخْلِ بِالْمَالِ لِيَحْفَظَهُ لَوْلَدِهِ.

وَمَحْزَنَةٌ: لِأَنَّ الْوَلَدَ يُحْزِنُ وَالِدِيهِ عِنْدَمَا يَتَعَرَّضُ لِلْأَذَى.

وَمَجْبَنَةٌ: لِأَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَنِ الْمَشْيِ فِي الْأَرْضِ.

وَمَجْهَلَةٌ: لِأَنَّهُ يُلْهِمُهُمْ عَنِ طَلْبِ الْعِلْمِ.

لِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبَعُ بِهَا

شَعَفَ الْجِبَالِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ قَوَاعِدِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي التَّفَطُّنَ لَهَا، نَسَأَلُ

اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْوَقَايَةَ مِنَ الْفِتَنِ.

سورة التحريم

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهِمَا والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود وابن جرير وابن كثير في التفسير والواحدي في أسباب النزول: أن (سورة التحريم) نزلت بكاملها لتعالج ما حصل في بيت النبي ﷺ؛ عندما حرّم على نفسه العسل؛ كما في صحيح البخاري.

وفي رواية الصحيحين: حرّم على نفسه أمةً كانت عنده - وهي مارية القبطية أمّ ولده إبراهيم - لم تزل به "عائشة وحفصة" حتى حرّمها على نفسه **والقصة بكاملها: أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش - رضي الله عنها - ويشرب عندها عسلاً، فتواصت عائشة وحفصة - رضي الله عنهما - إذا دخل النبي ﷺ على إحداهن أن تقول له: (إني أجد منك ريح مغاير)؛ والمغاير هو العسل.**

فكُلُُّ منهما قالت ذلك له، فأخبرهما ﷺ إنه شرب عسلاً عند زينب بنت جحش، وأنه حرّمه على نفسه؛ فأنزل الله قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ التحريم: ١، إتح السورة.

وكلا الأمرين - العسل والأمة - سببان لنزول هذه السورة، وقد جمع بينهما أهل العلم، بجواز تعدّد النزول وبجواز تعدّد الأسباب للنازل الواحد، وأنه لا مانع من ذلك؛ خاصة مع صحة الروايتين.

وكان النبي ﷺ قد قال لحفصة: إني حرّمتُ العسل على نفسي، ولا تخبري أحداً؛ فأخبرت عائشة، وكذلك الأمر لعائشة؛ فأخبرت حفصة، فنزلت هذه السورة تعالج هذه المشكلة، وتجعل للنبي ﷺ مخرجاً من اليمين الذي حلفها، وأن يعود إلى الأمة التي حرّمها على نفسه وإلى شرب العسل، ويكفر عن يمينه، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلُغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ... ﴿١﴾.

وتَحِلَّةُ الأيمان: هي (كفارة اليمين) بأن يُكفّر عن يمينه ويأتي ما حرّم على نفسه (١).

وقوله: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أسرّ إلى عائشة وإلى حفصة أنه حرّم (العسل) أو (الأمة) على نفسه، فنبتأت بذلك وأظهرته على سائر نسائه، فنزل الوحي يُخبره أنهما أذاعتا السرّ.

ولكن النبي ﷺ أعرض عن بعض ذلك؛ أديباً ورحمةً منه، فلم يُكثر العتاب والجدال مع زوجاته.

ثم توجه الخطاب إلى (عائشة وحفصة)؛ فقال تعالى: ﴿إِنْ نُبُؤًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم: ٤.

(١) وكفارة اليمين - كما في الآية ٨٩ من سورة المائدة - درجتان: ١- إطعام عشرة مساكين أو كِسوتهم أو تحرير رقبة مؤمنة. ٢- فإن لم يستطع فيصوم ثلاثة أيام متتابعات، ولو صام وهو قادرٌ على الإطعام فصيامه باطل ولا تبرأ ذمته؛ لأن الدرجتان بالترتيب لا بالخيار.

وكان (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه قد دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في غضبه واعتزله من زوجاته "عائشة بنت أبي بكر" و "حفصة بنت عمر"، فقال عمر: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ خَيْرًا مِنْكَ ..

فنزلت الآية تُوافقُ كلامَ عمر - كما في صحيح البخاري - في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّاتٍ عَيْدَاتٍ سَخِيحَاتٍ ثِيَّابَاتٍ وَابْتِكَارًا﴾ التحريم: ٥ ، وهي من موافقات عمر للقرآن.

ثم استرسلت السورة في (الأسرة والأهل) ووقايتهم من النار بطاعة الله وَتَجْنِيهِمُ الْمَعَاصِي.

وقصت السورة بيوتاً أخرى من بيوت النبوة، وهو بيت نوح وبيت لوط - عليهما السلام - حيث كانتا زوجتهما كافرتين ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ التحريم: ١٠ .

ثم جعل ذلك مثلاً للذين كفروا.

وضرب مثلاً للذين (آمنوا) بامرأة فرعون، وأنه قد يكون الرجل صالحاً والمرأة على العكس، وقد تكون المرأة صالحة كامرأة فرعون والرجل على العكس من ذلك كفرعون.

والعبرة من هذه السورة بعموم ألفاظها لا بخصوص أسبابها، فإن هذه السورة موعظةٌ وذكرى لجميع الناس في كل زمان ومكان، بأن كل بيتٍ لابد أن يحصل فيه من الخلافات والنزاعات بين الزوج وزوجته، وأن ذلك قد يحصل في جميع البيوت، حتى بيوت النبوة، فكيف بمن عداها..؟

وأنه يجب على كلٍّ من الزوجين أن يحتمل الآخر، ويصبر على ما يأتي منه، وأن يتواصوا بتقوى الله، وبالتوبة النصوح، وبتربية الأولاد التربية الحسنة، وأن يتغاضى الزوج ويتغافل عن هفوات الزوجة، والزوجة كذلك، حتى تمشي أمور البيت والأسرة بسلام.

وقد حاول ﷺ أن يُحرّم على نفسه ما أُحِلَّ له؛ لإقناع وإرضاء زوجاته الأخريات، ومنعاً للنزاع والمشاكل والخلافات في البيت وفي حياة الأسرة.. بل إنه ﷺ لَمَّا عاتب عائشة وحفصة لم يذكر الأمور كلها ولم يعدّد تفاصيل الأخطاء..، إنما ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾؛ رَأْفَةً وَرَحْمَةً بِهِمَا، وَجَبْرًا لِحَوَاطِرِهِمَا، وهذا من حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ ﷺ، مما ينبغي أن نقنّدي به في ذلك عند مشاكلنا الأسرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها^(١).

(١) سورة: الملك والقلم والحاقة لم أجد روايات في أسبابها؛ إلا عموم السبب العام للقرآن وهو هداية الناس وإرشادهم إلى العقائد الصحيحة، والتوحيد وعبادة الله تعالى.

مِنْ سُورَةِ الْمَعَارِجِ

• قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ﴾ المعارج: ١؛ إلى آخر السورة.

روى النسائي والواحدي والسيوطي في أسباب النزول وابن كثير في التفسير: أن هذه الآيات نزلت في بعض كفار قريش الذين تحدّوا النبي ﷺ، وسألوه وطلبوا منه أن يُنزل عليهم العذاب الذي توعدّهم الله به.

ومنهم "النضر بن الحارث"، وهو من طواغيت قريش ومن الكفار الأشرار، وروي أنه القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأنفال: ٣٢، وهذه الآية من سورة الأنفال؛ وقد سبق الكلام عنها.

فبيّنت "سورة المعارج" أن العذاب واقع لا محالة على كل كافر ومشرِك ومنافق ومعاند ومتكبر، وحينها يعلمون أنه الحق؛ حين لا يَنفَعُ الندم^(١).

(١) النضر بن الحارث بن علقمة القرشي، من سادات قريش وكبرائها، وهو أيضاً من رؤوس الشر والكفر والعدا، وكان له ثقافة واطلاع بأحاديث وأفكار وعادات ديانات الفرس والروم بحكم سفره مع والده في التجارة، وكان ينقل عاداتهم السيئة إلى مكة، لإغواء الناس وصدّهم عن سبيل الله، ومن العادات السيئة التي نقلها إليهم عادة اللهو والغناء وجلب القينات والمغنيات لصدّ الناس عن سماع القرآن الكريم، فأشبهه بذلك "عمرو بن لحي" الذي جلب الأصنام والأوثان إلى مكة لعبادتها من دون الله، فانتشرت في مكة حتى بلغ عددها حول الكعبة أكثر من ٣٦٠ صنماً، وقد هدمها النبي ﷺ يوم فتح مكة. مات "النضر" شراً ميتة في (غزوة بدر) حيث قُتل فيها وسُجِبَ حتى رُمي مع قتلى كفار قريش في قليب بدر.

سورة الجن

• قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا

عَجَبًا﴾ الجن: ١، إلى آخر السورة.

روى البخاري ومسلم في صحيحَيْهِمَا والترمذي وأحمد والحاكم والواحدي في أسباب النزول وأهل التفسير: أن "سورة الجن" نزلت في نفرٍ من الجن؛ عندما استمعوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، فعجبوا منه، وآمنوا به وتأثروا ببلاغته، ودخلوا في الإسلام، ورجعوا إلى قومهم مُنذرين.

وذلك أن النبي ﷺ عندما عاد من (الطائف) وقد طرده أهلها، فنزل في (وادي نخلة) - بين مكة والطائف - فبينما هو يصلي هناك أتاه نفرٌ من الجن يبحثون عن سبب الحيلولة بينهم وبين خبر السماء؛ إذ إنه عند مبعث النبي ونزول القرآن حيل بين الجن وبين خبر السماء، وأُرسِلت عليهم الشُّهب، فقالوا: إن هذا ما حَدَثَ ذلك إلا لشيءٍ عظيم، فتفرَّقوا في مشارق الأرض ومغاربها لِيَنْظُرُوا ما الذي حَدَثَ؟ وما الذي حال بينهم وبين خبر السماء واستراق السمع؟ فكانت الطائفة التي نزلت على النبي ﷺ في وادي نخلة من الجن عثروا على الأمر، وعرفوا الخبر، وهو الإسلام والقرآن، ورجعوا إلى قومهم مُنذرين، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ الجن: ٢.

فأنزل الله "سورة الجن" بكاملها في ذلك.

وفي "سورة الجن" أن الجن أثنوا على الله تعالى، وأفردوه بالعبادة، وسفّهوا من أشرك به شيئاً؛ فقالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ الجن: ٤.

وتحدّثوا عن حراسة السماء والملائكة ورميهم بالشهب وقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلْأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾﴾ الجن: ٨.

وأن الجن قد انقسموا إلى فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وأن منهم المسلمون ومنهم القاسطون؛ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ الجن: ١٥.

وقد سبق ذكر ذلك في (سورة الأحقاف) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ يَقَوْمَنَا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ الأحقاف: ٢٩ - ٣١، فانظره هناك.

وللتنبيه: فقد أبطل الإسلام استعادة الإنس بالجن، وأنها من الشرك والكفر، وأنها تضر ولا تنفع، حيث كان (أهل الجاهلية) إذا نزلوا وادياً يقولون: "نعوذ بسيد هذا الوادي من الجن"، فيتعوذون بالجن عند الخوف، فما زادوهم إلا رهقاً؛ وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ الجن: ٦، أي: زادوهم إثماً وطغياناً وعتواً وضلالاً وشركاً.

فأبطل الإسلامُ الاستعاذة بالجنِّ؛ وحرَّمها، واستبدلها بالتعويدة الشرعية الإسلامية الصحيحة؛ التي فيها توحيد الله والتوكل عليه. وأمر النبي ﷺ أن مَنْ نَزَلَ بِمَكَانٍ أَنْ يَقُولَ: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ). وَأَنْ مَنْ اسْتَعَاذَ بِهَذِهِ الاسْتِعَاذَةِ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَكَانِهِ ذَلِكَ. رواه مسلم.



مِن سُوْرَةِ الْمَزْمَلِ

- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ۝١ قُرْآنًا لَّيْلًا إِذَا قَلِيلًا﴾ المزمّل: ٢.
 - وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنْسَرَمِنَ الْقُرْآنِ﴾ المزمّل: ٢٠.
- روى أبو داود والحاكم والسيوطي في أسباب النزول وابن جرير في التفسير: أنه لما نزل أول سورة المزمّل الذي فيه قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا لَّيْلًا إِذَا قَلِيلًا﴾ كانوا يقومون الليل كقيامهم رمضان؛ سنةً كاملة، وبعد سنةٍ نزل آخر السورة، وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأْهُ وَمَا تَنْسَرَمِنَ الْقُرْآنِ﴾ إلى آخر الآية.
- فخفف بذلك عليهم وعلى الأمة، وهذا من يسر الشريعة ومن رحمة الله بعباده، وأنه لا يكلفهم ما لا يطيقون.
- لكن يبقى قيام الليل له فضل عظيم، وأجلّ القرب عند الله، وميدان لأهل الهمم العالية، يتسابقون فيه إلى الله؛ لينالوا رضاه وفضله ورحمته.



من سورة المدثر

• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿المدثر: ١- ٥.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والحاكم وابن حبان عن النبي ﷺ أنه قال: جاورتُ بحراء - أي: تعبدتُ في غار حراء - فلما قضيتُ جواري هبطتُ - أي: نزلتُ إلى بطن الوادي - فنادى مُنادٍ، فنظرتُ عن يميني وشمالي وأمامي وخلفي فلم أَر شيئاً.. ونظرتُ فوقي فرأيتُ شيئاً؛ رأيتُ جبريل عليه السلام جالساً على كُرسي بين السماء والأرض، فرُعبتُ، وذهبتُ إلى (خديجة) فقلتُ: دثروني - أي: أدفئوني وغطوني باللباس والفراش - فدثروه وصبوا عليه ماءً بارداً، فأنزل الله حينئذ قوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿. رواه البخاري ومسلم وابن حبان.

واختلفت الروايات ما هو أول نازل من القرآن؟ هل هي قوله ﴿يَتَأْتِيَهَا

الْمُدَّثِّرُ﴾ أو قوله ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكلاهما في الصحيحين.

والجمع بينهما: أن رواية ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أنها أول ما نزل في

ابتداء الوحي؛ في الغار في رأس الجبل، ورواية ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي أول ما نزل

بعد انقطاع الوحي وفي بطن الوادي، لأنها نزلت ﴿أَقْرَأْ﴾ ثم انقطع الوحي

فترة، ثم عاد الوحي، فكان أول ما نزل بعد انقطاعه هو ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

• قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝١٦ سَاهِقَهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَبَّأَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝٢٧ لَا بُقِيَ وَلَا نَذْرٌ ۝٢٨ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تَسَعَةٌ عَشْرٌ﴾ المذثر: ١١ - ٣٠.

روى الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة وابن كثير في البداية والنهاية وابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في المشرك (الوليد بن المغيرة) ^(١)، أنته قريش وقالوا: قل قولاً في القرآن، ففكر ثم قال: "أنا أعرفكم بالشعر والسحر والكهانة، والله ليس القرآن بشعر ولا سحر ولا كهانة، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغديق، وإنه ليعلوا ولا يُعلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته".

قالوا: لن ترضى عنك قريش حتى تقول في القرآن قولاً، ففكر وقدر ثم قال: إنه سحرٌ يؤثر، قال هذه الكلمة ليس جهلاً ولا اعتقاداً، بل كبيراً وبطراً، وهو يعلم أنه كاذب، فأنزل الله فيه قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ يُخَاطَبُ اللَّهُ رَسُولُهُ يَقُولُ: يَا مُحَمَّد، ذَرْنِي وَالْوَلِيدَ ابْنَ الْمَغِيرَةَ، كَانَ وَحِيدًا

(١) "الوليد بن المغيرة" سيّد من سادات قريش، وفصيح وشاعر من أشهر فصحائها وشعرائها، إضافةً إلى غناه وكثرة أمواله وولده، فله عشرة أولاد، كلهم يحضرون معه ويُشاهدون أمامه ولا يفارقونه في حضر ولا سفر، وله أموال طائلة وتجارة كبيرة في مكة والطائف وله بستان في الطائف كبير لا تنقطع ثمرته صيفاً ولا شتاءً، وهو أبو الصحابي الجليل "خالد بن الوليد" رضي الله عنه.

فقيراً، ليس معه مال ولا ولد، فأوجده الله من العدم، ورزقه من الولد، ومد له في الأموال وجعل أولاده شهوداً يحضرون معه في كل مكان، ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ١٤ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي يطمع أيضاً في المال والولد، ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَيْنِدًا﴾ ١٦ ﴿سَاءَ رُهْقُهُ، صَعُودًا﴾ أي سوف يُرْهقه يوم القيامة الصعود في جبال النار، فإنه - كما روى الترمذي والحاكم بسندٍ صحيح - أن في النار صخرة عظيمة أو جبل عظيم؛ يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي منه في النار سبعين خريفاً، وكلما هوى عاد، هذا هو الصعود، نسأل الله العافية.

وماذا كان ذنبه وجريمته؟

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ١٨ ﴿فَقُلَّ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ١٩ ﴿ثُمَّ قُنِيَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ٢٢ ﴿بَسَرَ بَوَجْهَهُ، وَقَطَّبَ بَعَيْنَهُ وَجَبِينَهُ، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ﴾ ٢٣ ﴿أدبر مستكبراً، ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾ ٢٤ ﴿أِلَّا سِحْرٌ مُؤْتَرٌ﴾ ٢٤ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

ثم هدده الله مرة أخرى فقال: ﴿سَأُصْلِحِهِ سَقَرًا﴾ ٢٦ ﴿وَمَا أَدْرَبَكَ مَا سَقَرٌ﴾ ٢٧ ﴿لَا يُبْقِي وَلَا نَذْرٌ﴾ ٢٨ ﴿لَوْ آتَتْهُ لَوَاعَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ ٢٩ ﴿أي: تلوح بيشر الناس - أي بشرتهم وجلودهم - وتلحقهم النار.

وهذه المرة الثالثة التي يأتي في القرآن تهديد (الوليد بن المغيرة) وتوعده بالعذاب؛ لِمَا فعل وصنع وتكبر وتجبّر وحارب الله ورسوله وكتابه ودينه.

فقد سبق في "سورة القلم" أن الله ذمّه وتوعده فقال: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلِّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٠ ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنِيمٍ﴾ ١١ ﴿مَنَاعٍ لِّخَيْرٍ مُّعْتَدٍ أَنِيمٍ﴾ ١٢ ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ ١٣ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ١٤ ﴿إِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَا كَسَطِيطُ الْأُولَىٰ﴾ ١٥

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ؛ وهو "الوليد بن المغيرة" يُضْرَبُ عَلَى أَنْفِهِ بِعَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا، وَيَسَاقُ إِلَى النَّارِ.

فَإِنَّهُ وَصَفَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ القلم: ١٥.

وَوَصَفَهُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَنَّهُ ﴿سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ المدثر: ٢٤. فَتَوَعَّدَهُ اللَّهُ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ.

وَكَانَ لَهُ عَشْرَةُ أَبْنَاءَ، كُلُّهُمْ يُحِيطُونَهُ، وَيَعْتَزُّ بِهِمْ، وَيَحْتَمِي بِهِمْ، وَلَمْ

يُسَلِّمَ مِنْهُمْ إِلَّا ثَلَاثَةٌ؛ مِنْهُمْ (خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ) فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلَادِهِ، أَسْلَمَ ٧ هـ،

وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَصَارَ بَطَلًا وَقَائِدًا مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ.

• قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْفِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر: ٣١.

روى البيهقي والواحدي والسيوطي في أسباب النزول بسندٍ فيه مقال لكنه يتقوى بكثرة طرقه: أن هذه الآية نزلت عندما استهزأ "الوليد بن المغيرة" ومن معه من كفار قريش بملائكة الله الكرام؛ لما سمعوا قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ - أي: على النار تسعة عشر من الملائكة خزنة النار - فسخر كفار قريش من ملائكة الله، وقال قائلهم: أيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطش بواحد من هؤلاء الملائكة؟، فأنزل الله هذه الآية تردّ عليهم بأن "أصحاب النار" ليسوا بشراً وليسوا صغاراً؛ ولكنهم ملائكة عظام، والتصديق بهم من أركان الإيمان. والعبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنه يجب على المؤمن أن يؤمن ويوقن بملائكة الله الكرام، وأنهم خلقٌ عظيم، ذوو أجسام عظيمة، وفيهم نورٌ وبهاءٌ وجلال، منهم الموكل بقبض أرواح الموتى، ومنهم الموكل بالسحاب، ومنهم الموكل بالمطر، ومنهم الموكل بالوحي - وهو جبريل وهو أفضل الملائكة عليه السلام - ومنهم الموكل بحفظ أعمال بني آدم؛ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا﴾ لانفطار: ١١، فهذه وظائف الملائكة الكرام عليهم السلام.

وقال النبي ﷺ: (أذن لي ربي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، ورأسه عند العرش فوق السماء السابعة، وما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة سنة). رواه أبو داود وصححه الألباني.

وفي الصحيح أنه ﷺ رأى جبريل على هيئته وخلقته التي خلقه الله عليها وقد سدّ الكون من أقصاه إلى أقصاه، وله ستمائة جناح. رواه البخاري ومسلم.

فهذا يدل على عظم الملائكة وكبير خلقهم، وأنهم من جند الله، يجب الإيمان بهم واحترامهم، والإيمان بما وُكّلوا به من أعمالٍ ووظائف.



من سورة القيامة

• قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا**

قُرْآنُهُ فَانْتَبِهْ ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿١٩﴾ القيامة: ١٩.

هذه الآيات خطابٌ من الله - تعالى - للنبي ﷺ أن لا يتعجل قراءة القرآن

عند نزوله عليه.

ففي صحيحي البخاري ومسلم وعند النسائي والترمذي وأحمد: أنه ﷺ كان إذا نزل عليه ملك الوحي - جبريل عليه السلام - بالقرآن فإنه ﷺ يُحرِّكُ به شفتيه يتعجَّلُ تلاوته وقراءته مخافة أن يتفلَّت منه، فأنزل الله هذه الآيات ينهَاهُ أن يتعجَّلَ قراءة القرآن حتى يكتمل استماعه إليه، ووعده بثلاثة أمورٍ عظيمة:

الأول: ﴿جَمَعَهُ﴾ أي جمع وحفظ القرآن في صدر النبي ﷺ.

الثاني: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي إثبات وتقويم قراءته في لسانه.

الثالث: ﴿بَيَانَهُ﴾ أي تبينه وتوضيحه وإلهامه معانيه وأحكامه.

فالله - تعالى - تكفل لرسوله بجمع القرآن وقراءته وبيانه، ولكنه أوكل

إليه الاتباع والعمل؛ فقال: ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَانْتَبِهْ﴾.

والعبرة بعموم هذه الآيات لا بخصوص سببها، فكلُّنا مخاطَّبون بقراءة

القرآن وتعلُّمه وتعهده والعمل به واتباع تعاليمه وهديه وأحكامه.

وللفائدة: راجع أسباب نزول سورة "طه" عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ

بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه: ١١٤.

سورة عبس

• قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى..﴾، إلى آخر السورة.

روى الترمذي وابن حبان والحاكم وصححه وابن جرير وابن كثير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن "سورة عبس" نزلت في شأن الصحابي الجليل (عبدالله ابن أمّ مكتوم) رضي الله عنه ^(١)؛ عندما أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله ويقول: عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وكان مُقبلاً على رسول الله يريد العلم والهداية والخير، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حينها يُخاطب عليه قريش وكُبرائها - مثل أبي جهل وأبي لهب وأمّية بن خلف وطائفة من كفار قريش؛ يُكلّمهم ويدعوهم إلى الله ويرجو هدايتهم.

فلما جاء عبدالله بن أمّ مكتوم - وكان أعمى لا يُبصر - أعرَضَ عنه النبي صلى الله عليه وسلم وعَبَسَ في وجهه، وأقبل على كُبراء قريش؛ ليس إلا لاستئلافهم؛ رجاء هدايتهم وإسلامهم.

(١) ابن أمّ مكتوم هو الصحابي الجليل: عبدالله بن قيس القرشي، من كبار وفضلاء الصحابة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام في مكة، وكان أعمى، وسُمِّيَ بأُمّه أمّ مكتوم، وملكاته عند النبي صلى الله عليه وسلم كان يستخلفه على المدينة، استخلفه عليها أكثر من ثلاثة عشر مرّة أثناء خروجه للغزو والسفر، واستخلفه عليها عندما ذهب لحجة الوداع، كذلك كان صلى الله عليه وسلم يستنبيه على الصلاة بعده إذا ذهب في سفر أو غزوة، لأن الأعمى مرفوعٌ عنه الحرج، وكان ابن أبي مكتوم يؤذن الأذان الثاني لصلاة الفجر في رمضان، وبلال يؤذن الأذان الأول. مات ابن أمّ مكتوم شهيداً في غزوة القادسية؛ عام ١٥ هـ رضي الله عنه وأرضاه.

فأنزل الله هذه الآيات يُعَاتِبُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى تَوَلِيهِ عَنِ الْأَعْمَى ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ رَغْمَ إِقْبَالِهِ وَرَغْبَتِهِ، وَعَلَى إِقْبَالِهِ وَتَصَدِّيهِ لِكِفَارِ قَرِيْشٍ رَغْمَ كِبَرِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يَقْصِدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعْطِفَ كِفَارَ قَرِيْشٍ وَيَسْتَمِيلَهُمْ رَاجِعاً هِدَايَتَهُمْ، وَلَكِنْ الْهِدَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ.

وَفِي عِتَابِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فَائِدَتَانِ:

الأولى: أَنْ اللَّهُ عَاتَبَهُ فَقَالَ: ﴿عَسَّ وَتَوَلَّى﴾ أَتَى بِهَا بِضْمِيرَ الْغَائِبِ، وَلَيْسَ بِضْمِيرِ الْمَخَاطَبِ، فَلَمْ يَقُلْ: عَسْتَ وَتَوَلَيْتَ؛ إِكْرَاماً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاعَاةً لِحَاظِرِهِ وَمَقَامِهِ.

والفائدة الثانية: أَنْ عِتَابَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْأَفَاكِينِ الَّذِينَ قَالُوا: إِنْ الرَّسُولُ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها..

فإنه ينبغي - كما قال ابن كثير في التفسير - أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ عَامَّةً لِلشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ وَالرَّفِيعِ وَالْوَضِيعِ.. فَهِيَ لِلْجَمِيعِ، يَسْتَوُونَ فِيهَا، وَلَا يُخَصُّ أَحَدٌ دُونَ أَحَدٍ.

كما أنه لا يجوز الاستخفاف بأحد، ولا يُسْتَهَانُ بِشَأْنِ الْمُسْلِمِ وَشَرَفِ التَّوَاضُعِ وَفَضْلِهِ..

وَرَوَى ابْنُ حَبَانَ وَأَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: أَنَّ كِفَارَ قَرِيْشٍ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُعَذَّبُونَ فِي مَكَّةَ - كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَبِلَالِ بْنِ رَبَاحٍ، وَصَهَيْبِ الرَّومِيِّ، وَخُبَابِ بْنِ الْأَرْتِ - فَقَالَ

هؤلاء المشركون: يا محمد اطرد هؤلاء السفلة من عندك حتى نُجالسك، فذمهم الله ونهى رسوله أن يسمع كلامهم أو أن يطرد المؤمنين المستضعفين إرضاءً لهؤلاء المتكبرين؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنعام: ٥٢ (١).



(١) راجع سورة الأنعام هنا ص ٩٩ عند سبب نزول هذه الآية.

من سورة المطففين

• قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿المطففين: ٦﴾

روى النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه ابن حجر والألباني وابن كثير في التفسير والواحد في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في (أهل المدينة) عندما هاجر إليهم النبي ﷺ وكانوا يبخسون الناس الكيل.

وفي رواية أخرى صحيحة: من أبخس الناس كيلاً، أي: كانوا يُنقصون ويزيدون ويغشون ويدلسون ويخدعون ويخدع الناس في بيعهم وشرائهم؛ فأَنْزل الله هذه الآيات..، فلما سمعوها وقرأوها أَحَسَنُوا الكيل بعد ذلك، أي: تابوا واستغفروا ورجعوا عن التطفيف وعن الغش وعن الخداع التدليس، وأَحَسَنُوا التعامل، وأَوْفُوا الكيل والميزان للناس.

والعبرة في هذه الآيات بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فإنها تحذير عظيم للمؤمنين إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة؛ بأشَدَّ عبارات تحريم التطفيف في الكيل والميزان وفي غش الناس.

وهذه فضيلة عظيمة؛ ومنقبة كبيرة لأهل المدينة، وسُرعة استجابتهم لله وللرسول، وتوبتهم بترك التطفيف؛ لَمَّا عَلِمُوا خُطورته وتحريمه وعقابه

العظيم؛ وهو (الويل)؛ قيل: إنه وادٍ في النار في قعرِ النار، نسأل الله العفو والعافية.

ولم يأت في فواتح سور القرآن ﴿وَيْلٌ﴾ إلا في هاتين السورتين: المطففين والمهمزة.

فأما في "المطففين" ففيها التحذير من الاعتداء على (أموال) الناس: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وأما "المهمزة" ففيها التحذير من الاعتداء على (أعراض) الناس: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

فينبغي على كل مؤمن أن يخاف الله وأن يتقيه، وأن لا يُطفف الكيل والميزان، وأن يحذر من غش الناس وخداعهم والتدليس عليهم وهضم حقوقهم الحسيّة والمعنويّة، فهذا من المحرّمات التي تُوعّد عليها بالعقاب العظيم.

سورة الضحى

• قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾

وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿ الضحى: ٣.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي وأحمد وابن جرير في التفسير والواحي في أسباب النزول: أن هذه السورة نزلت عندما اشتكى ﷺ ليلتين أو ثلاث؛ فلم يقم، فجاءته امرأة - هي أم جميل زوجة أبي لهب، فقالت: يا محمد: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ولم يأتك. وفي رواية: أن المشركين كانوا يستهزؤون بالنبي ﷺ عندما انقطع الوحي عنه فترة، وقالوا: إن ربّه قد ودّعه وتركه وقلاه، فأنزل الله هذه السورة ردّاً عليهم؛ يُقسِم الله فيها بالضحى وبالليل أنه ما تركك ربك.

• قوله تعالى: ﴿ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾

الضحى: ٥.

روى ابن جرير في التفسير والواحي في أسباب النزول والحاكم في رواية صحّحها ووافقه الذهبي: أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه السورة - سورة الضحى - وعرض عليه ما هو مفتوح على أمته من بعده من الكنوز ومن القرى.. سرّ ﷺ بذلك، فأنزل الله عليه قوله: ﴿ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾.

مِن سُوْرَةِ الْعَلَقِ

• قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَجْعَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ العلق: ٦ - ١٩.

روى مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وابن حبان وابن جرير وابن كثير في التفسير والواحي في أسباب النزول: أن هذه الآيات نزلت في المشرك (أبي جهل) لعنه الله، عندما كان يستهزئ بالنبي ﷺ؛ ويهدده إذا سجد عند الكعبة، وينهاه عن السجود وعن الصلاة، ويقول: "هل لا تزال يا محمد تُعفّر وجهك عند الكعبة؟ - يقصد أنه يسجد عند الكعبة - فلئن رأيتك تُسجد لأطآن رقبتك، وإنك تعلم أن ما بها نادٍ أكثر مني.."، فأنزل الله هذه الآيات تردّ عليه. ثم تقدّم هذا الطاغية - أبو جهل - إلى النبي ﷺ وهو يُصليّ وزعم أنه يطأ رقبته، فلما اقترب منه رعب ونكص وتقهقر على عقبه خائفاً وجلاً..، فقالوا له: ما لك وما بك؟! فقال: إن بيني وبين محمدٍ لَخَنَدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوَلاً وَأَجْنَحَةً.

فقال النبي ﷺ: (أما إنه لو دنا مني لا ختطفته الملائكة عضواً عضواً).

وأنزل الله حينئذ قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ الإنسان هو "أبو جهل" ولكن أتى بلفظ العموم وأراد به الخصوص؛ لتكون العبرة في هذه الآيات بعموم

لفظها لا بخصوص سببها، فالإنسان الفاسق ضعيف الإيمان والتقوى والعلم إذا استغنى فإنه يطغى، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) ﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ (٧) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (٨) أَرَبَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿﴾ أي "أبو جهل" ينهى محمداً ﷺ إذا صلى وسجد.

إلى أن قال تعالى: ﴿أَرَبَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أبو جهل، ثم هدده فقال:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (١٤) ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (١٦) ﴿فَلْيَدْعُ

نَادِيَهُ﴾ لأن أبا جهل قال: ليس في مكة أكثر نادٍ مِنِّي؛ فزجره الله وقال:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) ﴿سَدِّعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ والزبانية: هم ملائكة العذاب يتخطفونه.

ثم وجّه الله الخطاب لرسوله فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

العبرة في هذه الآية بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

فالمؤمن يجب عليه أن يتمسك بدينه، وأن لا يطيع الفاسقين والعاصين؛

الذين يحاولون أن يحرفوه عن دين الله وشرعه وهديه؛ فهذا مما نُهي المؤمن

عنه، ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف: ٢٨، وقول الله لرسوله:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

الأحزاب: ١، والأمر له ولأُمَّته عامّة.

سورة الكوثر

• قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢﴾

إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣.

روى البزار وابن أبي شيبة في مُصنّفه وابن كثير في التفسير والسيوطي في

أسباب النزول: أن سورة الكوثر نزلت عندما سَخِرَ الكفار والمشركون من النبي ﷺ؛ وذلك عندما ذهب اليهودي "كعب بن الأشرف" إلى مكة، فقالت له قريش: ألا ترى إلى هذا المُنبتر من قومه؟ يزعم أنه خيرٌ مِنّا، ونحن أهل الحجيج والسدنة والسقاية..

كذلك لما مات ابنُ النبي ﷺ "إبراهيم" قالوا: إنه انبتر، فأَنْزَلَ اللهُ هذه

السورة تسليّةً للنبي ﷺ، وتعزيةً له، وردًّا عليهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا

أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ الكوثر: ١، والكوثر: هو أعظم أنهار الجنة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ الكوثر: ٣، أي الذي

شأنك وكرهك ورماك بأنك مُنبتر هو الأبتَر.



سورة الكافرون

• قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

روى الطبراني والواحدي والسيوطي في أسباب النزول والقرطبي في تفسيره والصابوني في صفوة التفاسير بأسانيد وطرق يُقَوِّي بعضها بعضاً: أن كفار قريش أتوا النبي ﷺ يُشاورونه في دينه ودعوته، يقولون: يا محمد، اعبُد آلهتنا سنّة، ونعبد إلهك سنّة، فتعبّد ما نعبّد، ونعبّد ما تعبّد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه..، فأنزل الله هذه السورة تنهاه عن ذلك؛ والأمر له ولأُمَّته. والعبرة في هذه السورة بعموم لفظها لا بخصوص سببها؛ فإن المؤمنين مخاطبون بها في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذه السورة هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والمشركين؛ وهي السورة التي قطعت أطماع الكافرين، وفصلت النزاع بين الفريقين؛ أهل الإيمان وعبدة الأوثان، وفيها الردّ على الكافرين على فكرتهم السخيفة. والمؤمن لا بد أن يُحقّق عقيدة الولاء والبراء؛ بموالاتة المؤمنين، والبراءة من الشرك والمشركين، ولهذا شرع النبي ﷺ قراءة هذه السورة (الكافرون) في الركعة الأولى من: راتبة صلاة الفجر وراتبة صلاة المغرب وركعتي الطواف، فهذه المواطن يُسنّ ويتأكد قراءة هذه السورة فيها. رواه البخاري ومسلم.

سورة النصر

• قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

نزلت هذه السورة على النبي ﷺ يوم فتح مكة.

وروى البخاري ومسلم وابن جرير وابن كثير في التفسير والواحي في أسباب النزول: أن هذه السورة الكريمة نزلت للتذكير بنصر الله وفتحه، والتذكير بحمده وشكره، والإكثار من ذكره على ما أنعم به على رسوله وعلى المسلمين من الفتح العظيم؛ فتح مكة وما بعده.

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي إذا حصل، وقد حصل وهو فتح مكة، وكل فتح على المؤمنين في كل زمان ومكان.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ "الناس" المقصود بهم كفار قريش والمشركين من العرب في أنحاء الجزيرة العربية واليمن وغيرها؛ دخلوا - يوم فتح مكة - في دين الله أفواجاً - أي جماعات وراء جماعات - بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين؛ على خيفة وخفية..

فأنزل الله هذه السورة على النبي ﷺ أن يسبح بحمد ربه ويستغفره، أي: يسبح الله حامداً له على ما من به من الفتح والنصر؛ تواضعاً وشكراً له سبحانه وتعالى.

وفي صحيح مسلم: عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يُكثِرُ مِنْ قَوْلٍ: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)، ويقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك الله ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي). تقول - رضي الله عنها -: كان ﷺ يتأول القرآن بذلك؛ فيدعوه به في الركوع وفي السجود.

وقالت: لِمَ تُكثِرُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال ﷺ: (خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عِلَامَةً فِي أُمَّتِي؛ فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَإِنِّي أَكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، وَقَدْ رَأَيْتَ تِلْكَ الْعِلَامَةَ؛ وَهِيَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أَي فَتْحَ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾).

فكان ﷺ يُكثِرُ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّاسْتِغْفَارِ؛ تَمْجِيداً لِلَّهِ وَشُكْرًا لَهُ سُبْحَانَهُ.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أَي: إِنَّهُ لَا يَزَالُ كَثِيرَ الْقَبُولِ لِلتَّوْبَةِ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ وَالمُسْتَغْفِرِينَ؛ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

فالعبرة في هذه السورة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ففيها موعظة لكل مؤمن أن يعرف نعمة الله وفضله، ويشكره على نصره ودينه، ويكثر من تسبيحه وتحميده، ومن قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)، وكذلك يُكثِرُ مِنْ قَوْلٍ: (سبحانك الله ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) في صلاته في الركوع والسجود وفي أذكار الصباح والمساء وفي غيرها.

ثم إن هذه السورة نُعي النبي ﷺ، وفيها الإشارة لقرب أجله، وقرب رحيله ووداعه الدنيا، ولذلك سماها بعض المفسرين بـ"سورة التوديع"؛ لأنه ﷺ قال لعائشة لما نزلت هذه السورة: (ما أراه إلا حضوراً أجلي)؛ حيث نزلت هذه السورة في يوم الفتح، ونزلت أيضاً في حجة الوداع، ثم نزل بعدها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة: ٣.

ولم يبقَ ﷺ بعدها إلا أياماً قليلة ثم توفاه الله ولحق بالرفيق الأعلى. ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمرُ يُدخِلني مع أشياخ بدر - أي: مع كبار الصحابة، وابن عباس من صغار الصحابة - فكان بعضهم يجد في نفسه من ذلك، ويقول: لِمَ تُدخِله يا عمر ولنا أبناءٌ مثله؟ فيقول عمر: إنه حيث عَلِمتم - أي: إن ابن عباس هو حَبْرُ الأُمَّة وتَرْجَمَانُ القرآن، وقد دعا له النبي ﷺ فقال: (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل)، فدعا عمر يوماً وأدخله ليريههم، ثم سأله، فقال: يا عبد الله ابن عباس، ماذا تقول في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: إن الله يأمرنا فيها بالاستغفار والتسبيح، وسَكَتَ بعضهم، فقال عبد الله بن عباس: لا، ولكن فيها إشارة إلى قرب أجل رسول الله ﷺ، وفيها يُخبر الله رسوله بأنه قد دنا أجله، فقال عمر بن الخطاب: صدقت، ما أعلم منها إلا ما تقول. رواه البخاري ومسلم.

سورة المسد

• قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ .

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والنسائي والترمذي وابن كثير في التفسير والواحي في أسباب النزول: أن هذه السورة نزلت عندما أمر النبي ﷺ أن يُنذِرَ عشيرته الأقربين، ويبدأ بدعوتهم إلى الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٤، فصعد ﷺ على الصفا، ونادى في بطون قريش حتى اجتمعوا جميعاً، ومن لم يستطع أرسل رسولاً لينظر، فلما اجتمعوا - وكان فيهم قرابة النبي ﷺ وأعمامه - قال لهم: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أئصدقوني؟) قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك إلا صدقاً، فقال ﷺ: (إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد).

فقام أبو لهب - عم النبي ﷺ - وقال: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله فيه هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾، فتوعده الله بالنار الملهبة التي تصيبه في الآخرة، وذلك لتكذيبه وإيذائه لرسول الله، وعداوته وصدّه عن سبيل الله، ومعاداته لرسالة الإسلام.

وكذلك (زوجته أم جميل) كانت تؤذي النبي ﷺ وتكذبه وتصدّ عنه، وكانت تحمّل الشوك وتضعه على طريقه ﷺ وهو ذاهبٌ للصلاة في المسجد الحرام.

وروي أنها أخذت فِهْرًا - حَجْرًا كَبِيرًا - في يدها؛ وذهبت تريد به وجه رسول الله ﷺ.

فتوعدها الله مع زوجها؛ وقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ أي: امرأة أبي لهب ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ٤ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، وهذا من أشنع أنواع التهديد والوعيد، نسأل الله العفو والعافية.



سورة الإخلاص

• قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَكِدْ

وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

روى الترمذي والطبراني وابن خزيمة والحاكم وابن كثير وابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن "سورة الإخلاص" نزلت عندما قال بعض المشركين: يا محمد، انسب لنا ربك.

وقال بعض اليهود: يا محمد، صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله هذه السورة تُبين وحدانية الله، وأنه الأحد، الصمد، وتؤكد وحدانية الله وكمالته وجلاله وتنزّهه عن الشريك والندّ والصاحبة والولد.

ففي الآية الأولى في قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ نفى الكثرة والعدد، فهو واحدٌ أحد.

وفي قوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الذي يصمد إليه ويقصد إليه كل مخلوق وكل أحد.

وقوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفى الزوجة والولد، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ١٠١.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ليس له كفؤ، ولا مثيل، ولا شبيهه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى: ١١.

فنفى الكثرة والعدد، ونفى الحاجة إلى أيّ أحد، ونفى الزوجة والولد،
 وبين أنه ليس له كفواً أحد، ولا مثيل له - تعالى - وهو الواحد الأحد.
 وهذه السورة من عظام السور؛ لأنها توحيدٌ كلّها، وفي الحديث
 الصحيح عن النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن.

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن :

أن القرآن (مواظ) و(أحكام) و(توحيد)، و"سورة الإخلاص" توحيدٌ
 بجميع آياتها؛ فكانت بذلك ثلث القرآن في أجرها وثوابها.
 ولذلك فإن الاكتفاء بها عن القرآن وقراءته يُعتبر من الهجران المحرم نحو
 القرآن الكريم، ولا يحصل منها ما يحصل من مجموع باقي القرآن من التدبر
 والفقه والوعظ والأحكام، فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب والجزاء، وليس
 في الإجزاء، فجزاؤها وثوابها هو كثواب ثلث القرآن، أما أنها تُجزى وتُغني
 عن قراءة ثلث القرآن فهذا غير صحيح وغير مقصود.

المعوذتان: الفلق والناس

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير في التفسير والسيوطي في أسباب النزول: أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجنّ وعين الإنسان، وأصابه وَعَكٌ ووجع وألمٌ شديد، وتبين أن ذلك الوجع من سحرٍ أصاب رسول الله؛ سحره به اليهودي "ليد بن الأعصم"؛ حيث أخذ مشاطة من مشاطة شعر النبي ﷺ، فوضعتها في جوف طلع نخلٍ ذكر، ورماه في بئرٍ مهجورة في نواحي المدينة، حتى وُعث النبي ﷺ وكان يتخيّل أنه يأتي أهله ولم يأتيهم.

وذات ليلة - وهو نائم - أتاه رجُلان، فأقعدها، وقال أحدهما للآخر: إن الرّجل مطبوب - أي: مسحور - فقال الآخر: من سحره؟ قال: سحره ليد بن الأعصم، فلما أصبح النبي ﷺ أتى البئر ومعه بعض أصحابه، واستخرج السّحر منها، وحلّه وأبطله.

وفي الصحيح: أنه ﷺ لقي هذا السّحر معقوداً بإحدى عشرة عُقدة؛ مغروزة بالإبر.

فنزلت المعوذتان الفلق والناس، وهما إحدى عشرة آية، فسورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فالمجموع إحدى عشرة آية، فكان النبي ﷺ كلما قرأ آية انحلت عُقدة من عُقد السّحر، حتى وجد ﷺ من نفسه خِفةً، وانحلت العُقدة الأخيرة، وبطل السّحر، وقام ﷺ كأنما نشط من عقال.

ثم داوم ﷺ على سورتي الفلق والناس، يستشفي بهما، وشرع لنا ﷺ أن نقرأ هاتين السورتين دُبر كل صلاة، وبعْد صلاة الصبح والمغرب ثلاث مرات، وقال ﷺ: (أنزلت عليّ آيات لم ير مثلهن قطّ: المعوذتان) رواه مسلم في صحيحه.

وقال ﷺ: (قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ما تعود المتعوذون بأفضل منهما). رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني.

فهاتان السورتان دواءٌ وشفاءٌ واستشفاءٌ وعلاجٌ للنبي ﷺ ولأمته إلى يوم القيامة، فهما علاج وشفاء من السحر ومن العين، ومن القلق والهم والوسوسة..، ومن كثير من الأمراض.

وفي سورة الفلق الاستعاذة بالله من أربعة شرور: شر ما خلق من الدواب المكروهة، ومن شرّ الليل إذا أظلم، ومن شر السحر، ومن شرّ الحسد والعين.

وفي سورة الناس الاستعاذة بالله من مَرَضٍ واحد؛ هو أخطر منها كلها، وهو (مَرَضُ الوسواس)، أي وسوسة الشيطان وأفكاره وتخيالاته وتليساته التي يُلقِيها في صدور الناس، وشمل ذلك شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّكَاسِ﴾؛ لِيبيّن أن (شياطين الإنس) لا يَقْلُونَ خَطْرًا عن شياطين الجن، في الأذى، وفي تدبير الشرور.. فأوجب علينا أن نستعيذ بالله وأن نقرأ هاتين السورتين بإخلاص وتفكّر، وفي أوقاتها المشروعة؛ في الصباح وفي المساء، وبعْد كل صلاة، وعند النوم.

وكان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه فإنه يجمع كفيه ثم ينفث فيهما ثم يقرأ فيهما بسورتي الفلق والناس ، ثم يمسح بهما رأسه وما أقبل من جسده. رواه البخاري وأبو داود وابن حبان.

وقال ﷺ لأحد أصحابه: (قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حينما تُمسي وحين تُصبح ثلاث مراتٍ تكفيك من كل شيء). رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.



فائدة

في أن الناسخ من القرآن نزل لأجل رفع المنسوخ وأن الآيات المنسوخة قد تكون سبباً لنزول الناسخة

م	الآية المنسوخة	الناسخ
١	آية التوجه لأي مكان في الصلاة : ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥	بآيات القبلة: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ البقرة: ١٤٤
٢	آية الوصية للوالدين والأقربين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٨٠	بآيات المواريث وحديث: «لا وصية لوارث» رواه مسلم
٣	آية الإطعام بدون قضاء لمن لا يطيق صوم رمضان في وقت ما : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ البقرة: ١٨٤	بالآية بعدها ؛ آية مشروعية القضاء لمن عجز عن الصوم في حينه ؛ ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ البقرة: ١٨٥

<p>بآخر آية من السورة؛ آية العفو ورفع الجرح: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكَتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۗ﴾ البقرة: ٢٨٦</p>	<p>آية المؤاخظة بحديث النفس: ﴿وَأِنْ تَبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٤</p>	٤
<p>بآية عدة المتوفى عنها زوجها ٤ أشهر وعشراً ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ البقرة: ٢٣٤</p>	<p>آية عدة المتوفى عنها زوجها عاماً كاملاً: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ البقرة: ٢٤٠</p>	٥
<p>بآية جلد البكر مائة جلدة ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ النور: ٢</p>	<p>آية حبس الزاني والزانية وأذيتهما: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَعَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَعَرَضُوا عَنْهُمَا﴾ النساء: ١٦</p>	٦

<p>بآية توريث أولي الأرحام من بعض</p> <p>﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ الأنفال: ٧٥</p>	<p>آية (حلف الجاهلية)</p> <p>﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاثُوهُمْ فَصِيبُهُمْ ﴾ النساء: ٣٣</p>	٧
<p>بالآية: ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ المائدة: ٤٨</p>	<p>الآية: ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ ﴾ المائدة: ٤٢</p>	٨
<p>بآيات تخميس الغنائم: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ الأنفال: ٤١ ، الحشر: ٧</p>	<p>الآية: ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ الأنفال: ١</p>	٩
<p>بالآية بعدها: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا... ﴾ الأنفال: ٦٦</p>	<p>الآية: ﴿ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِي حَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ الأنفال: ٦٥</p>	١٠
<p>بالآية: ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ التوبة: ١٢٢</p>	<p>الآية: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا... ﴾ التوبة: ٤١</p>	١١
<p>بالآية: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ المائدة: ٩٠</p>	<p>الآية: ﴿ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ النحل: ٦٧</p> <p>على تفسير السكر بالخمير</p>	١٢

<p>بالآية بعدها: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقْتُمْ فَيَاذُلْتُمْ تَقْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ المجادلة: ١٣</p>	<p>الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيَّ جُنُودَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ المجادلة: ١٢</p>	١٣
<p>بالآية من السورة نفسها؛ قوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ المزمل ٢٠</p>	<p>الآية: ﴿قُرْءَانَ الْإِقْلِيلِ﴾ المزمل: ٢</p>	١٤

هذا بعض ما عدَّ أهلُ العلم من المنسوخ، وهو قليل؛ عدّه بعضهم نحو عشرين موضعاً، أما الناسخ فكثير جداً من القرآن والسنة، وقد أنكر العلماء على من يُفِرِّط ويُدخِل في المنسوخ ما ليس منه ^(١) (٢).

اتمهي بحمد الله وتوفيقه

وأستغفر الله عن كل خطأ ونقص وتقصير

سبحانك اللهم ومحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد

(١) انظر: ناسخ القرآن ومنسوخه، لابن البارزي، والمصفي في الناسخ والمنسوخ؛ لابن الجوزي، والإتقان؛ للسيوطي (٣٠/٢) ط: بيروت، والبرهان؛ للرزكشي (٣٣/٢) وما بعدها، وعلوم القرآن لمناع خليل (ص ٢٣١).

(٢) وهناك أيضاً منسوخ السنة النبوية، وهي أحاديث نُسخت بأحاديث أو آيات قرآنية، وقد لخصتها - بفضل الله - في كتابي: "الرسوخ في الناسخ والمنسوخ".

أهم المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. صحيح البخاري ، نسخة مرتبة على المعجم المفهرس. ط١ دار السلام للنشر.
٣. صحيح مسلم ، نسخة مرتبة على المعجم المفهرس. ط١ دار السلام للنشر.
٤. السنن الأربع ، نُسخٌ مرتبة على المعجم المفهرس. ط١ دار السلام للنشر.
٥. مسند الإمام أحمد ؛ تحقيق وتخريج الشيخ عبد الله التركي.
٦. التعريفات : لعلي بن محمد بن علي الجرجاني الحنفي ط : بيروت ، لبنان.
٧. القاموس المحيط : لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الطبعة الرابعة.
٨. الإتيقان في علوم القرآن : تأليف : جلال الدين السيوطي ، طبع البابي الحلبي.
٩. البرهان في علوم القرآن : لبدر الدين محمد الزركشي ، تحقيق : أبو الفضل.
١٠. أسباب النزول ، رسالة دكتوراه ، للباحث بسّام الجمل.
١١. تسهيل الوصول إلى أسباب النزول ، الشيخ خالد بن عبد الرحمن العك.
١٢. العُجاب في بيان الأسباب ؛ لابن حجر ، تحقيق : فواز زمرلي.
١٣. الصحيح المسند من أسباب النزول ، مقبل الوداعي.
١٤. الصحيح من أسباب النزول ، عصام بن عبد المحسن الحميدان.
١٥. لباب التأويل في معاني التنزيل : للإمام الخازن ، طبع الحلبي.
١٦. لباب النقول في أسباب النزول ، للإمام السيوطي.
١٧. التفسير والمفسرون : للدكتور : محمد حسين الذهبي ، ط١٤٢٤هـ.
١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن : للطبري ، تحقيق الشيخ : محمود محمد شاكر.
١٩. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
٢٠. تفسير القرآن العظيم ، للإمام ابن كثير.
٢١. روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن : للشيخ محمد الصابوني.

٢٢. لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير: د.محمد الصباغ.
٢٣. مناهج المفسرين: د. منيع عبد الحلیم محمود ط ١ ، دار الكتاب المصري.
٢٤. النسخ في القرآن الكريم: للدكتور: مصطفى زيد، ط دار الفكر، بيروت.

* * *

فهرس المواضسج

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٥
الفصل الاول: مقدمات في علم أسباب النزول.	٧
تعريف علم الأسباب.	٩
كيف كان نزول القرآن.	١٠
أنواع نزول القرآن.	١٠
حكمة نزول القرآن مُفرّقاً.	١٠
عناية العلماء بتدوين بعلم الأسباب.	١١
عناية العلماء بأسانيد وتصحيح الأسباب.	١٢
الفرق بين تعدّد الأسباب وتعدد النزول.	١٣
السبب العام والأسباب الخاصة.	١٤
تأخر النزول عن السبب.	١٥
بيان ما ليس من أسباب النزول.	١٥
قاعدة العموم والخصوص في الأسباب.	١٦
فوائد معرفة أسباب النزول؛ في الفقه والأحكام.	١٨
فوائد معرفة أسباب النزول؛ في التعليم والدعوة.	١٩
أهمية أسباب النزول للتدبر والتفسير.	٢٠
موقف الصحابة والسلف الصالح من القرآن وسُرعة استجابتهم لنزوله.	٢٣
الفصل الثاني: ما صحّ وثبت من أسباب النزول.	٢٥

٢٦	إحصاء مهم في أسباب الآيات والسور.
٢٧	آية البسملة.
٢٨	الحروف المقطّعة في أوائل السور.
٢٩	من سورة البقرة.
٦٠	من سورة آل عمران.
٦٨	من سورة النساء.
٨٤	من سورة المائدة.
٩٨	من سورة الأنعام.
١٠١	من سورة الأعراف.
١٠٣	من سورة الأنفال.
١١٠	سورة التوبة.
١٢٢	من سورة هود.
١٢٦	من سورة الرعد.
١٢٧	من سورة إبراهيم.
١٢٨	من سورة النحل.
١٣٣	من سورة الإسراء.
١٣٩	من سورة الكهف.
١٤٠	من سورة مريم.
١٤٢	من سورة طه.
١٤٣	من سورة الأنبياء.

- ١٤٤ من سورة الحج.
- ١٤٧ من سورة المؤمنون.
- ١٤٨ من سورة النور.
- ١٥٩ من سورة الفرقان.
- ١٦٥ من سورة الشعراء.
- ١٦٧ من سورة القصص.
- ١٧٣ من سورة العنكبوت.
- ١٧٩ من سورة لقمان.
- ١٨٣ من سورة السجدة.
- ١٨٤ من سورة الأحزاب.
- ٢٠٣ من سورة يس.
- ٢٠٧ من سورة الزمر.
- ٢٠٩ من سورة الشورى.
- ٢١١ من سورة الزخرف.
- ٢١٢ من سورة الدخان.
- ٢١٤ من سورة الجاثية.
- ٢١٦ من سورة الأحقاف.
- ٢٢١ من سورة محمد.
- ٢٢٢ سورة الفتح.
- ٢٢٦ من سورة الحجرات.

- ٢٣٤ من سورة النجم.
- ٢٣٥ من سورة القمر.
- ٢٣٧ من سورة الواقعة.
- ٢٣٨ من سورة الحديد.
- ٢٤٠ من سورة المجادلة.
- ٢٤٣ سورة الحشر.
- ٢٤٧ من سورة الممتحنة.
- ٢٥٣ من سورة الصف.
- ٢٥٤ من سورة الجمعة.
- ٢٥٦ سورة المنافقون.
- ٢٥٨ من سورة التغابن.
- ٢٦١ سورة التحريم.
- ٢٦٥ من سورة المعارج.
- ٢٦٦ من سورة الجن.
- ٢٦٩ من سورة المزمل.
- ٢٧٠ من سورة المدثر.
- ٢٧٦ من سورة القيامة.
- ٢٧٧ سورة عبس.
- ٢٨٠ من سورة المطففين.
- ٢٨٧ سورة الضحى.

سورة العلق.	٢٨٣
سورة الكوثر.	٢٨٥
سورة الكافرون.	٢٨٦
سورة النصر.	٢٨٧
سورة المسد.	٢٩٠
سورة الإخلاص.	٢٩٢
سورة الفلق.	٢٩٤
سورة الناس.	٢٩٤
فائدةٌ في أن الناسخ من القرآن نزل لرفع المنسوخ.	٢٩٧
أهم مراجع البحث.	٣٠١

اقرأ للمؤلف :

- روضه الأبرار في صحيح الأدعية والأذكار.
الروح والريحان في صحيح فضائل القرآن.
نزهة العقول في صحيح أسباب النزول.
الرحمة العالمية في صحيح السيرة النبوية.
الخُلُق العظيم على صاحبه الصلاة والتسليم.
التلخيص المفيد في علوم القرآن وأحكام التجويد.
آداب التلاوة وأخلاق القراء وقواعد الحفظ والتجويد والإقراء.
أساليب القرآن الكريم.
الرسوخ في الناسخ والمنسوخ.
التأصيل والتفريع في الفقه والأحكام والتشريع. (رسالة علمية).
التبهيئات في علم المتشابهات.
التحفة البهية في القواعد الفقهية.
اللباب في الحقوق والآداب.
أصول روايتي قالون وورش عن الإمام نافع المدني من طريق الشاطبية.
الصيام آداب وأحكام.
الحج والعمرة والزيارة آداب وأحكام .
٩ غنائم أو ٩ مهالك في حفظ الصلاة أو تضييعها.
الخلاصة السديدة في التوحيد والعقيدة.
كنوز العجائب من علم الأمثال والحكم والوعظ والتاريخ والتجارب.
القصيدة النونية ، دراسة وتعليق.
النفع الحثيث في علم الفرائض والتوريث.
دور الوسائل والتقنيات في طلب العلم والمعلومات.
جرائم الحدود والحراية نوازلهما وعقوباتها في الفقه الإسلامي (رسالة علمية).
الإرشاد في تربية الأولاد.
أدلة الفقه.
التشريف في علوم السنة ومصطلح الحديث الشريف.
هدى وشفاء "حول الصحة النفسية والأسرية والاجتماعية في ضوء الوحيين".
يحبهم ويحبونه. فيمن يحبهم الله ومن لا يحبهم عز وجل.
خواطر المنابر "مجموعة من الخطب الفقهية والاجتماعية والتربوية".
فقه الدعوة إلى الله وفضائلها وضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نزہة العقول
في صحیح أسباب النزول

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٠٤

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٣٦٦-٥